بــــاب البحــــر

روايـــــة

تأليف : عبد الله السيد



٢٠٠٦

باب البحر



الإشراف العام : محمد الحسينى

المراسـلات :
٢١ ش الصناديلى بالجيـــزة
١٧ ش العطار بالجيـــزة
ت : ٥٧١٢٦١٨
موبايل : ٠١٠٢٣١٢٥٧٩
٠١٢٤٦٢٠١٦٠

الموقع الإلكترونى :
www.dar-nevro.i8.com
البريد الإلكترونى :
dar_nevro@hotmail.com

جمهورية مصر العربية

اسم الكتـاب : بـاب البحـر
اسـم المـؤلـف : عبد الله السيد

رقـم الإيـداع : ٢٠٠٦/١٥٩٨٨
الترقيم الدولى : 977-6196-08-x
تصميم الغلاف : كامل جرافيك
لوحـة الغـلاف : محمد عبد الله
جـمع إلكتـرونى : حسام الدين سعد الدين

الطبعة الأولى
٢٠٠٦

(١)

أراح رأسه إلى زجاج نافذة القطار.. مستمتعاً بصوت ارتطام عجلاته بفواصل القضبان الحديدية.. وطالما تعجب من وصف الناس لها بالصوت الرتيب – الممل – لأنه دائماً يستمع فيها إلى قصص وحكايات.. تذهب به بعيداً.. وتسمح لخياله الشاعري أن يجول ويجول في أعماق أحلامه الكبيرة.. ما أجمل لحنها المتواصل.. المتتابع.. "توك توك – تاك تاك" "توك توك.. تاك تاك" يا لها من إيقاعات.. تفتح أمام ذهنه آفاقاً وآفاقاً من الجمال.. وترحل به عبر البلدان.. والوديان.. والسحب والسماء.. هناك.. بعيداً.. بعيداً حيث خياله الخصب.. راحلة.. إلى غده الجميل الذي رسمه لنفسه هناك بأحلام راقصة على أنغام يحبها ويأنس دائماً لها.. فهو يحكي لها.. وهي تقص عليه.. وتستمع إليه وتناجيه.. "توك توك.. تاك تاك".

أغمض عينيه.. وعقد ذراعيه.. ومد ساقيه على طولهما.. وراح يستمع إلى حكايات القضبان التي كادت تنسيه.. فرحة رحلته.. هذه الرحلة بالذات إلى القاهرة.. تختلف تماماً عن كل رحلاته اليومية.. من الإسكندرية إلى القاهرة.. فتلك الرحلة نهاية لرحلات دراسته.. وبداية لرحلة تحقيق آماله.. فهو اليوم متجه لاستلام عمله.. كمدرس موسيقى في مدرسة باب البحر في شارع يسمى باب البحر.

قيل له أنه الأقرب إلى مخطة مصر.. أخيراً.. انتهت رحلة

دراســـته بمعهد الموسيقى بالزمالك.. أخيراً يمكن له أن يحقق حلمه.. الحلــم الوحــيد الــذي تمســك به منذ صغره.. وهو أن يؤلف عملاً موســيقياً فــذاً.. يخلد ذكراه.. يخلد اسمه.. إنه يرى في نفسه القدرة على ذلك.. يشعر في أعماقه.. بقوة عظيمة قادرة على ذلك.. ذلك هو أملــه الوحيد.. وهو قادر على تحقيقه وبشكل عظيم لم يصل إليه أحد مــن قــبل.. ولقــد أعــد نفسه وروحه وذاته وكيانه له.. ذلك العمل الموسيقي الذي يخلد اسمه "أحمد جابر البحر".

حيــنما جــاء علــى ذكر اسمه.. ابتسم.. فقد عبرت بذهنه تلك القصـــة العجيبة لهذا الاسم "أحمد جابر البحر" وكيف قُدّر للصدفة.. أو القـــدر أن يلعــب دوراً فــي رســم مستقبله بسبب هذا الاسم.. فقط.. هكــذا.. حيــنما أراد والــده ذلــك الرجل العسكري الطباع.. القبطان المــتقاعد جابــر الــنمر.. وصــاحب أكــبر عمـــارة تطل على البحر بالشـــاطبي.. واشــتهر بقــبطان بالــثغر.. حينما أرسل لتسجيل ابنه المولـــود الأول – والأخير – أحمد.. أخطأ كاتب السجل المدني.. فبدلاً من أن يكتب اسم الأب (جابر سيد النمر) كتبها (جابر سيد البحر).

لــم يشــأ والــده أن يصــلح ذلك الخطأ.. لقد كان الرجل عاشقاً للإســكندرية وكل ما يخص الإسكندرية.. بحرها.. هوائها.. تاريخها.. رجالهـــا.. فنونها.. وبالذات سيد درويش البحر.. كان عاشقاً له بشكل كبــير وكم تمنى أن يرزقه الله بابن يصبح موسيقياً فذاً آخر من الثغر الجمــيل.. لذلك لم يشأ القبطان جابر النمر إصلاح ذلك الخطأ.. بل إنه

سعد به تيمنا بسيد درويش البحر ابن الإسكندرية الذي يعشقه.. وكأن هـذا الخطـأ.. كان إشارة أو علامة قدرية له بأن ابنه سيكون يوما.. فـنانا عظـيما.. رصـد حـياته كلهـا.. ووهبها لابنه الوحيد لينشئه موسـيقيا مـن صـغره.. وبـث فيه الروح الموسيقية.. وعمل على تعلـيمها له.. مـنذ نعومة أظافره.. معدا له لكى يصبح "أحمد البحر" الموسـيقي العظـيم.. وهـا هو قد تخرج الآن من معهد الموسيقى.. شاب جميل رقيق المشاعر.. مهذب.. طموح.. فنان بكل خلجاته يحمل في أعماقه آمالا كبارا.

توقـف القطـار فـي محطة طنطا.. كعادته.. تنامى إلى مسامعه صوت المذياع يشدو بصوت عبد الحليم حافظ الجميل:

"وصحيت على ثورة.. بترج الدنيا.. وجمال قدامي بينادي عليا..
قوم ارفع راسك.. واشبع حرية"

أثـار اللحـن فيه مشاعر جميلة.. فقد كانت تلك الفترة – فترة السـتينيات – مفعمة بتلك الأغنيات التي كونت مع خطب عبد الناصر وجـدان أمـة بأكملها.. أمة قد تبعت عن وعي.. أو مجرد مشاركة.. مشـاعر فياضـة وانفعـالات دافـئة تمـيز بها هذا الشعب المصري الوجدانـي التكوين.. تبعت تلك الأمة هذه التناغمة التي امتزجت فيها خطـب عـبد الناصـر وشعاراته وحماسته.. وآماله.. بكلمات صلاح جاهيـن وصـالح جودت وعبد الوهاب محمد.. وأصوات رائعة مؤثرة مـثل عـبد الحليم وعبد الوهاب وأم كلثوم ونجاح سلام وغيرهم ممن

شكلوا وجدان الأمة وساعدوا في بناء أحلامها وآمالها التي بثها فيهم زعيمهم الثائر.

لم يخرجه من تأملاته.. ومتعته بالألحان.. إلا أصوات طالبات الجامعة.. وهن يتدافعن لحجز أماكنهن بالقطار متضاحكات بأصوات كالزغاريد.. انتبه من تأملاته إلى إحدى تلك العصفورات الباسمات وهي تحاول الجلوس بالمقعد المقابل له.. سحب ساقيه الممدودتين في خجل شديد.. وبسرعة تنطق أسفاً فقد كان الخجل الجميل أحلى صفاته.. جلست أمامه واضعة دفاترها على ساقيها وكأنها تحاول أن تكمل بها (المينى جيب) القصير لتسترهما.. كانت هذه (الموضة) قد انتشرت تلك الأيام بين جميع الفتيات.. شكرته؟؟ نعم شكرته بابتسامة صغيرة.. بطعم الفل الأبيض.. وبنظرة فاحصة سريعة راقصة نادتها زميلاتها من آخر العربة.. لم ترد.. نظرن.. رأين.. فهمن.. أسرعن وتزاحمن بجوارها وحولها.. كلهن.. يرتدين سيقاناً رائعة.. من لحم مختلف الألوان.. تحرك القطار.. ثم أسرع.. وعادت ألحانة.. تلك المرة ضاحكة.. مبتسمة.. فرحة بما أتاها.. عادت تعزف فرحتها وحكايتها على قضبان من حديد أصم ابتسم هو الآخر قبل أن يغلق عينيه.. فقد كانت خطوط رفيعة من أشعة الشمس المتسللة عبر شيش الشباك المغلق.. لتسقط متتابعة على تلك السيقان وكأنها عصى من نور.. تلهب لحمهن.. غضباً؟ عقاباً؟ ربما، الغريب أن أحمد البحر.. لم يفكر حتى الآن.. في الحب.. حتى أنه لم يحاول أن يفهم معنى الحب وطعمه رغم شاعريته الشديدة.. فقد كان حبه الوحيد هو

لقـيمة هـذا الجمال الرائع.. النابع من الحياة ذاتها.. ومن تناغم كل أشـكالها بلحن روحاني.. سماوي القيمة عذب الإيحاء.. رغم نظرات الفتـيات المحـيطات به.. تلك النظرات المتلصصة.. أو الجريئة.. أو الخجولـه.. أو الضـاحكة لاستمالة اهتمامه.. كل منهن تبذل مجهوداً ما.. بطريقتها الخاصة.. فإن المرأة بالنسبة إليه لم تكن إلا إحدى تلك الألحـان الإلهـية الخلـق الجمـيلة التكويـن كلون البحر.. ورائحة الأزهـار.. وصـوت الطيور.. فقط ما هي إلا لحن جميل مشارك.. أو مكمل لهذا العمل العظيم.

نـزل من القطار كالعادة في محطة باب الحديد.. هناك.. في هذا الـبهو العظـيم.. ومن راديو مقهى المحطة الذي علا صوته وجلجل مـردداً صـداه فـي الفضـاء العظيم.. ذي الحركة الدائبة المتسرعة دائمـاً.. علا صوت الراديو وكأنه يستقبله هو.. وهو بالذات.. اختاره من بين الآلاف من البشر ليغني له أيضاً بصوت عبد الحليم حافظ:

"بالأحضـان.. بالأحضـان..بالأحضان..بالأحضان يا بلادنا يا حلوة بالأحضان".

رقـص قلـبه طـرباً.. وشعر أن ذلك فأل حسن.. اتجه إلى بائع الجـرائد بجوار المقهى كي يسأله كيف يذهب إلى باب البحر.. رافقه الـرجل متحمسـاً حماسـة أولاد الـبلد المشهورة.. إلى باب المحطة الضخم.. وأشار له قائلاً:

- "شايف المبنى الأصفر.. القديم إللي قدامك على طول ده؟"

أجاب أحمد:

- "إللى تحته الأجزخانه؟"

أجاب الرجل:

- "علــيك نور.. دي لوكاندة المحطة.. على شمالها بقى على طول شارع كلوت بك.. الشارع إللي داخل فيه الترماي ده.. شايفه؟".

أجاب أحمد:

- "أيوه الترماي الأصفر".

أكمل الرجل:

- "تدخل حضرتك فيه أول شارع على إيدك الشمال.. هو ده شارع بــاب البحر.. تلاقيه قدام فرن (لطيف وسيلي) على طول.. تحب آجي معاك أوصلك.. أنا تحت أمرك".

شكره أحمد بحرارة وانصرف.

عــبر أحمد ميدان رمسيس إلى شارع كلوت بك وهو يكمل اللحن بصوته الهادئ:

- "بالأحضــان يا مدارس.. يا كنايس أحضان الثورة يا حلم وعلم.. نور عيني وحبايبي.. وعزاز قوي على قلبي".

كــان شــارع كلــوت بك بمبانيه القديمة وبواكيه الشاهقة.. قد رصــفت أرضــيته بالحجــر البازلــت الأسود مثل كل شوارع القاهرة القديمــة.. يخــترقه الترام صاعداً إلى ميدان العتبه أو آتياً منه.. بدأ

الشـــارع فـــي حالـــة صراع بين عصر الملوك.. وعصر الثورة.. بين القديـــم والحديـــث الذي يعاني ليجد له مكاناً في هذا الشارع العريق.. بيـــن الملايـــة اللـــف (والميني جيب).. بين الضفائر والباروكة.. بين القمـــيص المفـــتوح حـــتى الصـــدر ذي الأكمام القصيرة.. والجلباب البلدي.. بين الهرولة والتشتت والهدوء والراحة.

إلى اليسار ظهر أول شارع باب البحر.. المزدحم.. شديد الحركة ورغمـــاً عـــن ذلك شعر أحمد البحر أنه يدخل بيتاً كبيراً خاصاً جداً.. ولـــيس شارعاً عادياً.. هناك كاد يصدمه.. شاب يركب دراجة.. حاملاً فـــوق رأســـه قفصـــاً كبيراً من الجريد فوقه كم هائل من الخبز.. كان الفتى يتحرك بالدراجة بسرعة وخفة واتزان غريب.. وهو يغني رغماً عـــن وضـــعه الحـــرج أغنية عبد الوهاب "اجري.. اجري.. اجري.. وصـــلني قـــوام وصـــلني" ثم ما لبث أن اختفى في بطن الشارع الذي التهمه فرحاً.

ابتسم أحمد قائلاً:

- "هـــنا.. أكـــيد هـــنا.. في هذا الحي الرائع.. الحي (الحي) سيجد لحنه المنشود.

مدرسة باب البحر.. أو كتّاب الشيخ إسماعيل.. كما يطلق عليها كبار أهل الحي وهو اسمها القديم قبل الثورة.. مبنى قديم.. صغير.. صغير جداً.. مكون من طابق واحد فقط إنه باب خشبي ضخم.. كثرت فيه شقوق الزمن.. عليه (سقاطة) طرق نحاسية صدئه على شكل يد تمسك حجراً.. ذو شراعة عليها أسياخ حديدية.. صدئه أيضاً.. كل شيء في هذا المبنى متهالك حيث تظهر أحجار بنائه الجيرية الضخمة.. كانت غرفة الناظرة.. هي الغرفة الإدارية الوحيدة بالمبنى إلى يسار الداخل.. وإلى اليمين.. حجرتان للدراسة.. أرضية المبنى من البلاط (المعصراني) الكبير.. كان المبنى أقل ارتفاعاً من أرض الحارة. حيث ينزل الداخل إليه درجتين حجريتين عريضتين.. على إحديهما نقوش فرعونية من الواضح أنها جلبت من أحد الآثار.. كان يمكن للمارة بالحارة رؤية ما في غرفة الناظرة من النافذة الكبيرة ذات الأسياخ الحديدية القديمة.. يقع هذا المبنى الأثري على يسار الداخل إلى حارة (جنينة مفتاح).. لا يوجد بالمبنى كله سوى ثلاثة فصول.. وغرفة الناظرة.. ومخزن صغير.. وكشك خشبي صغير.. للحكيمة.. كانت الفصول ذات مقاعد خشبية طويلة تسمى المقاعد الخماسية حيث صمم المقعد ليجلس عليه خمسة تلاميذ- نظرياً- والحقيقة يجلس عليه ثمانية وتسعة تلاميذ -عمليا -إذا.. أين بقية فصول المدرسة؟ فلا يعقل أن تكون المدرسة عبارة عن ثلاثة فصول

فقــط.. إنـــه مبنى آخر.. أحدث من هذا بعض الشيء.. هناك.. داخل حارة جنينة مفتاح يبعد عن الأول حوالي مائتي متر.

اســتقبل أحمــد الــبحر.. أبــو ابراهــيم.. فــراش المدرسة.. ومراســلها.. وحارســها ..وسكرتيرها.. ومسئول المقصف.. وأمين المخــزن.. وكهربائــي.. وســباك ونجار المدرسة ..هو باختصار.. المســئول عــن كل شيء.. إنه الأب الروحي للمدرسة ولمَ لا؟.. فهو يعمــل بها منذ إنشاء كُتَّاب الشيخ إسماعيل.. أيام أن كانت كل مهمته هــو تعلــيق التلاميذ المشاغبين على الفلكة لتأديبهم بلا فائدة.. يعتقد أهــل الحــارة.. أن عمــر أبو إبراهيم ألف سنة.. فقد تعلموا كلهم.. وحفظــوا القرآن على يديه.. ويقسم بعض الكبار أنه قد وُلدَ ليجد أبو إبراهــيم.. هكذا.. بنفس الشكل.. رجلاً طويل القامة.. ضخم الجسم.. صــارم الملامــح.. عظيم الأنف.. ذا شاربين شامخين كاللذين للزناتي خليفة (يقف عليه صقران).

بعــد استجواب دقيق– صارم أيضاً– عرف أبو إبراهيم ماذا يفعل أحمــد البحر– هذا الغريب– في مملكته.. وسبب دخوله إليها وهكذا.. سمح أبو إبراهيم لأحمد البحر بالمثول أمام الناظرة

– "تعال معايا يا أفندي.. قابل أبلة أزهار.. الست الناظرة".

أدخلــه أبــو إبراهــيم حجرة الإدارة الوحيدة.. ثم تركه وأسرع صــائحاً ليطرد الكلب الضال الذي دخل إلى المدرسة متلصصاً.. باحثاً عــن أي طعام.. كانت أبلة أزهار تجلس إلى مكتب صغير من الصاج

الــرمادي.. وقــد علقت فوق رأسها صورة ورقية للرئيس جمال عبد الناصــر بدون برواز، بجوارها علم الجمهورية من الورق أيضاً.. قد خلع أحد أطرافه.. فمال بطرفة جانباً وكأنه على وشك السقوط.. كانت أبلــة أزهار.. غليظة الملامح.. نحيفة الجسم.. طويلة القامة.. قصيرة الشــعر الأفريقي الطابع.. شديدة السواد.. بدت وكأنها من قبائل وسط إفريقية، ابتسمت عن أسنان بيضاء ناصعة البياض بادرته قائلة:

- "أهلاً وسهلاً.. شرفت المدرسة.. اتفضل استريح".

كــان هــناك عــدد مــن المدرســين يجلس حولها في الغرفة.. يتناقشــون.. صــمت الجمــيع عــند دخول هذا الغريب.. غريب عن المدرســة.. عــن الحارة.. عن باب البحر.. الذي يعرف من فيه.. كل من فيه.

جلس أحمد البحر إلى أقرب مقعد بجوار الباب.. ذلك المقعد الذي كــان يوماً ما في ماضي عهده.. مقعداً وثيراً.. منجداً بالجلد الأسود.. والــذي أصــبح الآن.. عــبارة عن (قُرصة) خشبية تحت الجلد الذي اهترأ من كل جانب.

ســلم أحمــد خطــاب التعيــن إلــى الناظرة.. التي تفحصته.. باســتغراب ثــم مــا لبثت أن قهقهت ضاحكة.. وقد اهتز كتفاها بشدة قائلة:

- "أما دي وزارة مجانين بصحيح.. تصوروا؟.. باعتين لنا مدرس موســيقى.. مــدرس موســيقى وإحنا ما عندناش آلة موسيقية

واحدة ولا حتى مكان للموسيقى".

قال أحد المدرسين متهكماً:

- كانوا بعتوا لنا علبة طباشير أحسن.. آهي حاجة تنفع.

شـــعر أحمـــد بشيء من الإهانة.. رمق المدرس بعينيه معاتباً.. كـــف الرجل عن الضحك بعد أن شعر بالحرج.. وهكذا.. كف الجميع.. أردفت الناظرة قائلة:

- ثم إحنا مدرسة ابتدائي.. والأستاذ خريج جامعة.. يعني من حقه التعيين في مدرسة ثانوي.. أو حتى إعدادي!!

نظرت إلى أحمد البحر بشيء من جدية قائلة:

إنـــت مـــن حقـــك تكتـــب شـــكوى.. تطلب النقل لمدرسة تناسب مؤهلك.. أو حتى يكون فيها إمكانيات.. على العموم إنت اعتبر نفسك اســـتلمت العمـــل النهاردة.. حاعملك إقرار استلام العمل حالاً.. دلوقت أعرفك على زمايلك.

فصاح أحدهم.. معترضاً:

- إيه ده؟- هو حضرتك برضه حتخليه يشتغل هنا- معانا؟

أجابت الناظرة بصوت صارم:

- مش شغلك ده يا سيدنا الشيخ.

ثم اتجهت إلى أحمد البحر قائلة:

- أعـرفك يـا سيدي على أول الزملاء الشيخ رشاد.. مدرس قديم هـنا أنـا نفسـي جيـت لقيـته في المدرسة.. بيشتغل بالكفاءة القديمـة.. ودايمـا حاشر نفسه في كل حاجة.. وبيشتغل هنا من أيـام مـا كانـت المدرسة (كُتَّاب) التفت أحمد إلى الشيخ رشاد.. رجـل صغير الجسم.. ملتح.. أعور العين اليسرى.. يرتدي جبة وعمامة.. يمسك بيده مسبحة صغيرة.. سيئ الهندام جلس الشيخ رشاد قائلاً:

- أعـوذ بـالله.. وزارة فاسقة.. إلى جهنم كلهم وبئس المصير.. أعوذ بالله.. موسيقى ومسخرة!! هي البلد ناقصة مسخرة؟

ثـم مـا لبث أن انطلق خارجاً وهو يتمتم بغضب.. لم تلتفت إليه الناظرة بل أكملت:

- سـيبك مـنه.. وده بقـى الأستاذ علي بنهاوي.. إحنا بنقول له بنهاوي كده على طول.. من غير علي.

نهض رجل سمين.. ذو كرش عظيم.. يتحرك بشيء من الزهو.. وقـد غطـى صلعته العريضة.. ببعض بقايا من شعر طويل.. ناعم.. ملتصـق برأسه بالعرض من جانب إلى آخر.. اتجه بنهاوي إلى أحمد مصافحاً بحرارة قائلاً:

- أهلاً وسهلاً.. شرفت مدرستنا المتواضعة يا أستاذ.. إن شاء الله هاتسـتريح معانـا قـوي.. ما تزعلش من الشيخ رشاد.. هو ده طبعه وكلنا بنعامله على قد عقله.

أكملت الناظرة قائلة:

- ودي بقى.. أمورتنا الحلوة.. الآنسة إلهام.. نوارة المدرسة.

التفت أحمد إلى فتاة تجلس في الزاوية على الكرسي الوحيد الوثير أمام المروحة الكهربائية الروسي التي تصدر احتجاجا متقطعاً وكأنها شخص ما يعرج أثناء سيرة مسرعاً.. وغاضباً.. فتاة رائعة الحسن.. قد وضعت ساقاً على الأخرى.. فبذل (الميني جيب) أقصى ما يمكن أن يقوم به من جهد.. لإظهار جمال فخذيها الأبيضين.. كانت ملابسها تدل على رقي من نوع ما.. وقد وضعت مكياجها بشكل متقن.. كنجوم السينما.. نظرت إليه بإيماءة وابتسامة.. جعلت العرق يبحث له عن مخرج من حرارة جسده.

دق الجرس فخرج معظم الجالسون.. بدون التعرف على القادم الجديد أكملت الناظرة متجهة بحديثها إلى إلهام:

- وده بقى.. الشاب الحليوة ده.. زميلكم الجديد.. الأستاذ أحمد البحر.. هو مدرس موسيقى.. لكن إنشاء الله أنا حاتصرف في مشكلة الموسيقى دي.

ثم ابتسمت في هدوء.. قطعت إلهام صمته الخجول.. بسؤاله بجرأة مباشرة وبصوت أنثوي ناعم:

- انت منين يا أحمد؟

أجابها متلعثماً:

– أنا من إسكندرية.

فأردفت:

– يبقى تقرب لسيد درويش البحر.

فأجاب خجلا:

– لا.. أبداً.. دا تشابه أسماء بس.

دخل الشيخ رشاد مندفعاً إلى الغرفة قائلاً وكأنه وجد ضالته:

– يبقى تقرب لسيدي محمد البحر رحمه الله.

تساءل أحمد:

– مين؟

أخذه الأستاذ بنهاوي قائلاً:

– يـــاللا يـــا أستاذ أحمد.. تعالى معايا.. أوريك المدرسة.. وأعرفك على باقي الزملاء.

خرج أحمد مقطب الجبين.. سأله الأستاذ بنهاوي مبتسماً:

– إيه؟.. مالك؟.. يا عم روق.

أجاب أحمد غاضباً:

– بس.. الشيخ ده.. ماله؟

أجاب بنهاوي:

– ميـــن؟ الشيخ رشاد؟.. يا سيدي.. ولا يهمك منه.. دا أصله بس

غيران منك.

تساءل أحمد البحر:

ليه بقى؟ هايغير مني ليه؟ هو يعرفني لسه؟

أجاب بنهاوي:

- غـيران مـنك.. لأنـك خـريج جامعة.. وهو عارف إن مرتبك هـايكون قـد مرتبه حوالي أربع مرات.. من أول تعيينك.. وهو بالكفـاءة القديمة وبيشتغل في التدريس من عشرين سنة ومرتبه أربعـة جنـيه ونـص.. هو رأيه إنه خرج من تحت إيده أجيال وأجـيال مـنهم خريجين الجامعة زيك.. ولسه مرتبه أربعة جنيه ونص.. هو حاسس بالظلم والقهر.. الكل من حواليه بيتقدم وهو محلك سر.. بس يا سيدي.. هي دي كل الحكاية.

ظـل الأسـتاذ بـنهاوي أثناء حديثه.. يحيي أهل الحارة.. أثناء سيرها من المبنى القديم إلى المبنى الجديد.. بينما يحاول أحمد تفادي الاصـطدام بـبعض الماعـز المـربوط إلى حديد النوافذ المنخفضة أو المطلـق بحريته بالحارة.. أوقف بنهاوي أحد المدرسين الذي قابلهما وهـو يسـير بطـابور مـن التلاميذ والتلميذات يحمل عصا خيرزان طويلة.. استوقفه بنهاوي قائلا:

- أسـتاذ لطفـي.. اسـتنى.. تعـالى أعرفك على الزميل الجديد.. الأستاذ أحمد البحر.. مدرس الموسيقى.

حينما وقف الأستاذ لطفي مستغربا.. هرب التلاميذ منه مسرعين بأصواتهم العالية.. جرى خلفهم بعصاه صائحا:

- قــف.. قــف.. إنــت يــا ولــد انت وهي.. قلت قف آه يا أولاد الشياطين.. طيب والله لأذنب الفصل كله.

وأسرع مختفياً خلف التلاميذ في انحناءة الحارة الضيقة.

(٣)

لـــم تســـتطع أحـــداث الـــيوم أن تصـــيب أحمد البحر بالإحباط.. سيحضـــر العود سيشتريه.. سيعلمهم قيمة الموسيقى.. سيعلمهم نشيد الصـــباح.. والســـلام الجمهوري.. سيكون فريق موسيقى.. لابد وأن يكـــون بيـــن هؤلاء التلاميذ موهوبون.. لابد من ذلك.. سيعلم الجميع قـــيمة الموســـيقى وأهميـــتها سيعلم الشيخ رشاد هذا.. أن الموسيقى غـــذاء الروح.. وأن الإنسان بدون تذوقه للموسيقى.. لا يختلف كثيراً عن الحيوان.. حتى الحيوان يمكن له أن يتذوق الموسيقى.

كانـــت خطوته التالية أن يبحث عن فندق أو لوكاندة.. قريبة من المدرسة لإقامته.. يعرف أن شارع كلوت بك مليء باللوكاندات بطول الشـــارع.. وعلى جانبيه.. تخير أقربها.. كان مبنى صغيراً نوعاً ما ذا لافتة كبيرة بألوان زاعقة "لوكاندة أنس الوجود"

سأله الكاتب الجالس بالمدخل:

– عايز أوضة فرداني.. ولا مشترك..؟

أجاب أحمد:

– فرداني لو سمحت.. بس تكون نضيفة.

أجاب الرجل بغضب:

– خمســـة وعشرين قرش في الليلة.. وتسيب الأوضة قبل الساعة

اتناشر الصبح.. وإلا حسبنا عليك يوم تاني.

قال أحمد مبتسماً:

- لا.. أنا ناوي أقعد مدة كبيرة.

ابتسم الكاتب عن أسنان صفراء قائلاً:

- علـــى خـــيرة الله.. لـــو شـــرفتنا بحسب لك الشهر بثلاثة جنية ونـــص.. إيه رأيك؟.. ونختار لك أحسن أوضة عندنا كمان.. على الشارع.

خرج أحمد من الغرفة.. بعد أن عاينها.. ليتم تغيير فرشها القذر وتنظيفها.. ومسحها جيداً.. اتجه إلى مكانه المفضل الذي طالما جلس فـــيه هـــناك.. أياماً وأياماً.. حيث كان يستذكر دروسه بهدوء.. حتى أصبحت علاقته بالجرسونات حميمة.

جروبـــي عدلـــي.. أو كمـــا يسميه البعض حديقة جروبي.. كان يهـــوى هدوءه.. وهدوء رواده.. حيث كان معظمهم من الأجانب كبار الســـن.. يقضون نهارهم هناك.. يتسامرون في هدوء شديد.. كما كان يحـــب جرسوناته النوبيين السمر.. لأدبهم الجم بطرابيشهم الحمراء.. وأثوابهـــم البيضـــاء.. التـــي يلفونها من وسطهم بأحزمة من القماش الأحمـــر.. لقد كانوا.. رمز الأدب والنظافة والهدوء.. يشعر دائماً أن هـــذا المكـــان.. من بقايا عصر الجمال يصارع للبقاء.. والإبقاء على روحة الأرستقراطية الهادئة.

أحـب الجرسـونات أحمد البحر الشاب الهادئ الذي يداوم على الجلـوس فـي أحد الأركان يستذكر دروسه.. أو يطالع أحد كتبه وكم سـألوه عـن أحواله.. يفرحون بنجاحه.. ويحزنون لحزنه.. جروبي عدلـي.. الهـادئ ذو الهواء النقي.. والهدوء الشديد.. كم كان يحب الحصـى (الـزلط).. المفروشـة بـه الأرض كلها.. تحت المقاعد.. والطـاولات.. حيـث كـان يشعر به يتحرك تحت قدميه محدثاً صوتاً جميلاً.. فيملأه بمشاعر صيفية جميلة.

نادى أحمد البحر:

- لـو سـمحت يـا عم إدريس.. عايز اتغدى.. لأني حاموت من الجوع.

ابتسم عم إدريس وهو يمسح الطاولة بالفوطة الحمراء:

- أسـباجتي بالجبـنة الرومـي.. وبعدين فنجان قهوة سادة.. أنا فاكر.. الحمد لله على السلامة.. وصلت إمتى من إسكندرية؟

أجاب أحمد البحر:

- جيت النهاردة.. أنا استلمت الشغل.. هنا.. في القاهرة.

قال عم إدريس:

- علـى خيرة الله.. ربنا يوفقك يابني.. انت إنسان طيب وتستاهل كل خير.

دفـع أحمـد الحساب تسعة قروش للأسباجتي بالجبن الرومي..

وقرشــان ونصف للقهوة السادة.. ونصف قرش بقشيش لعم إدريس..
وخــرج كعادته.. من باب عبد الخالق ثروت.. إنه يحب أن يخرج من
جهة شارع عبد الخالق ثروت.. فهناك بطول الشارع.. توجد عمارات
تشــبه تمامــا عمــارة أبيه.. التي ولد بها.. وعاش فيها على شاطئ
الــبحر بالإســكندرية نفــس الفخامــة.. نفس البلكونات ذات الحديد
المشــغول بأشــكال زخرفــية جمــيلة.. نفس النوافذ الكبيرة.. نفس
الــزخارف والتماثــيل النصفية على الأركان.. نفس المدخل الشاهق..
نفــس المصــعد.. ذي الكابيــنة الخشبية المبطنة من الداخل بالقطيفة
الحمــراء.. حتى أبوابه الحديدية.. ومراياه المنقوشة.. وأبواب الشقق
الخشــبية ذات الأخشــاب الغالــية.. تلــك الأبواب الثقيلة.. المنقوشة
بــنقوش مــن الحفر الغائر والبارز.. رخام السلم الباقي على روعته
رغــم مــرور الســنين.. ربما كان نفس المهندس الذي بناها واحد،
تســاءل أحمــد "ترى.. هل كانت هذه العمارات تضاء أيضاً بالغاز؟..
مــثل عمــارة أبــيه التــي كانت الإضاءة بها بالغاز.. والتدفئة أيضاً
بالغــاز.. وحتى المطابخ والحمامات تعمل بالغاز وكان ذلك قبل الثورة
ولكن.. للأسف.. توقف كل ذلك".!!!

كــان أحمــد يسير في وسط البلد.. متغزلاً.. محبا.. مغرماً بهذه
الشــوارع.. بعماراتهــا القديمــة الفخمة.. فقط كان يحب فخامة تلك
المبانــي التي كانت تدل بروعتها عن عصر جميل.. يلفظ أنفاسه.. لم
يكن يشده إلى تلك الشوارع محلاتها.. أو بضائعها.. أو سيقان فتياتها
أو طالــبات المــدارس الــثانوية -كــم كان يعجب ..لم كانت طالبات

المـــدارس الثانوية يأتين إلى وسط البلد؟ يسرن أزواجا وقد احتضنت كـــل منهـــن حقيـــبة كتـــبها مفتوحة.. تحتضنها بدلال شديد.. يمزحن بضـــحكات عالـــية.. وحركات شقاوة.. لم يكن يعرف السبب الحقيقي لذلك- بل كانت تشده فخامة المكان.

اتجـــه إلـــى ميدان سليمان باشا.. حيث صالة الموسيقى.. وهي الصـــالة الوحـــيدة المتبقية.. هناك في تلك الصالة.. بجوها المكيف.. اســـتمع إلى معشوقته (السيمفونية التاسعة لبيتهوفن) ثم (السيمفونية الأولى لجون سيبلياس) ثم خرج منتشياً.. وكأنه في عالم غير العالم.. لـــم يكن يعلم أن هذه الصالة الجميلة ستتحول يوما ماإلى مقر للاتحاد الاشـــتراكي.. ثـــم مقراً لحزب التجمع.. فيضيع بذلك أحد أرقى وأجمل ما تبقى من عصر تميز بالجمال.

تـــرى.. هـــل يستطيع أحمد البحر أن يضع لحناً في روعة.. هذه الأعمـــال؟ ولمَ لا؟ يوماً ما.. بل إنه قد لا تنتهي تلك السنة ١٩٦٧ إلا وقـــد وضع لحنه الكبير.. المدفون هناك في باب البحر.. إنه واثق من وجـــوده هـــناك.. وسينقب عنه.. ويحفر بأظافره باحثاً عنه هناك في حـــواري ودروب هـــذا المكان.. في وجوه وملامح وأصوات ومشاعر وأحاســـيس الناس هناك.. في آلامهم وآمالهم في سعادتهم وشقائهم.. هـــناك.. تحـــت المـــلاءات اللف.. بين ضفائر الفتيات.. تحت الأقدام الصـــغيرة اللدنـــة للأطفال الراكضين المهرولين العابثين.. في رائحة وطعـــم الفـــول والكشـــري والطعمـــية والكوارع ولحمة الراس.. بين

شـــموع ودموع النساء هناك أمام شباك النذور لمقام ولي ما يعترض الشارع متحديا.. عرف بعد ذلك أنه مقام (سيدي محمد البحر).. الذي يحـــترمه ويـــبجله.. ويتبارك به كل أهالي الحي.. يقدمون له النذور ويضـــيئون له الشـــموع بإيمان راسخ أنه ذو كرامات.. هناك في هذا المكـــان يوجـــد لحنه الذي يكاد يسمعه حقاً من الآن.. أتياً من هناك.. من عمق المكان.

لـم تجـد (أبلة أزهار) حلاً لمعضلة أحمد البحر بالمدرسة إلا أن توكـل إلـيه تدريـس مادة الحساب والهندسة لحين نقله إلى مدرسة أخـرى ذات إمكانـيات.. نجـح أحمد البحر في مهمته الغريبة بشكل جـيد.. وتفاعل مع التلاميذ بشكل رائع.. وأصبحت علاقته بهم علاقة ألفـة ومحـبة.. وصـداقة حميمة.. أحبه التلاميذ جميعاً لشاعريته.. ورقـته ومعاملـته لهـم بالحب والتفاهم.. لم يمسك يوماً عصا كباقي المدرسـين.. لم يسب أو يوبخ تلميذاً مهما كان خطؤه.. بل كان يتركه يحاسـب نفسه.. ويشعر بخطئه.. دون عتاب.. لم يكن يخرج من باب الفصـل فـي نهايـة اليوم الدراسي إلا وتشبث به وبيده كل الأطفال وتصارعوا من يمسك بيده سواء كانوا أولاداً أم بنات.. كثرت هداياهم لـه مـن ورد.. وزجاجات عطر.. وميداليات.. وأقلام حبر.. كل منهم يعـبر بطريقـته عن محبته لذلك المدرس الرائع.. الغريب.. المختلف عـن كـل مـن عـاملهم من مدرسين كما توطدت العلاقة بينه وبين الأسـتاذ بنهاوي.. أراد أحمد دعوة الأستاذ بنهاوي على الغداء.. في مكانـه المفضـل.. جروبي عدلي.. بعد أن عرف أن بنهاوي يحيا هنا بالقاهـرة وحـيداً مثله.. حيث تقيم أسرته بإحدى القرى بجوار مدينة بنها.. يسافر إليهم كل خميس وجمعة أسبوعياً.

ولكـن.. بعـد أن علـم بنهاوي بقيمة غدائه في جروبي.. ثارت ثائرته.. وعنّف أحمد بشدة:

- يا أخي حرام عليك؟.. أنت إيه؟ مالك سايب.. يالهوي يعني ربع جنيه تدفعه لغدانا إحنا الاثنين.. علشان إيه يعني.. شوية مكرونة.. دا كيلو المكرونة بقرشين صاغ.. يغدي أورطة بحالها.. وأحسن سندوتش فول أو طعمية هنا يملا المعدة بقرش تعريفه.. أعوذ بالله.. تدفع خمسة وعشرين قرش.. طب ليه؟ يا خبر.. دول يأكلوا عيالي في البلد يجي أسبوع.. شوف يا أستاذ أحمد.. بكرة إنشاء الله.. أنا عازمك.. حاتتغدى في مطعم نظيف حلو.. هنا في كلوت بك قريب يعني مش هايتكلف الغدا ثلاثة صاغ.. تعالى معايا بكرة.. جرَّبه.. يا نهار أغبر.. أنا اتغدى باتناشر قرش.. ليه؟ وعشان ايه؟.. دا حتى يبقى افترا".

صحبه الأستاذ بسنهاوي بعد الغداء إلى (قهوة أولاد الباشا).. مقهى قديم بشارع باب البحر.. بجوار مسجد (سيدي محمد البحر).. يديره الحاج علي الباشا أحد أبناء عائلة الباشا المشهورة.. أكبر عائلات باب البحر.. لها مكانتها الكبيرة وسمعتها وعزوتها بالمنطقة كلها.. ولها احترامها أيضاً بين أهل الحي.

كان المقهى في مبنى قديم أزيلت أدواره العليا.. ولم يبق سوى المقهى ببابه الخشبي الكبير ذي الأربع ضلف خشبية تغلق كلها بعامود حديد بعرض الباب.. كانت أرضية المقهى ببلاطها المنقوش بشتى الألوان.. تعتبر شيئاً حديثاً بالنسبة للمكان.. أما الكراسي الخشبية القديمة بقواعدها المصنوعة من الخوص المجدول وقد ظهر

علـــى كـــل كرســـي عبارة (قهوة الباشا) ثم رقم الكرسي.. وطاولاتها الحديديـــة ذات القـــرص مـــن رخـــام الكرارة الأبيض المشقق.. مع الطـــاولات الصغيرة الأخرى الحديدية الأرجل ذات القرص من صفائح الـــنحاس تكَـــون جـــواً شـــعبياً قديمـــاً.. له كل عبق الأحياء الشعبية المعـــروفة.. كـــل ذلك قد اكتمل بالكنبات الخشبية العريضة والمرتفعة والمفروشـــة بالســـجاد البلدي المصنوع من شرائع الأقمشة القديمة.. مـــع طاولة وكرسي الحاج علي المرتفع كثيراً في مواجهة الباب أمام (النصـــبة) الذي أكمل الصورة الشعبية الرائعة للمقهى.. أخذ هذا الجو في الحال بقلب ولب أحمد البحر.

جلسا في مكان الأستاذ بنهاوي المفضل في مدخل المقهى.. حيث كـــان يهـــوى مراقـــبة الشـــارع من هذا المكان.. أمال بنهاوي إحدى الطـــاولات المعدنية المستديرة الصغيرة بين ساقيه.. وجعل ينقر عليها بأصابعه.. وهو يغني مع الراديو.. لاحظ أحمد البحر أن بنهاوي يغني بكلمـــات مخالفـــة لكلمـــات الأغنية.. كلمات فيها الكثير من السخرية اللاذعـــة.. كانت لديه قدرة هائلة على التأليف الفوري لتلك الكلمات.. لم يكن الراديو في تلك الأيام يكف عن بث الأغنيات الوطنية.

رحب بهم الحاج علي الباشا متهكماً على كرش بنهاوي الكبير:

– يتربى في عزك يا حضرة الخوجة.

مسح بنهاوي على كرشه باعتزاز كبير قائلاً:

– واحد شيشة يا ولد يا كشري واثنين شاي.. يالا يا واد اتلحلح.

قال الراديو بحماس:

- "أنا النيل مقبرة للغزاة.. أنا الشعب ناري تبيد الطغاة"

"أنا الموت في كل شبر إذا.. عدوك يا مصر لاحت خطاه"

ولكن كلمات البنهاوي كانت:

- "أنا الشعب جوعي بيلحس قفاه.. حايغرق أمضينا وياخدنا معاه"

"دا لو كل واحد يلاقي غداه.. حايرقص ويهتف وينسى عشاه"

صمت بنهاوي قليلاً ثم قال:

- يظهر إن الحرب حاتقوم يا ولاد.

نفـــخ (كشري) صبي المقهى في النار.. لتحضير الشيشة.. وهو جالس القرفصاء أمام الأستاذ بنهاوي ثم قال:

- أنا سمعت إن إسرائيل ناوية تضرب سوريا.. عليا النعمة.. كانت سوريا تاكلها أكل.

دفعه الأستاذ بنهاوي قائلاً:

- إيـــش فهمـــك إنـــت في السياسة يا جاهل.. قوم يا واد من هنا ياللا.. روح شوف شغلك ياللا.

صـــاح الحـــاج علـــي مـــن فوق كرسيه العالي وقد علته صورة ضخمه لجده باللباس الصعيدي في صدر المقهى:

- بالـــراحة علـــى الواد يا بنهاوي أفندي.. الواد مش قدك.. بلاش

كلام في السياسة يا واد يا كشري يا حمار انت.

لم يلتفت بنهاوي إلى كلام الحاج علي.. فقد نهض مرحباً:

- أهلاً.. أهلاً.. يا أسطى حسن.

التفت أحمد البحر خلفه.. كان القادم إليهم.. رجلاً وسيماً.. فاحم الشـعر منسقه ذا شارب رقيق مهذب بعناية.. يرتدي قميصاً أبيض.. ناصـع البـياض مكوياً جيداً وسروالاً أسود.. كانت واضحة عنايته الفائقـة بمظهـره.. ولكنه كان يسير على عكازين من الخشب.. وقد وضح أنه فقد إحدى ساقيه.. جلس الأسطى حسن قائلاً:

- يـا عم بالراحة على الواد شوية.. طيب إيه رأيك بقى إن الوالد كشري ده ساعات بيفهم أكتر مننا كلنا.

ثـم رمق أحمد البحر بنظرة متسائلة.. فاحصة.. فبادره بنهاوي قائلاً:

أعـرفك علـى الأستاذ أحمد البحر.. زميل جديد بالمدرسة.. لسه متعيـن يعنـي خـام خـالص.. ودا يا أستاذ أحمد.. أعز صديق ليا.. الأسطى حسن.

صافحه الأسطى حسن وهو يقول معترضاً:

- يـا أخـي.. عرَّفني صح.. أنا يا أستاذ.. حسن الأعرج.. اسمي كـده.. الـناس كلهـا هنا عرافاني بالاسم ده.. حسن الأعرج.. باشتغل لا مؤاخذه جزمجي.

صاح صوت قادم:

- أحسن صنيعي جزم في مصر.. الأسطى حسن الأعرج.

كـــان القادم رجلاً طويلاً.. عريض المنكبين. ضخم الجثة. يرتدي بدلـــة كاملـــة.. سوداء قديمة.. غير نظيفة.. وقميصاً.. كان يوماً ما أبيض.. عليه (بيبيون) أحمر مزركش ببقع قديمة.. يرتدي طربوشاً.. وقد علق سلسلة ساعة في جيب الصديري بدون ساعة.. ظهر الرجل وكأنه باشا حقيقي من باشوات قبل الثورة بشاربة المشرع الطرفين.. وكـــأنهم أخـــرجوه للتو من المخازن القديمة.. من وسط الأتربة.. قال الأسطى حسن:

- أهلاً يا باشا.. دا أنا كنت فاكر إني حاجي ألاقيك هنا.. مد الرجل يـــده لمصـــافحة أحمد البحر وعلى وجهه نظرة تعال.. كتلك التي كانـــت تعلـــو وجـــوه باشوات زمان- وكذلك بشوات هذا الزمان أيضاً- أنا سعيد باشا فهمي بن فهي باشا الأسيوطي.

صافحه أحمد البحر قائلاً:

- وأنا أحمد البحر.. مدرس جديد.. زميل الأستاذ بنهاوي

ثم انحنى إلى إذن البنهاوي متسائلاً:

- هو لسه فيه بشوات؟

سمعه سعيد باشا فقال محتداً:

- أيـــوه يا سيدي.. أنا باشا.. ابن باشا.. وحافضل باشا.. حتى لو

عملوا ميت ثورة.. ونهبوا أطيان أسيادهم وأموالهم.. أيوه.. إحنا برده أسيادهم.

حاول بنهاوي تهدئة الموقف مبتسما:

- يـــا ســـيدي كلـــنا عارفين أصلك.. الراجل لسه جديد.. أول مرة ينضم للشلة.. وإللى ما يعرفك يجهلك.

تـــنهد الأســـطى حسن تنهيدة فيها الكثير من الألم.. وتمتم وكأنه يحدث نفسه:

- يعنـــي هـــي الـــثورة خـــدت منك إيه يعني؟ شوية أطيان؟ الدور والباقي على إللي خطفوا منهم شرفهم.

صـــمت الجميع.. وأطرقوا إلى الأرض.. وكأنهم يخفون نظراتهم فيها.. وكأن الأسطى حسن قد قرع باباً ما مغلقاً.. بتعليقه ذلك المبهم.

لم يقطع الصمت إلا صوت سعيد باشا.. متسائلاً:

- أمـــال فين حلاق الغبرة؟.. الراجل التلم.. إللي ما عندوش ريحة الدم.. أجاب بنهاوي معاتباً:

- يا شيخ حرام عليك.. والله العظيم الأسطى وليم بيحبك.. بس هو غاوي ينكشك.. ليس إلا.

قال حسن.. متطلعاً خارج المقهى:

- علـــى العمـــوم.. زمانه جاي.. أنا مش شايف غير الزبون اللي تحت إيده.

نظــر أحمــد البحر حيث نظر الجميع.. كان محل الحلاقة الخاص بوليم الحلاق.. المواجه للمقهى.. صغيراً جداً.. لا يحتمل داخله سوى كرســي الحلاقة.. وكنبة خشبية صغيرة.. تسع زبونين آخرين.. لفت نظــر أحمــد البحر القدور الزجاجية الكبيرة المعلقة على باب المحل.. والتي تسبح فيها ديدان سوداء.. تلك القدور التي شاهدها على أبواب معظــم محــلات الحلاقــة في شارع كلوت بك.. وهاهي ذي يراها في شارع باب البحر.. سأل أحمد:

- هــي إيه البرطمانات دي إللي على باب المحل؟.. وإيه اللي عايم فيها ده؟

إنبرى سعيد باشا مجيباً:

- دا بعيد عنك يا سيدي جهل.. ناس جهلا.. رعاع.. بعيد عنك.

أجاب بنهاوي متجاهلاً تعليق سعيد باشا:

- دي يــا سيدي ديدان.. علشان ضغط الدم.. إللي ممكن يجيبه لك واحد متفزلك.. وطالع فيها مثلاً.

ثــم رفــق سعيد باشا.. معاتباً.. أكمل الأسطى حسن شرح مهمة هذه الديدان:

- غريــبة يــا أستاذ أحمد إن ماعندكش فكرة عنها.. دا إحنا طلعنا لقيــناها كــده ولقيــنا آباءنــا وأجدادنا بيستخدموها.. للصداع.. وضــغط الدم.. على العموم شوف يا سيدي.. لما يشتكي الزبون

مـن الصـداع مـثلا.. بيجـي الأسـطى وليم الدكتور بتاعنا في الحاجـات دي يحط دوده من دول على قفا النفر.. الدودة تغرس سنانها في لحمه.. وهات يا مص في الدم الزفر.. لغاية ما تتنفخ وتبقى زي صباع الكفتة.. يقوم وليم يشيلها ويرجعها البرطمان.. وهكذا.

أصر سعيد باشا على التعليق :

- مش قلت لك جهل.. بعيد عنك.. جهل.

ولد سعيد باشا في قصر كبير في مدينة أسيوط.. هو قصر والده فهمـي باشـا أحـد أغنياء الصعيد ومن كبار تجار القطن في مصر.. والحاصل على لقب باشا من الملك فؤاد.

كانـت أسـرة الأسـيوطي تملـك ثلاثة آلاف فدان.. تميزت هذه الأسـرة بالفخـر الشديد والغضب السريع.. وما بين ليلة وضحاها.. أممت الثورة أطيان أبيه.. وألغت الألقاب وأصيب فهمي باشا بالشلل.. وقد قيل أنه أصيب به حينما رأى أحد الضباط بلجنة الجرد وهو يضع كردان أمه من الذهب البندقي.. والمتوارث في الأسرة منذ زمن.. في جيـبه فـي الخفاء.. ومازال سعيد باشا يقسم ويجزم بأنه شاهد ذلك بعينـيه.. وهـو.. كما يقسم أن هذا قد حدث كثيراً لهم ولغيرهم ممن أممـت أموالهـم.. بل أكثر من ذلك من قصص لا يعرفها الناس يحب دائماً أن يقصها بغضب على أصدقائه.

لم يمض عام على ذلك الحادث المفجع.. حتى جمع منصور الأخ

الأكــبر والوحيد لسعيد باشا كل أموالهما المتبقية.. بعد أن باع كل ما تــبقى لهمــا وهــربا معا إلى لندن.. لم يمض على سفرهما إلى لندن أشــهر حتى عاد منصور جثة هامدة.. فقد أطلق على رأسه الرصاص بعــد أن خســر هناك.. في بلاد الغربة كل شيء.. وهكذا يفخر سعيد باشــا أنــه عــاش بأوروبا.. يقيم سعيد باشا حالياً في إحدى الشقق المملوكــة للجمعــية الخــيرية التابعة للبطريركية شقة قديمة بشارع كلــوت بك.. بالقرب من درب البرقى.. تتكون من ست غرف وصالة كبيرة.. تجري بها الخيل كما يقولون.

بــذل ولــيم الحلاق المتدين مجهوداً كبيراً لدى البطريركية حتى اســتطاع أن يجعلهــم يخصصون تلك الشقة لسعيد باشا رغم أنه هو نفسه كان يقيم في شقة صغيرة في داخل درب البرقى.

حــاول الكثيرون إقناع سعيد باشا.. أن يؤجر.. ولو غرفتين من الباطــن مــن شــقته الواسعة.. لمساعدته على المعيشة.. ولكنه كان يجيب دائماً.. أنا مش ممكن أسكن مع رعاع.

لقــد كــان ســعيد باشا.. وحيداً.. ليس له أحد في القاهرة.. لا أقــارب له.. بعــد أن هجــرته زوجــته.. وقد انقطع نسله.. وهو بلا عمــل.. بــلا شــهادة.. بــلا دخل.. دخله الوحيد.. تلك القروش التي يعطــيها له حســن الأعرج.. نهاية كل أسبوع.. كان سعيد باشا يعتبر تلــك القــروش حقــاً مكتسباً له مدى الحياة فهو قد أنقذ حياة حسن الأعرج يوماً ما.. ووقف معه وقت شدته.. أما حسن الأعرج فقد كان

يشفق عليه فوق ذلك قائلا:

- ارحموا عزيز قوم ذل.

لذلــك التزم الأسطى حسن الجزمجي بكل ما يلزم حياة (الباشا).. لموقــف الباشا من مصابه يوماً ما.. كل ما يلزمه من أكل ومشرب.. حــتى ملاهيه كالسينما.. ومجلة الشبكة التي التزم بثمنها أيضاً -حيث يحــرص الباشــا علــيها يوم صدورها- متحملا عنجهيته.. وكبرياءه وثوراته عن طيب خاطر.. وقلب رحب.. ورغم مناوشات وليم الحلاق لسعيد باشا إلا أنه كان فعلاً يحبه.. متسامحاً لثوراته ونزواته العارمة التــي مــا تلبث أن تهدأ بكوب كبير من العناب البارد.. يطلبه له وليم عــن طيــب خاطــر أيضــاً فقد عرف عن وليم تدينه الشديد.. وحبه للآخريــن.. والمسارعة لعمل الخير.. ولم تكن تفارق حافظة نقوده.. محلــه.. أو بيــته.. صــورة السيد المسيح مصلوباً.. وقد كتب تحتها (أحسنوا إلى مسيئيكم).

ورغــم أنــه كــان مســيحيا متديناً.. إلا أنه كان أشهر مطاهر بالحــي.. قــد عرفت عنه براعته.. وبركته.. ولقد استأمنه كل رجال الحي.. ونسائه على مستقبل ذرية أبنائهم دون أدنى خوف أو شك في مقدرته وأمانته.

وطالما كان يفخر ضاحكاً:

- أنا إللي قطعت كل رجالة الحتة.

لــم يكن لوليم أقارب.. ولم يعرف أحداً قريباً فقد علم الجميع أن

الكل قريب لوليم بشكل أو بآخر.. إلا أن له أخا وحيدا يعمل جزارا في حـــي الظاهـــر.. كان هو أيضا أشهر وأنظف جزار.. وشب معظم حي الظاهر.. وهم يرون أهليهم يقدرون ويحبون لحم رمسيس الجزار.

السيد الأستاذ / مدير عام منطقة وسط القاهرة التعليمية

تحية طيبة وبعد

مقدمــه لســيادتكم/ أحمــد جابر البحر – المدرس بمدرسة باب البحر الابتدائية.

نحــيط ســيادتكم علماً – بأنني أحمل مؤهلاً عالياً – حيث إنني حاصــل علــى بكــالوريوس الموســيقى من معهد التربية الموسيقية بالــزمالك.. ومــن حقــي التعييــن فــي إحدى المدارس الثانوية أو الإعدادية.. ولكن للأسف تم تعييني في مدرسة ابتدائية وليس بها أية إمكانيات لمزاولة عملي.

لذلك: برجاء العمل على تصحيح هذا الوضع الخاطئ.

ولسيادتكم جزيل الشكر

تحريراً في ١٩٦٧/٤/٨ مقدمه: أحمد جابر البحر

المدرس بمدرسة باب البحر الابتدائية

نظر سكرتير المدير إلى الطلب من فوق نظارته السميكة.. وهو يمســح قفــاه من العرق بمنديل كبير.. شديد البلل.. أعاد المنديل إلى

جيـــبه.. ثـــم ألقـــى الطلب إلى المكتب.. ونظر إلى الموظفة المكتنزة الجالسة بجواره قائلا:

- والله يـــا ســـت هـــدى.. الثورة دي بوظت الناس.. آل إيه.. كل واحـــد متعيـــن جديـــد.. عايز يختار المدرسة إللي على مزاجه.. سيادته هو كمان مش عجباه مدرسته.. عايز مدرسة تفصيل.

ابتســـمت الســـت هـــدى وهي تقضم قضمة كبيرة من سندوتش الطعمية الذي ملأت رائحته المكان.. ثم قالت وفمها مملوء بالطعام:

- هـــو كمـــان؟ والله عجيـــبة.. أنا مش عارفه الكليات والمعاهد.. عمالـــة تخرج في بشر.. وترمي علينا.. يعني بس نوديهم فين.. نعلقهم على الحيطان؟!!

قال السكرتير مؤكداً وكأنه العالم بمستقبل البلاد:

والنبـــي ليبجـــي اليوم.. يتلطَع الخريجين على النواصي أو في القهاوي بالسنين .

قالت الست هدى:

- المفروض الشاب من دول يحمد ربنا إن الدولة بتوفر له شغل.. مش يتبطر عليه.

قال السكرتير بتهكم:

- والأكـــاده بقـــى.. الأســـتاذ مدرس مزيكا.. ياريت مدرس حاجة عدلة.

قالــت الست هدى بعد أن أنهت الطعام وجعلت تنظف ضروسها بأصبعها:

- ياالله.. وياما هانشوف من دلع الثورة للعالم دي.

لم يكن هناك.. أحد بالمدرسة.. حينما عاد أحمد البحر من الإدارة التعليمية سوى أبو إبراهيم.. وقد قلب طاولات التلاميذ بالفصول رأساً علــى عقــب.. وعكــف يكــنس تحتها.. جلس أحمد البحر في غرفة الــناظرة واجمــاً.. وقــد شــعر أنها قد زادت ضيقاً وأصبحت كجحر الفئران المتهدم.. بادره أبو إبراهيم سائلاً:

- خير بابني؟.. عملت إيه في الإدارة؟

أجاب أحمد وهو ينظر إلى السقف بيأس:

- ولا حاجــة.. إنــت عارف حكاية.. فوت علينا بكرة.. أهو حاجة زي كدة.

جلــس أبــو إبراهيم القرفصاء إلى جواره.. وربت على ركبته.. بــيده الضــخمة المملوءة حناناً وأبوة.. شعر أحمد بها لأول مرة في ذلك الرجل الصارم قائلاً:

- سيبها على الله.. بكره ربنا يفرجها.

نهض أحمد واضعاً يده في جيوبه.. ودار حوله كالتائه ثم سأل:

- هو فين الأستاذ بنهاوي أَمَال؟

أجاب أبو إبراهيم:

- ياه.. ده روّح من بدري.

سأل أحمد أيضاً:

- ممكن ألاقيه على القهوة دلوقت؟

أجاب أبو إبراهيم:

- لا.. ده ما ينزلش القهوة إلا بعد العصر.

صـــمت قليلاً وهو يراقب حيرة أحمد.. وكأنه شعر أن الشاب في وحدة قاسية فأردف قائلاً:

- اسمع.. أنا عازمك على الغدا النهارة.. أم إبراهيم عاملة مسقعة إنما إيه .

اعتذر أحمد في خجل قائلاً:

- شكراً يا أبو إبراهيم.. أنا لازم أروّح.

قال أبو إبراهيم متصنعاً الغضب:

- يبقى بقى إحنا مش قد المقام.

اعتذر أحمد مسرعاً بقوله:

- لا أبداً.. والله مش القصد.

أصر أبو إبراهيم بعد أن نهض واقفاً:

- يـــبقى خلاص.. نص ساعة وأشطب إللي في إيدي.. ولا أقولك.. عنه ما اتشطب.. الصبح أبقى أكمل.. يللا بينا.

فــك أبو إبراهيم العقدة الضخمة التي صنعها بجانب ذيل جلبابه.. ثــم أخــرج مفــتاحاً قديماً.. ضخماً.. وخرجا.. أغلق أبو إبراهيم باب المدرســة الخشــبي الضخم وذلك بسحبه للخارج بشدة وقوة وتهديد وكأنه يروضه.. اعترضت سقاطة الباب المعدنية.. وطرقت الباب عدة طرقات.. وكأن أبو إبراهيم قد أزعج نومها وسكونها على بابها.

لــم يــترك أبو إبراهيم كتاب الشيخ إسماعيل طوال حياته إلا مرة واحــدة وذلــك للتطوع في الشرطة.. حيث عين مخبراً سرياً.. لقوته وعظــم حجمــه.. أحب الرجل عمله الجديد.. لم ينقصه شيء.. زادت هيبــته بيــن أهل الحي أعجبه لقب (أبو إبراهيم المخبر).. لم ينغص علــيه حــياته شيء إلا تلك الحادثة المشئومة.. التي ربطت بينه في مباحــث البوليس.. ومباحث أمن الدولة.. صار أبو إبراهيم من (زوار الفجــر).. كــيف؟.. هــو نفســه لا يعرف.. المهم أنه في ذلك الفجر المشــئوم.. كلــف بمصاحبة أحد رجال الصحافة المقبوض عليهم إلى المعتقل.

هــناك.. في غرفة ضابط التحقيقات.. ذات رائحة الدم الكريهة.. الممــزوجة بــرائحة الــبول والبراز.. والرعب والخوف والألم.. تلك الغــرفة المعــتمة.. كان الضابط جالساً وقد مد ساقيه فوق المكتب.. يصــيح بشــيخ ضرير معلق في وسط الغرفة إلى شومة وضعت بين طاولتيــن.. وقــد ربطــت كــل مــن يديه وساقيه من أسفل إلى تلك الشــومة.. وتــرك معلقــاً.. فصــار بوضــع مقلوب.. شرعت قدماه

العاريتان الداميتان إلى أعلا.. وتدلى كل جسده أسفل الشومة مكورا.. كان الضابط يصيح به قائلا:

– ياللا يا حيوان.. قول.. اسمعها منك.

كـــان يطلـــب منه أن يغني إحدى سور القرآن على ألحان إحدى أغنـــيات شـــاديه.. وبـــنفس طريقتها.. فإن أخطأ.. انهال على قدميه جندى ضخم بعصا غليظة وما يلبث الجندى أن يجلس في ركن الغرفة يلهث تعباً ويتصبب عرقاً.

وجه الضابط حديثه إلى أبو إبراهيم قائلاً:

– علـــى مـــا أقـــرا الملف خد العصاية.. من الدفعة وكمل الضرب بداله.. أحسن تعب العسكري (الخرع).

تلـــك اللحظـــة بـــدر إلـــى ذهن أبو إبراهيم سؤال واحد "إن كان الضـــارب العملاق.. قد تعب.. وسقط من الإرهاق.. فما بال المضروب المقيد الهزيل؟"

رفض أبو إبراهيم الأمر قائلاً:

– أنا مباحث عامة يا فندم.. مش أمن دولة.. أنا مش تبعكم.

رغـــم أن أبو إبراهيم كان يعلم النتائج المترتبة على ذلك الرفض إلا أنه رفض.

انتفض الضابط صارخاً:

– طيب وحياة أمك لأربيك! امشي غور سلم السجين وتعالى تاني.

سلم أبو إبراهيم الصحفي.. وخرج من المعتقل.. رأساً إلى البيت.

لــم تمــض أيـــام إلا وقــد تم نقل أبو إبراهيم إلى نقطة شرطة المناشـــي.. لــم يمض شهر.. وتم نقله إلى قسم الأربعين بالسويس.. وهكــذا.. تــناثر عذابه في طول البلاد وعرضها.. قراها وصحاريها.. مدنهـــا وعزبها.. لم يكد يستقر في مكان حتى يتم نقله.. فيشد الرحال مرة أخرى.

شـــخص واحـــد فقط شعر بعذابه.. مأمور المركز.. بقرية (دراو) أقصى جنوب الصعيد.. قام ببعض الإجراءات المعقدة.. حتى تم إعفاء أبو إبراهيم من الخدمة.. وتسريحه.

نعم.. هكذا عاد مرة أخرى إلى كُتّاب الشيخ إسماعيل.. ولكن هذه المرة بلا فلكة.

شعر أحمد البحر بالدفء.. للمرة الأولى.. منذ حضوره للقاهرة.. فجـــو الأسرة الذي افتقده.. وجده هنا.. في حارة جنينة مفتاح.. حيث يقـــيم أبـــو إبراهيم في نفس البيت منذ مولده.. وقد أحاطت أم إبراهيم أحمـــد البحر بحنان الأم وعطفها.. تلك المرأة التي بدت على ملامحها الطيبة الشديدة.. سألته:

- مين بيغسل لك هدومك يابني؟

لـــم يجـــب أحمد بل نظر إلى الأرض حياءاً.. فسارع أبو إبراهيم قائلاً:

- خـــلاص.. من هنا ورايح.. إنشاء الله.. تجيب هدومك.. هنا لأم إبراهيم.. وتاخذها تاني يوم.. بدون مقاطعة.. مغسولة ومكوية.

لم يدر أحمد البحر ماذا يقول.. فأجاب متردداً:

- بس يعني..

قالت أم إبراهيم بحزم:

- لا بس ولا حاجة.. ماحدش في باب البحر.. يقدر يكسر كلام أبو إبراهيم.. هو إنت مش زي إبراهيم إبني برده؟

أجاب أحمد البحر خجلاً:

- أنا ليا الشرف لما أكون زي ابنك يا حاجة.. أمال فين إبراهيم؟

أجاب أبو إبراهيم وهو يخلع جلبابه:

- أهو بيسرح في السوق.. ربنا معاه.

لـــم يكمـــل إبراهيم دراسته.. في ظل تنقلات أسرته.. فانتهى به الأمـــر أن يقـــف فـــي شارع كلوت بك بعربة لبيع المكرونة للعمال.. ســـواء في أطباق أم سندوتشات.. وفي الشتاء.. يحول العربة الملونة بـــزجاجها الشـــفاف إلى عربة لبيع (الحلبسة) في ميدان الحسين.. لم تعـــد مطـــاردات شـــرطة البلدية له تهمه.. فقد أصبح خبيراً في كيفية الهـــروب مـــنهم في الحارات الضيقة.. وإن حاصروه.. وسحبوا منه عربته.. ما تلبث أن تبيت في نفس الليلة بالبيت.. وذلك لكثرة معارف أبيه (المخبر السابق) في شرطة البلدية والقسم.

دخل أحمد حجرته باللوكاندة.. مرهقا.. سعيداً.. منتشياً.. فإن جو الأسـرة وحـنانها.. والطعام البيتي.. كل ذلك كان له أكبر الأثر فيه.. ألقـى بجسده إلى السرير الحديدي.. الذي صرخ تحته معترضاً.. ألقى بجسده ممدداً.. مرهقاً محبطاً.. منتشياً.. متضارب المشاعر والأفكار.

لـم يدر أحمد أن الزمن قد انسحب من تحت عينيه.. لقد انتصف اللـيل وهو مازال في رقدته تلك بملابسه.. لابد أن ينام قليلاً.. نهض ليـبدل ملابسه.. مد يده ليسحب حقيبته من تحت السرير.. لم يجدها.. بحث هنا وهناك.. غير موجودة.. هل سرقت حقيبته؟

أسـرع هابطاً السلم إلى كاتب اللوكاندة.. بادره بأسنانه الصفراء وبنظرة ذات معنى.. وكأنه يعرف سبب نزوله تلك الساعة قال أحمد:

- شنطتي.

قال الرجل منهمكاً في دفتره:

- مالها يا أفندي؟

أجاب أحمد:

- مش لاقيها.. أنتم أخدتوها.. ولا إيه؟

تساءل الرجل بنفس الهدوء:

- وهانخدها ليه؟ هو انت سلمتها لنا أمانات؟ لا سمح الله؟

جلس أحمد على المقعد المواجه للرجل متسائلاً:

- أمال راحت فيه؟ أكيد اتسرقت.

قال الرجل وهو في نفس انشغاله إلا من نظرات خاطفة لأحمد:

- يبقى لازم سبت الباب مفتوح.

قال أحمد بإصرار:

- أنا عمري ما سبت الباب مفتوح.

انتفض الرجل زاعقاً على حين غرة وبعنف مفاجئ صرخ قائلا:

- بـاقول لـك إيه.. اسمع يا واد انت.. ما تقرفناش بشنطتك دي إحـنا مـا نعـرفش حاجـة عنها.. اتفضل غور من قدامي.. إيه البلاوي إللي بتتحدف علينا دي.

لـم يـتعود أحمـد البحر مثل تلك المواقف.. فما كان منه إلا أن نهـض وأسـرع إلى الشارع.. كما لو كان هاربا من غول رهيب.. لم يـدر ماذا يفعل.. أين يذهب؟.. اتجه إلى ميدان رمسيس.. دخل محطة السـكة الحديـد.. اتجه إلى شباك التذاكر.. توقف فجأة.. ما هذا الذي يفعلـه هكذا؟.. ألم يعد أمامه إلا الهروب؟.. وإلى الإسكندرية؟.. كلا.. انتظر قليلاً يا أحمد.. يجب أن تتريث.. لابد أن تفكر جيداً.

اتجـه إلى (قهوة المحطة) ذلك المقهى الذي يعمل على مدى أربع وعشـرين ساعة يجلس به بعض الزبائن.. يتحادثون.. هنا أو هناك.. فـي مجموعات صغيرة.. تحيط بهم حقائب السفر.. وصوت أم كلثوم يسامرهم بأغنيها الجديدة.

وصفولي الصبر.. ليقيته خيال

وكلام في الحب.. يدوب ينقال

ظـل صـوت أم كلـثوم يسامر الناس.. جلس أحمد البحر يسامر الصـوت.. أعـيدت الأغنـية.. مـرات ومرات.. شرب أحمد القهوة السـادة.. مـرات ومرات.. تغير الجالسون.. مرات ومرات.. والدنيا حولـه فـي حركة بطيئة.. رتيبة.. هدأت نفسه.. رويداً رويداً.. كلا.. لن يسافر.. سيعود إلى باب البحر لن يستسلم الآن.

إنها السادسة صباحاً.. حينما خرج أحمد البحر من باب المحطة.. مـتجهاً إلـى بـاب البحر.. آلمت أشعة الشمس عينيه.. ولسعته في جسـده.. وساعدها الذباب السخيف.. لم تحتمل عيناه المرهقتان.. هذا الضوء المبهر..

لـم تمـض ساعة.. إلا وكان الأسطى وليم.. قد قام بتأجير غرفة عـند أم العربي.. بجوار السرجة.. بثلاثة جنيهات شهرياً.. بيت قديم لكنه في مواجهة حارة جنينة مفتاح.. حيث المدرسة.. ساعة أخرى.. وكـان أبو إبراهيم قد قام بتنظيف وفرش الغرفة.. اشترى أبو إبراهيم سـريراً حديديـاً.. مرتـبة.. بطانية.. وسادة.. مكتباً خشبياً صغيراً.. وكرسـيين خـيرزان.. وترابـيزة صـغيرة للأكل.. وعمل القهوة أو الشاي.. مع معدات الأكل والشرب كاملة.. رحب به مبتسماً:

- خـلاص يـا عم.. أحلى من أوضة عريس.. عقبال ما نفرح بيك حقيقي وسلام.

قبل أن يخرج التفت فجأة لأحمد قائلاً:

- آه بالنسبة لشنطتك؟ هاتيجي بعد العشا.

ابتسم أحمد فرحاً.. وهو يقول باستغراب:

- لكن.. إزاي؟

أجاب الأستاذ بنهاوي:

- وانت مالك انت.. دا شغل أبو إبراهيم بقى.

لم يهنأ بال أحمد البحر طويلاً.. فقد فوجئ بوالده.. واقفاً أمام باب المدرسة.. يستشيط غضباً.. أبوه بشحمه ولحمه.. القبطان جابر النمر يزعق في هذا.. ويشخط في ذاك.. ما إن رأى أحمد إلا وصب جام غضبه عليه.

- إيه الحالة المزريه إللي وصلت ليها دي يا أستاذ؟.. هي دي المزبلة إللي جاي تشتغل فيها؟.. هو ده مستقبلك.. هنا.. يعني آخرتك هنا.. آخرة تعبي معاك؟ هنا.. في المكان المعفن ده.. يا فنان يا كبير.. يا موسيقار يا عظيم.

لم يشعر أحمد البحر في حياته كلها بهذا الإحراج.. فقد كان صوت أبيه عالياً.. جهورياً.. كان يتحدث كما لو كان يلقي بأوامره إلى بحارته على السفينة.

همس أحمد بصوت غاضب:

- أرجوك يا بابا.. بلاش الكلام ده دلوقت.

صاح به الرجل بعنف:

- يعني إيه؟ انت حاتعلمني اتكلم إزاي يا ولد؟

أجاب أحمد معتزرا:

- لا سـمح الله يا والدي.. لكن.. ممكن تيجي معايا نقعد نتكلم في مكـان تاني؟.. وأنا هاشرح لك كل حاجة.. وبعدين إعمل كل إللي إنت عايزه.

قال القبطان جابر النمر وهو مازال في ثورته:

- طيب يا سيدي.. تعالى معايا.. لما نشوف.

ثم استدار فجأة إلى ناظرة المدرسة والمدرسين.. الذين وقفوا في ذهـول أمـام الرجل الثائر.. كان أبو إبراهيم قد ذهب إلى اللوكاندة.. أشاح الرجل بيده قائلاً:

- وانتم.. اعملوا حسابكم.. أحمد البحر مش راجع هنا تاني.. لازم تعرفوا أن بيئتكم دي مش بيئته أبداً.

قال أحمد بعد أن رفع صوته قليلاً:

- يا بابا.. أرجوك.. كفاية إحراج بقى.

تساءل الأب متهكماً:

- إحراج من مين؟ من دول؟

استشاط أحمد البحر غضباً فقال:

- ما لهم دول يا بابا.. أنا مش عارف إنت بتعاملنا بالشكل ده ليه؟

لــو ســمحت أرجوك.. احترمني واحترم زمايلي.. أنا ما عدتش تلميذ صغير.

عقب الأب:

- لا طــبعا.. إنت صغير.. ومش فاهم حاجة.. لما تسمح لنفسك يا أستاذ إنك تترمى هنا.. وتسيب الإسكندرية.. وأبوك.. والعز إللي كنت معيشك فيه.. تبقى صغير.. ومابتفهمش كمان.

صاح أحمد البحر:

- أرجوك يا بابا.. كفاية كدة لو سمحت.

قال الأب حازماً:

- اســمع يــا ولد.. هي كلمة واحدة.. مش حاتنيها.. انت حاتيجي معايا الإسكندرية دلوقت حالاً.

قال أحمد البحر بإصرار:

- آسف يا بابا.. مش حأقدر.

صاح الأب في ثورة:

- طيب قسماً عظماً.. ما أسمح لك تدخل بيتي تاني.. ولا حاتشوف مني مليم واحد.

أســند أحمــد الــبحر ظهره إلى الحائط.. إنها المرة الأولى التي تحــدث بيــنهما مــثل تلك المشادة.. كم كان يعرف أن والده عنيداً.. عســكري الطــباع.. لكــنها المــرة الأولى التي يهينه فيها أبوه بهذا

الكلام.. وهذه الطريقة.. أمام الجميع.

حاولــت أبلـــة أزهار التدخل لإنهاء الموقف المتأزم فقالت للرجل الثائر:

- أرجوك يا أفندم.. كفاية كدة بقى.. اتفضل في مكتبي استريح.

أجاب بعنف والشرر يتطاير من عينيه:

- إنتي مين إنتي؟ عشان تديني أوامر؟ أنا القبطان جابر النمر؟

تدخل بنهاوي بهدوء.. ولكن بغضب:

- بالــراحة يا حضرت.. كل شيء بالتفاهم.. اتفضل استريح.. كل شيء إنشاء الله يتصلح.. الأستاذ أحمد حايعمل اللي انت عايزه.. بس استريح سعادتك.

صاح أحمد بغضب:

- لـــو سمحت يا أستاذ بنهاوي.. أنا خلاص قررت.. أنا مش رايح الإسكندرية دي تاني.. أنا حر في حياتي.

قال الأب مستغرباً:

- أنـــت أكيد اتجننت.. أكيد اتعميت خلاص.. يعني عاجباك الزريبة إللـــي انت جاي تشتغل فيها دي؟ اسمع.. آخر مرة حاقولك أهو.. إما إنك تسافر معايا دلوقت.. وإلا.. لا إنت إبني ولا أعرفك.

ولأن أحمد البحر قد ورث العناد.. وقوة العزيمة عن والده.. فقال في إصرار:

- آسف يا بابا.. أنا مش حاسافر.

صرخ الأب:

- أوعى أشوف وشك في بيتي مرة ثانية.. خلاص.. خدوه.. اشبعوا بيه.

صمت أحمد.. هناك شيء ما ربطه بهذا المكان.. لا يدري ما هو.. سافر الأب غاضباً.. يعرف أحمد جيداً أن أباه لن يتراجع عن قراره أبداً لن يجرؤ أن يطلب منه قرشاً واحداً.

تمنى أن يصرف له راتبه أول الشهر.. حتى يتثنى له سداد ديونه للبنهاوي الذي دفع أجرة الغرفة مقدماً.. وكذلك لأبو إبراهيم الذي اشترى الفرش من ماله الخاص.

يتكون بيت أم العربي.. من طابقين.. منخفض أيضاً عن مستوى الشارع ككل البيوت القديمة بالمنطقة.. درجتان من الحجر عليهما أيضاً رسوم وكتابات فرعونية وضعتا للهبوط إلى حوش البيت.. حيث تقطن عجوز عمياء.. تقوم بتربية الدجاج والبط والأوز.. مع ماعزة واحدة.. كل ذلك (يسرح) حول طلمبة المياه التي جعلت الحوش كالبركة من الطين وبراز الطيور.. العجيب أن هذه العجوز كانت تعرف.. كل طيورها تماماً.. كيف؟ لا أحد يعرف.. ولا أحد يمكنه بأي حال سرقة إحداها.

تلك العجوز حماة أم العربي ومالكة البيت الأصلية.

بعد جلسة المقهى مع الشلة والتي أصبحت.. من الشعائر اليومية بالنسبة له عاد إلى بيت أم العربي.. لم تكن الليلة الأولى التي يبيت فيها في بيته الجديد ما إن خطا خطوة على السلم.. حتى زعقت العجوز:

- مين؟.. مين إللي طالع على السلم؟

كيف عرفت أن الداخل غريب؟ لا يعلم.. أجاب:

- أنا أحمد البحر يا حاجة؟

قالت وكأنها تعطي التصريح بالدخول:

- آه.. طيب.

دق الباب بأصابعه بخفة.

فتحت الباب طفلة صغيرة ذات شعر كثيف أسود فاحم.. وقد غطت قصتها معظم عينيها.. حركت رأسها لإزاحة القصة عن عينيها الواسعتين وقالت:

- أهو جه يا مه:

ثم تركت الباب وهرولت للداخل ضاحكة.. بشيء من سعادة.. هو شعر بذلك ما كاد يبدل ملابسه ويرقد ليستريح.. حتى سمع طرقاً خفيفاً على باب الغرفة.. ثم ما لبث الباب أن فتح.. دون أن يجيب.. ودخلت فتاة سمراء.. دقيقة الملامح.. دقيقة الجسم.. متناسقة القد..رغم صغر حجمها.. ترتدي قميص نوم من قماش (البروش

نـــايلون) الأبـــيض الرقـــيق.. قصـــيراً للغاية.. من طراز (بيبي دول) بحمالتيـــن رفيعتين.. ترتدي تحته (سروالا) داخليا أسوداً.. ظهر لونه مـــن قمـــاش (الـــبروش نـــايلون) الرقـــيق.. كانت تشبه أحد ملائكة الحكايـــات القديمـــة.. كانت قدماها الحافيتان الدقيقان أيضاً.. تتحركان بخفة فوق البلاط العاري.

دخلـــت حاملـــة فـــي يدهـــا.. صينية معدنية.. وضع عليها كوب عملاق ممتلئاً حتى آخره بعصير الليمون.. البارد.

بخفـــة.. جلســـت إلـــى الكرسي المجاور للسرير.. مدت له يدها بالكوب قائلة:

- اتفضل يا أستاذ.. كباية عصير تطري بيها على قلبك.. الحر بقى نعمل إيه؟

اعـــتدل أحمـــد الـــبحر فـــي رقدته عند دخولها.. كان ينظر إليها متوجســـاً.. ثـــم تناول كوب العصير البارد.. تعوم فيه ثلاث قطع من الثلج.. أردفت قائلة في ألفة غريبة:

- أنـــا (ســـونة).. بنـــت أم العربي.. اسمي الحقيقي سناء.. الكل بينادني سونة ممكن انت كمان تقولي يا سونة.

لم يعلق أحمد البحر.. بل دارى وجهه بالكوب البارد.. متعجباً من هذه الألفة التي تتحدث بها.. وكأنها تعرفه منذ زمن.. أكملت:

- علـــى فكرة يا أستاذ.. أنا متعلمة.. مش جاهلة.. أنا معايا دبلوم

تجارة..

صمت قليلاً.. وهي تراقبه يشرب العصير البارد.. ثم سألته:

- هو انت صحيح اسكندراني؟

أجاب بصوت مبحوح:

- أيوه.

ثم تنحنح وأصلح صوته قائلاً:

- أيوه.

ابتســـمت برقة لخجله الواضح.. فأفصحت أسنانها الجميلة.. عن ابتســـامة رائعة من فمها الصغير.. أضاءت وجهها الدقيق كله.. تماماً كطفل صغير بريء.

ثـــم نظـــرت مـــن النافذة الضيقة المستطيلة.. المطلة على مسجد سيدي محمد البحر وقالت.. وكأنها قد ذهبت إلى عالم آخر:

- نفســـي أروح إســـكندرية.. أنا عمري ما رحتها.. أخويا العربي راح.

ثـــم عـــادت فجأة من النافذة.. ناظرة إليه.. وهي تستكمل حديثها السابق:

- أنـــا موظفـــة.. أنـــا باشتغل في مكتبة النور إللي في الفجالة.. صـــاحبها راجل طيب.. إنما ابنه المتدلع.. يا ساتر أعوذ بالله.. دا واد رزل بشكل ما فيش في مخه غير الوساخة والنسوان.

صمتت قليلاً وكأنها ترى تأثير كلامها ثم أردفت مستكملة:

- لكــن علــى ميــن.. لعلمك بقى أنا بنت شريفة.. أشرف من كل البنات إللي معايا في المكتبة.. آه.. أمال.. هي البنت لها إيه غير شــرفها.. علشان لما أتجوز إللي أحبه ويحبني.. يقدر يفتخر بيا قــدام كــل الــناس.. والله يــا أستاذ.. عمر ما حد لمسني.. ولا يجروء حد يلمسني.. أنا كنت أقطع إيده.

لم يكن يعلم ما سر كل هذا.. ولماذا هذا الأسلوب في أول تعارف معه ولكنها ما لبثت أن أكملت:

- دا أخويا العربي كان يدبحه.

تساءل أحمد قائلاً:

- يدبح مين؟

أجابت كالغاضبة:

- أي حــد يــتجرأ ويلمســني.. انت مش معايا ولا إيه؟ والله كان دبحــه فــي وســط الشــارع.. أخويا العربي مايعرفش أبوه في الحاجــات دي أنا باشتغل بشرف.. مش زي النسوان إللي ماليين كلوت بك طول الليل.. للي رايح واللي جاي.. يا شيخ بلا قرف.

صمتت قليلاً.. ثم استكملت:

- أخويا العربي مجند.. في الجيش.. بقاله دلوقت كام يا سونة؟

آه.. ســنتين وسبع شهور.. أنا إللي بأصرف على البيت.. أبويا

ميـت.. أنـا لـيا خمس أخوات ثلاث بنات.. وولد صغير.. غير العربي هو الكبير.

صـمتت مرة أخرى.. وعادت تنظر من النافذة.. إلى اللا شيء.. وكأنها ترى حلماً ما.. ثم أردفت حالمة.

- أنـا لما حاتجوز.. حأحب جوزي.. حب عبادة.. وحأخدمة بعنيا وأحـافظ علـى شرفه.. أمال إيه.. أيوه طبعاً.. لازم أخليه أسعد إنسـان فـي الدنـيا.. على فكرة.. أنا شاطرة.. في كل حاجة كل حاجـة.. نفسـي وباتمني أتجوز راجل متعلم.. والنبي لأكون له خدامـة طول عمري.. بشرط يحبني وأحبه.. ولا أفكر عمري في أي حد غيره.

يتساءل أحمد في نفسه.. هل هذا عرض ساذج للزواج؟ ربما.

فجـأة.. نهضـت.. ورفعت الكوب الفارغ ووضعته على الصينية قائلة:

- ألف هنا وشفا.

ثـم التفتـت واتجهـت إلى باب الغرفة بخطى ثابتة.. وكأنها قد أحسـت بالحـرج.. خرجت.. ثم أغلقت الباب.. دون أن تنطق بشيء وهـو في ذهول تام.. أخيراً.. هدأ.. بعد أن كان يشعر أثناء جلوسها وكـأن نـاراً مـا.. تنبعث من جسدها المتناسق لتخترق قميص النوم فتلهـب حواسه.. وجسده.. أخيراً.. تنفس الصعداء.. وأغلق عينيه.. ونام.. بلا أفكار.

صــوت جميل.. صوت غير طبيعي.. صوت ملائكي.. بدا كما لو كــان قــد جاء من السماء.. لم يكن ليصدق أن هذا صوت آدمي.. لم يكــن ليصــدق أنه يوجد بشر له هذا الصوت الذي يبدو وكما لو كان صــوت الســماء.. فتح عينيه.. ثم انتبه.. إنه صوت مقرئ.. نعم لابد أنــه آت مــن مسجد سيدي محمد البحر نعم إنه فعلا مقرئ المسجد.. يــنطق بدعــوات وتوســلات وتسابيح.. جميلة مؤثرة.. إنها تسابيح الفجــر.. انفعــل لها أحمد البحر وطرب.. وشكر من تسبب في سكناه هــنا.. فــي هــذا المكان.. زاد انفعال المقرئ بتسابيحه.. ودعواته.. أدمعــت عينا أحمد.. من فرط التأثير بروعة وجمال الصوت.. وصدق المشاعر.. وعمق المعاني.. وخشوع القارئ.

لم يكن يعيب هذا الجمال السماوي إلا ارتفاع صوت مكبر الصوت بشكل مزعج أضاع عليه الكثير من بهجة الانفعال.

هــذا شيء ما رائع.. لم يصادفه من قبل.. لم يكن يتوقعه في هذا الحــي.. شــيء ما أخذه في نوبة خشوع وصفاء.. لا يمكن وصفها.. وخاصــة حينما ينطق الشيخ بلفظ الجلالة "الله" وكأن الصوت ينبع من كــل أهل الحي صاعداً مباشرة متوسلاً إلى السماء.. كان القارئ يبث فــيها معانــي مــن الخشوع والسجود.. والتوسل الصادق.. لا يمكن وصفها

شــعر أحمد البحر أن أبواب السماء قد فتحت لهذا الصوت.. وأن هــناك اتصــالاً ربانــياً قد حدث بين الرجل والسماء.. في قلب الليل

والـناس نيام اتصال لا يراه أحد.. لكن أحمد البحر.. سمعه.. فهمه.. فـرآه.. نور من الأعماق.. أضاء بلا إبهار.. بل في سكينة وهدوء.. ومحـبة أحاديـة خاصـة صـامتة.. فـي أعمـاق ذلك الليل.. حيث الآخرون.. نيام.

مسـجد سـيد محمـد الـبحر لـيس إلا زاوية صغيرة.. متناهية الصغر.. دفن فيها أحد الأولياء يدعى محمد البحر.. يتبرك به كل أهل الحـي.. تقاد الشموع دائماً في نافذته الصغيرة المطلة على الشارع.. يتشـبث بهـا البسطاء بأيديهم وأدعيتهم الساذجة.. ودموعهم الحارة عسى أن يجيب الله دعاءهم ببركة كرامة صاحب المقام.. إنهم الطيبة مجسمة.

أحـب أحمـد البحر تلك الزاوية.. وذلك المقرئ.. صاحب الفجر السماوي والسر الخاص..

كانـت هـذه الـزاوية.. خارجة عن تنظيم الشارع حيث التهمت نصـف عرض الطريق.. ووقفت متحدية قائلة.. "هذا مكاني.. مقدس لـن يستطيع أحد تحريكي فأنا كما عرفني أهل هذا الحي واحترموني.. فبداخلي مقام سيدي محمد البحر".

وقف أبناء أم العربي الصغار.. بباب الغرفة.. يختلسون النظر ثم مـا يلبـثون أن يهـربوا.. متضاحكين.. بينما كان أحمد البحر يتناول إفطـاره الذي أعدته له أم العربي.. بنفسها.. حينما خرجت أم العربي لإحضار الشاي.. دخل الولد الصغير متوجهاً إلى أحمد بجرأة متسائلا:

- هو إنت عريس سونه أختي؟

ثم ما لبث أن أسرع بالاختفاء.. تتبعه الأخريات ضاحكات.

انــزعج ســعيد باشا من حديث الأسطى وليم.. وهو يعد منجزات الــثورة واحــتد الــنقاش بينهما.. وعلا صوتهما قليلاً.. حيث تخطى حاجــز الهمــس المعتاد عند كلامهم بالسياسة.. أقبل (كشري) واضعاً رأسه بين الجميع قائلا:

- الحــاج بيقول لكم.. وطو صوتكم يا أفندية.. وأحسن بلاش كلام في السياسة.. ما تودوناش في داهية..

ثم رفع رأسه.. منبهاً بصوت جاد مستطرداً:

- ماتجيبولناش مصيبة.

في تلك الأثناء كان بنهاوي يحاول إقناع أحمد البحر.. قائلاً:

- والله الشــيخ رشــاد طيــب وغلبان.. إيش بس الزمن هو إللي قاسي عليه.

علق أحمد قائلاً:

- بس يا أستاذ بنهاوي دا.. لسانة زي المبرد.

عقب بنهاوي بهدوء:

- ظــروفه يا أستاذ أحمد.. هي السبب.. ظروفه صعبة جداً.. بس برده هو راجل طيب.. بيعافر في الدنيا علشان يربي عياله.

صمت بنهاوي قليلاً ثم أردف:

- طيب إيه رأيك إنه عازمنا على الغدا بكرة.. عنده في البيت.. أنا وإنت.

رفض أحمد قائلاً بإصرار:

- لا.. لا.. لا.. لا.. ابعدني عن الراجل ده.. أنا مش ناقص دوشه.

أضاف بنهاوي:

- وحياة والدك يا شيخ.. ما تكسفوش.. إيه رأيك.. إنك لو رفضك عزومته.. حايعتقد إنك متكبر عليه.. ويصطادك بقى على طول بلسانه.. وحركاته.. علشان خاطري.. اقبل عزومته.. وأهو يوم وينقضي وخلاص.. إيه رأيك؟

أطرق أحمد قليلاً.. حسبها جيداً.. ثم وافق أخيراً.. انتبه الجميع إلى دخول (الشيخ سعدية) رجل مجذوب يوزع السوداني على المقاهي من قرطاس كبير يحمله على صدره.. هكذا كان يعرفه الجميع.. الشيخ سعدية. على حين فجأة.. صاح الشيخ سعدية.. وجعل ينثر ما في الكيس على الجالسين بدون حساب.. وهو يرقص بغرابة.. عندما دخل المقهى سليمان البكري.. عضو الاتحاد الاشتراكي.. وهو رجل ضخم الجثة طويل الوجه.. حاد العينين.. صاح الشيخ سعدية عند رؤيته:

- تحيا الثورة.. تحيا الثورة.. يعيش جمال عبد الناصر.

استمر في الرقص والغناء بشكل هيستيري.. ناثراً الفول

الســوداني علــى رؤوس الجميع.. متقدماً سليمان البكري في (زفة) صاخبة.. وهو يغني مقاطع متداخلة من أغنيات الثورة:

- عــاش الجــيل الصــاعد عــاش.. تحــيا الوحدة العربية.. إحنا الشــعب.. إحنا الشعب.. يا رافع راية الحرية.. يا ريس.. عاش الجــيش المصري.. والشرطة كمان.. عاش الاتحاد الاشتراكي.. عاش كل الكبار.. أسيادنا.

ثم تمتم بصوت هامس يغني:

- ما أقدرش أخالفك لأني عارفك.. تقدر تحط الحديد في ..

ثم صاح فجأة وهو يهرول خارج المقهى:

- وله يا نفخو.. استنى يا ولد.

استشاط سليمان البكري غضباً.. فصاح راكضاً خلفه في حنق:

- يــا حــيوان يــا ابن الكلب.. يظهر إنك لسه ما اتربتش.. والله لأربيك يا صايع.

لاحظ أحمد أن أحداً من الجالسين لم يعلق.. لم يضحك.. الكل في وجوم.. تساءل أحمد:

- هي إيه الحكاية؟

لكزه بنهاوي هامساً:

- أسكت انت.. بعدين.. بعدين.. ياللا بينا.. نقوم نروّح.

ارتفــع صوت الأسطى وليم الحلاق.. مستمرا في تعداد منجزات الــثورة وأن مصــر قــادرة بقيادة عبد الناصر الشجاع على محاربة إسرائيل.. وحتى من هم وراء إسرائيل.. والقضاء عليها.. وإلقاء كل اليهود في البحر قائلاً بحماس شديد:

– اصبروا بس وانتوا تشوفوا.. عبد الناصر.. قائد الأمة العربية.. إنشــاء الله.. قريباً جداً هايخطب في القدس.. ويصلي في المسجد الأقصى.. ويحرر لنا كنيسة القيامة.. رغم أنف أمريكا نفسها.

لم يكن هناك من يناقشه.. فقد صمت الجميع.

لــم يشــأ أحمــد البحر مغادرة المقهى.. مع تلك الأحداث.. كان انفعالــه شــديداً بكلمات وليم الحماسية.. نعم يجب أن تعرف إسرائيل المــتعجرفة.. الحقــيقة.. يجب أن يريها عبد الناصر يوماً ما.. قيمة العــرب وقدرتهــم.. يجب أن يعرف الجميع.. أننا أعظم الأمم وأقواها فقــط يــتحد العــرب.. إنشاء الله. ولن تُرهب أمريكا أو غيرها قائدنا الشــجاع.. جمــال عــبد الناصر الرجل الفذ.. الذي لم ولن ينجب في العالم مثله.. وسيعلم الجميع.. من نكون.

دق بــنهاوي على باب خشبي قديم لدكان مغلق.. هو المتبقي من بيت قديم تمت إزالته في درب سنانات.. المتفرع من باب البحر.. فتح الــباب بعــد قلــيل.. ظهر الشيخ رشاد.. وقد ارتدى جلباباً مقلماً من الكســتور.. كان من عادة الشيخ رشاد.. إمالة رأسه قليلاً إلى اليسار حــتى يمعــن الــنظر بعيــنه الوحيدة.. تهلل وجهه حينما رأى أحمد

الـبحر.. تخطى الأستاذ بنهاوي.. وأقبل على أحمد لمصافحته بحرارة مرحباً:

- أهـلاً.. أهـلاً.. مرحـبابك يـا أستاذ.. شرفت دار الشيخ رشاد المتواضعة.

لم يقل ذلك بتواضع.. وكأن الشيخ رشاد.. علم من أعلام الأمة..

كـان الشيخ رشاد يأكل الملوخية.. عرف أحمد ذلك.. من بقاياها بين أسنان الرجل.. ونقاط منها كبيرة قد سالت على جلبابه.

ذلك الدكان.. المتبقي من البيت المزال.. هو منزل الشيخ رشاد.. علاوة على مساحة الفضاء.. بعد هدم البيت.. المسورة بسور حجري قديـم هو بقايا حوائط البيت.. يسعى في ذلك الفضاء قليل من الدجاج والبط والأوز وفي الزاوية البعيدة.. رقد هناك (فرن فلاحي) مبني من الطين.. جلست إليه زوجة الشيخ رشاد تعد الخبز..

زوجة الشيخ رشاد.. امرأة بدينة بيضاء.. دميمة بشكل ملحوظ.. ضـخمة الجسـد بالنسبة لجسد الشيخ رشاد الضئيل.. حينما اقتربت.. لاحـظ أحمـد مـدى دمامـتها وشـدة قبحها.. ولكنها تسلية الرجل الوحـيدة.. فـلا راديـو ولا كهـرباء.. لا شيء إلا أولاده.. يقبعون بوجوههـم.. الصفراء.. يراقبون الضيوف الجدد.. في توجس ورفض شـديدين.. سـبعة أطفـال أربـع بـنات وثلاثة صبيان.. منزوون.. متكومون في الركن.

رغـم دمامـة زوجـة الرجل وضخامتها.. إلا أنها كانت.. دائمة

الحـــركة خفيفـــتها اســـتطاعت بطبعها وخبرتها الريفية.. أن تعوض الشـــيخ شـــحاحة راتـــبه.. فبهذا الفرن الريفي.. تصنع الرقاق للعيد الكبـــير.. والكحـــك والبســـكويت للعـــيد الصغير.. تتاجر بها.. لأبناء الحـــارة.. عـــلاوة علـــى قدرتها على صنع (النداغة) التي يجلس بها ابـــنها الكبـــير أمام المنزل الدكان.. يبيع القطعة بمليم.. وقد يصادفه الحـــظ فيبـــيع فـــي اليوم الواحد.. عشر قطع.. أما الشيخ.. فقد كان يســـعى.. أيـــام الخميس والجمعة والأحد بين المقابر بالدراسة لقراءة القـــرآن للموتـــى.. ويعود للبيت (بالقُرَص) التي يعرضها ابنه ضمن تجارته الصغيرة أيضاً (ثلاث قرص بمليم).

علـــى الحائط الجانبي بالبيت الدكان.. كان هناك.. صورة مكبرة معلقـــة قد أخذت من إحدى الصحف.. لأخي الشيخ رشاد (عبد الغفار أبـــو علـــي) وهو يتسلم صك ملكية الأرض.. من الرئيس القائد جمال عـــبد الناصـــر.. الغريب أن الشيخ رشاد.. قام بتعليق آية قرآنية.. قد كتـــبها بخطه.. على قطعة من الكرتون.. علقها تحت الصورة.. كتب فيها ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ﴾.

لـــم يتمكـــن فكـــر أحمد البحر.. أن يجد العلاقة بين هذه الآية.. وصـــورة توزيـــع أراضي الإصلاح الزراعي على المعدمين.. الوحيد الـــذي يعـــرف المعنى الشيخ رشاد فقد كان يعتبر نفسه.. رغم حالته الماديـــة.. أوفـــر حظـــاً من أخيه عبد الغفار الذي مازال حتى الآن.. وربمـــا أبناؤه وأحفاده من بعده.. يسددون أقساط لا يعرفون ما هي..

أكثر حظاً من أخيه عبد الغفار المديون دائماً.. للجمعية الزراعية التي تستولي على محصول الأرز.. بأبخس ثمن.. بعد خصم قيمة.. السماد والـتقاوي والكيماوي.. وأشياء أخرى لا يعرف تماماً ما هي.. أو فر حظـاً مـن أخـيه الأكـبر عبد الغفار الذي يضطر إلى أن يخفي ولو (أردب) أرز مـن مشـرف الجمعـية حـتى يتثنى له إطعام أسرته.. والاتجار في بعضه لشراء الأهم من احتياجات أسرته.. أوفر حظاً من أخـيه عـبد الغفـار.. الذي يكدح في تلك الأفدنة الثلاثة.. وهو رغم ذلـك.. مديون.. فقير.. دائماً.. لا يجد أكثر من قوته وبعض حاجاته.. أوفـر حظـاً من أخيه عبد الغفار الذي يحاول قدر جهده.. أن يحافظ علـى تلـك الأفدنـة الـثلاثة التي استلمها.. في يوم جليل.. من عبد الناصر.. تحت وميض كاميرات التصوير.

ظلت عينا أحمد.. معلقتين على الصورة.. وهو مبهور بهذا الكم مـن الحـنان والحـب الواضحين.. على وجه عبد الناصر.. المليء بـالأبوة والمحـبة مبهوراً بهذا الكم من السعادة والرضا.. على وجه الـرجل العجـوز بطاقيـته اللـباد.. سـعادة لا يمكن وصفها.. فقط لمصـافحته جمال عبد الناصر شخصياً.. تفوق كثيراً.. سعادته بتسليم صك ملكية الأرض.. لا يهم إن كانوا ثلاثة أفدنة أو خمسة كما قالوا.

هل أزالت تلك الزيارة ما في قلب الشيخ رشاد من كراهية لأحمد البحر؟

بالطـبع لا.. فقـد كانت الزيارة بجملتها كارثة.. فأحمد البحر لم

يســتطع الجلــوس إلى الأرض معهم على (الطابلية).. فهو لم يتعود ذلــك.. وحينما وضعوا له مسند الكنبة الغليظ ليجلس عليه.. بدا أكثر علــواً من الجميع.. لم يستطع أن يغمس اللقمات في الطبق.. بل طلب ملعقة.. لم يتسطع أن يمزق اللحم بأصابعه.. بل طلب شوكة وسكيناً.. لــم يتســطع أن يعوص معهم في أطباق الطبيخ.. بل طلب طبقاً خاصاً به.. لم يستمتع أبداً بالطعام تحت نظراتهم المستغربة.. من هذا القادم بعاداتــه التي لم يعرفوها.. لم يستطع أن يستمتع بالطعام وهو يستمع إلــى أصــوات أفواههم ومضغهم ويراقب تلوث أيديهم.. وملابسهم.. ونصف وجوههم بالطعام.

تجــاهل الشيخ رشاد مصافحة أحمد البحر لوداعهما.. بل صافح بنهاوي بنظرات عتاب حانقة.. جلس الشيخ رشاد القرفصاء غاضباً.. خــرج أحمــد الــبحر مــتقززاً.. سار الأستاذ بنهاوي صامتاً.. انتهت العزومة.

بــاءت كل محاولات أحمد البحر.. للتمعن في عينيها بالفشل.. لم يستطع أن يطيل النظر في تلك العيون.. غريبة الجمال.. تلك العيون.. العمــيقة.. الرهيبة.. الخضراء.. الرمادية.. البنفسجية.. ذات الألوان الكثــيرة.. الغامضــة.. لم ير أحمد البحر-أو غيره- مثل تلك العيون عجيــبة الجمــال.. ذات الرموش الطويلة جداً بشكل لافت.. لم يستطع أن يثبــت عينــيه فــي عينــيها أكثر من لحظة.. ثم ما تلبث أن ترتد نظراته منهارة تحت قدميه.. خجلي؟ قاصرة؟ عاجزة؟

كانـــت عيـــنا إلهام.. من القوة.. والغرابة.. تشبه كل شيء خلقه الله.. تحـــتوي على كل ما خلقه الله من طبيعة جميلة.. حقول خضراء فـــي باكر صباح ندى.. دافئ بل إنها أوسع.. وأعمق.. من كل حقول العـــالم.. ســـماء زرقـــاء صافية عميقة.. سحب خفيفة كندف الثلج.. توشـــك أن تهب مطراً.. أو حقول حنطة ذهبية براقة.. أو ليل بهيم.. بئر عميق.. أو شئ غير ذلك.. أو ربما هي كل ذلك.

كانـــت الـــرجفة تمتلك جسده بالكامل.. ويثقل لسانه.. وهي تعلن عـــن كشف سره.. بابتسامة ناعمة إذا ما بادرته الكلام.. كانت إلهام.. فقـــط.. لـــيس لهـــا تعبير لوصفها.. إلا أنها جميلة.. رقيقة بحركاتها وإيماءاتهـــا الأرســـتقراطية.. حيـــث تمزج رقة حديثها بكلمات أجنبية سليمة النطق.. والمعنى.

وهكـــذا لم يكتمل أي حديث.. أو نقاش بينهما فما يلبث أن يهرب مـــن هـــذا الجمال العاصف.. وتلك النظرات الخارقة.. يهرب من ذلك العالم الغريب الرهيب المدعو.. إلهام.

وكـــم تسائل.. هل يعقل أن تكون تلك الرائعة من أبناء باب البحر حقـــاً.. والحقيقة أنها فعلاً من أبناء هذا الحي.. ولدت فيه.. وعاشت وتربت في (درب الراكراكى).

ابـــنة الشيخ جمال الرجل الأزهري الطيب القادم من المنصورة.. حيـــث اســـتقر في القاهرة فاتحاً محل بقالة في منطقة القللي وتزوج إحـــدى بنات باب البحر.. وعاش في درب الراكراكى رجلاً متديناً طيب

المعشـــر.. أنجــب أحلام ابنته الكبرى ثم إلهام.. لم تكن أحلام بجمال الصـــغيرة التـــي ورثت عن أبيها بهاء الوجه.. واختلطت في عينيها زرقـــة عـــيون أبيها.. وسواد عيني أمها.. برموشها الكثيفة الطويلة وعيون جدتها العسلية.. وجمال القد وانسياب الشعر.

ولـــم يكـــن هـــناك اثـــنان يتفقان على لون عيونها.. فمن يقول زرقـــاء.. ومن يقول عسلية.. ومن يقول خضراء.. أو سوداء وهناك من يصر أنها بنفسجية اللون.. أو رمادية.. كلهم كانوا صادقين.

تربـــت الفـــتاتان في بيت عائلي جميل.. ملتزم.. هادئ.. يعرف فروضه تماماً.

بـــدأت مأســـاتهم بخبر احتراق محل أبيها عن آخره.. واحتراق الـــرجل فـــي داخله.. لم يبق لهن شيء.. لم يترك لهن شيئاً هكذا بين لـــيلة وضحاها أصبحن بلا عائل.. بلا دخل.. بلا مال.. لم تكن إلهام.. ترغـــب فـــي تذكـــر تلك الأيام.. ولكن ذكرياتها كانت تقفز بين الحين والآخر مهاجمة عقلها ومشاعرها بكل ذلك الإصرار والإلحاح.

لم تجد الأم بداً من أن تقبل الزواج من الحاج زكريا الفوال تاجر العلافـــة بالموســـكي.. لم تكن تعلم مدى قسوة هذا الرجل.. حيث كان يلذ له أن يذيقهن جميعاً شتى ألوان الهوان والضرب المبرح.. بعد أن انتقلن للسكن معه بحي الزمالك الراقي.. كان شديد البذخ وخاصة بعد كـــل علقـــة مبرحة.. يغدق عليهن بالملابس والمال والزينة ولكن كل ذلك لم يغفر له قسوته الشديدة وضربه العنيف.

بـــدأ جمال إلهام يرتفع صوته حتى صار صارخاً.. طاردها الرجل كثـــيراً دون جـــدوى فكان ينفث عن غضبه بالقسوة كان أمل الأم أن تســـتطيع حمايـــتها حـــتى تتخرج من معهد معلمات إمبابة.. لابد من الصبر على كل هذا الهوان لحين تخرجها.

لسبب ما.. أراده القدر.. استطاع الرجل الانفراد بالفتاة الصغيرة بالشقة.. فاعتدى عليها بوحشية.

عادت الأم وابنتها الكبرى.. لتشاهد الصغيرة غارقة في دمها في شـــبه إغماء.. وقد جلس الرجل على المقعد المواجه الوثير شبه عار يدخن سيجارته.

مـــا كـــادت الأم وابنـــتها تصرخان حتى انهال بكلماته وركلاته.. حـــتى اسكتهما.. إلا من بكاء بغير صوت.. قطع الرجل الصمت قائلاً.. وهو يطفئ سيجارته:

- خلاص.. ما تزعلوش.. أنا مستعد أطلقك واتجوزها إيه رأيك في الحل ده.. قومي بقى إعملي لي شاي.

صـــدمت المـــرأة.. وكفـــت عن البكاء تماماً.. وظلت تحملق في ذهول.. صرخ بها مهدداً:

- قومـــي فـــزي يا ولية أعمليلي شاي.. لأقوم والله العظيم أخلص عليكم كلكم وأقول حرامي كسر الشقة وقتلكم.. يالا إتلحلحي.

شـــرب الـــرجل الشاي في صمت.. ساعدت أحلام أختها الصغيرة

إلـــى دورة المياه.. جلست الأم في صمت وترقب.. شعر الرجل ببعض الألم.. لابد أنه.. الإرهاق.. ازداد الألم.. تماسك وسألها:

- هي.. يعني ما قلتيش.. إيه رأيك؟

أجابته متسائلة:

- في إيه؟

قال:

- فـــي الحـــل إللي قلته لك؟ على فكرة ده مش ذنبي.. أصل البنت إحلـــوت قـــوي.. آه.. إيـــه المغص ده.. يظهر إني أخذت برد.. ناوليني الجلابيه من بره.

أجابت عند دخول الفتاتين:

- مش لما أقولك إيه رأيي الأول؟

بـــدأ الرجل ينهار شيئاً فشيئاً ويضعف من شدة الألم.. استرسلت الأم..

- شـــوف يـــا سيدي.. إنت دلوقت بتموت.. أنا حطيت لك سم في الشاي.. ده بقى انتقامي أنا.. إنما انتقام ربنا فهناك.. فوق.. هو حر معاك.

لم يسمع الرجل الجملة الأخيرة فقد سقط جثة هامدة.

وهكـــذا عـــادت الفـــتاتان إلـــى باب البحر تقابلان أهوال الحياة وحدهما.. حيث قبعت أمهما هناك وحيدة بسجن القناطر.

أرغمـــت إلهام ذكرياتها على التوقف.. فهي لا تستطيع أن تترك كـــل مرارتها وآلامها أن تأتي مرة واحدة لتلوث ما تبقى لها من حياة فقمعـــت ذهـــنها بقـــوة مانعـــة بقية ذكرياتها المؤلمة من الخروج.. وأرغمتها على العودة.. فإنها وإن تركتها لابد لها أن تصاب بالجنون لذلـــك نفضت رأسها الجميل وأعادت ابتسامتها الساحرة وارتدت مرة أخـــرى لباس الرقة والبهاء.. وعادت إلى الحياة مسرعة.. مبتسمة.. رقيقة.. رائعة.. كما كانت.

وتركـــت هـــناك فـــي ظلمات الماضي.. باقي ذكرياتها المؤلمة.. هـــناك حبيسة.. تصرخ.. تولول.. تحفر بأظافرها.. محاولة الخروج.. ولكن.. هيهات الآن.

انتصـــرت إلهـــام كالعـــادة وخرجـــت بشـــموخها وجمالهـــا من المدرســـة.. هي.. هي.. تحمل ذلك التأثير الأخاذ على الجميع.. حيث تشعل أبدان الرجال ناراً موقدة.

دخل أحمد البحر فصل (رابعة ثالث) المطل على العطفة الخلفية.. مـــن جنينة مفتاح.. وما إن فتح دفتر تحضير دروسه.. إلا ووجدها.. ورقة بلون البحر مطوية بعناية.. تنبعث منها رائحة حركت قلبه بقوة ولهفـــة.. الـــتقط الورقة الزائرة لدفتره.. فتحها بحذر.. وكأنه يبادلها رقة.. برقة هناك في منتصف الورقة كانت كلمة واحدة.. مكرره ثلاث مـــرات "أحبك.. أحبك.. أحبك" ثم.. لا شيء آخر مسح العرق المتناثر علـــى جبينه.. لابد أن تكون هي.. أكيد.. إنها إلهام.. وإلا لماذا كانت

تطـــارده بعينـــيها الكاشـــفتين لأسرار مشاعره.. وبسمتها الغامضة.. ارتعشت يداه.. ودوى قلبه بعنف.. إذن هذا هو سبب عدم قدرته على مواجهـــة عينـــيها لقـــد كانت تريد أن تقول شيئاً.. ولكنه دائماً.. كان يهـــرب.. قـــبل أن تـــنطق بـــه.. لم يستطع أن يشرح لتلاميذه كلمة واحـــدة.. لـــم يكن أمامه إلا إسكاتهم بلعبة شمس وقمر.. التي تعلمها مـــن زملائـــه فعـــندما يقـــول (قمـــر) يلقـــى التلاميذ برؤوسهم على الطاولات.. مفتعلين النوم وكأنه الليل قد جاء.. وقد ينام أكثرهم حقاً.. المهـــم فقط أن يتركوه في حاله ليلملم شمل نفسه.. بعد أن أصابه ما أصـــابه.. إذن.. فذلك هو الحب.. أكيد أنه الحب.. الذي لم يجربه من قبل.

لـــم يعـــرف أحمـــد البحر.. أن تلك الرسالة الرقيقة.. لم تكن من إلهـــام بـــل كانـــت من فتاة أخرى.. تتحرق شوقاً إليه.. في حب كبير صادق.

كالعـــادة.. احتدم النقاش على المقهى.. ولكن هذه المرة اختلفت الآراء.. والتحلـــيلات.. عـــن أســـباب العـــدوان الثلاثي.. وتأميم قناة الســـويس وهـــل كان من الأفضل.. الانتظار لسنوات قليلة حتى ينتهي عقـــد الامتـــياز.. الـــذي كانت مدته (تسع وتسعون سنة) وعلى وشك الانتهاء.. لتعود القناة.. ملكية خالصة لمصر.

غضـــب أحمـــد لهذه الأفكار.. الانهزامية الغبية.. إن عبد الناصر يعرف تماماً ما هو في صالح البلد.. أكثر من الجميع.

لــم يشـــارك بـــنهاوي فـــي النقاش.. بل ظل ينقر على الطاولة المعدنـــية الصغيرة مترنماً.. بأغاني الثورة.. متهكماً.. تلك الأغاني.. التـــي مازال الراديو في المقهى يبثها.. كانت الأغنية التي تسببت في هذا النقاش:

قلنا حانبني وادي إحنا بنينا السد العالي

ياستعمار بنيناه بإيدينا السد العالي

ولكن البنهاوي يغني:

– إحنا دخلنا النار بإدينا كده طوالي

لو كنا صبرنا.. ما كان راح منا الولد الغالي

أنهـــى ذلك الجدل تجمع الناس أمام دكان الأسطى وليم الحلاق.. حول حصان أبيض.. مزين بشتى أنواع الزينة.. يركبه الحاج عطية.. تاجـــر المانـــيفاتورة.. من أكبر تجار شارع باب البحر.. يحمل أمامه ولـــده الصـــغير.. تتقدمه فرقة موسيقى المزمار.. بطبولها الكبيرة.. وملابســـها الصعيدية خلف الجميع.. سار عجل جاموس.. يقوده جزار مـــن بين الحارات.. تجمع حولهم.. الأطفال والنساء وبعض الرجال.. يصـــفقون ويرقصـــون علـــى أنغام الموسيقى الصاخبة.. وقد انطلقت الزغاريد من النوافذ والشرفات تحية لهذا.. الركب.

نهض الأسطى وليم.. من مكانه بالمقهى.. مزعوراً:

إيـــه الحكايـــة.. الحاج عطية.. جاي بدري قوي.. دا لسه ساعة

على ميعاده.. سعيده بقى يا جماعة.. لازم أطاهر الواد ابنه.

عقب بنهاوي ساخراً:

– أيوه يا عم.. حاينوبك النهاردة فخذة عجل بحالها.. الليلة ليلتك.

كانت آخر كلمات وليم وهو ينسحب من المقهى مسرعاً.

– يـا عـم بـلا قـر بقى.. ما تنسوش يا جماعة.. تيجوا تاخدو نصيبكم.. أحسن العجل بيطير هوا.

أسـرع بعـض الجالسين على المقهى خلفه.. فيما عدا الأسطى حسـن الـذي طالما جلس واجماً.. وقد جلس إلى جواره أحمد البحر صـامتاً.. يراقب هذا العيد المفاجئ.. حتى سعيد باشا.. أسرع قافزاً.. ليحجز لنفسه مكاناً.. وسط الجمع.

تمـت الطهارة.. ذبح العجل.. انطلقت الزغاريد.. وزع اللحم.. لم يعد أحد إلى المقهى.

نهـض حسـن الأعرج فجأة.. صارخاً بحدة.. لم يراها أحمد من قبل:

– اقفلوا الزفت ده.. يا كلاب.

هـرول كشـري صـبي المقهى.. وسقط الحاج على عن كرسيه المـرتفع وهو يحاول الإسراع.. إلى الراديو.. لإغلاقه.. لم يفهم أحمد الـبحر السـبب فـي هذا التوتر.. كانت الأغنية المذاعة.. تتحدث عن العروسة والفستان والزفة.. وما إلى ذلك.

جلـــس حســـن.. متوتراً.. مسود الوجه.. غاضباً.. ثم ما لبث أن غادر المقهى في صمت.. دون أن يحيي أحداً.

الأســطى حسن صاحب ورشة صناعة الأحذية الصغيرة في حارة ســوق البقر عند عودته إلى منزله.. منذ سنوات لا يحب أن يذكرها.. وقــت أن كان شاباً معافى سمع صراخ (أم رضا) جارتهم.. زوجة عم فتحــي.. مكوجــي الرجل المشهور.. بباب البحر.. أسرع حسن وقرع بــاب جارتــه.. الذي فُتح تحت وطأة دقاته.. دخل مسرعاً.. مستطلعاً الأمــر.. يتــبعه بعــض الجيران.. كل يحاول معرفة ماذا حدث.. وما ســبب هذا الصراخ.. كل يحاول تقديم يد العون.. إن أمكن.. تلك كانت عادتهم دائماً.

كانــت أم رضــا.. تلطم خدها.. وقد شقت جلبابها.. وكشفت عن رأسها صاحت مستنجدة حينما شاهدت حسن:

- الحقنــي يا حسن يا بني.. شوف المصيبة إللي حطت على دماغ خالتك أم رضا.

صــاحت بهــا.. ابنــتها.. المنزوية على طرف الكنبة من خلال دموعها:

- كفاية يامه.. بلا فضايح.

خلعــت أم رضــا.. قبقابها.. وقذفت به في وجهها.. ولكن رضا تفادت القذيفة بصعوبة.. حيث كانت أم رضا تصيح بحنق:

- فضــيحة؟.. فضــيحة يــا بنت الكلاب؟.. ما هو إنتي إللي جبتي

الفضيحة لحد عندنا.

ثم نهضت مهاجمة ابنتها فجأة قائلة:

- والله لأشرب من دمك.. يا كلبة.

أسرعت الفتاة الجميلة للاختباء.. في الغرفة الوحيدة بالشقة.. فهم حسن أن الأمر ينطوي على أمر جلل.. فشكر الجميع وأخرجهم من الشقة.. ثم أغلق الباب وجلس في هدوء مطرق الرأس.. بينما تولول أم رضا.. وتندب حظها.. ثم ما تلبث أن تعاود لطم خديها.

رضا فتحي.. رضا.. الفتاة الوحيدة في حارة سوق البقر.. الشقراء ذات الشعر الأصفر.. والعينين الزرقاوتين.. صاحبة الجمال الأوروبي هذا الجمال الأجنبي الغريب.. تلك الفتاة.. البيضاء البشرة الهيفاء كانت تثير مشاعر متباينة بين أهل هذا الحي.. البسطاء.. كانت فخر أمها.. ورعب أبيها.. الأسطى فتحي.. مكوجي الرجل البسيط..فقد كان يعتبرها كقنبلة.. موقوته في بيته.. كان يتمنى لها إحدى الحسنيينْ كما كان يقول.. إما زواجها.. أو موتها.. خوفاً عليها من الذئاب الذين يعلم تماماً.. أنهم.. بجمالها (الخوجاتي) هذا.. لن يتركوها لحالها أبداً.

كانت رضا فتحي الشقراء الهيفاء هذه.. لحناً نشازاً في هذا الحي الشعبي.. الذي تشعر فيه دائماً.. بطعم الجلباب البلدي.. والملاءة اللف.. والطاقية.. والطرشي الحراق.. كانت رضا مختلفة بمعنى الكلمة.

ولولت أم رضا بصوت باك.. خجول:

- رضـــا حامل يا حسن.. بنت الكلاب حامل.. قوللي أعمل إيه في المصيبة دي؟.. لازم أقتلتها قبل ما يجي أبوها.. ويقتلني معاها.

لـــم يحـــرك حســـن ســـاكناً حينما نهضت أم رضا.. لتكسر باب الغرفة.

غـــير معقـــول.. رضا.. شقراء الحارة.. (خوجاية باب البحر).. كيف؟

هكـــذا.. عـــرف حسن القصة.. إنها كلل قصة تشبيها.. أحبت.. أخطأت هرب وتركها بعارها.. وآمالها الضائعة.. وجنين في أحشائها.

أمســـك الأســـطى حسن بكل ما أوتي من قوة بيد الأسطى فتحي والـــد رضا حتى أسقط السكين.. التي أصابته في كتفه.. أهم من منع الرجل من ذبح الفتاة.. لابد من منع الفضيحة الآن.

فـــي هذه الليلة بعينها.. تم كتب كتاب الأسطى حسن على الآنسة رضـــا فتحـــي.. البكر الرشيد.. علت الزغاريد.. الكل يحتضنه ويقبله مهنـــئاً له.. فهـــو فـــتى طيب.. (يستاهلها).. لم يعرف أحد بالفضيحة أبداً.

شـــهوراً.. عاشها حسن في سعادة.. بهذه العروسة الحلاوة في بيـــته هـــذا الجمـــال الـــذي طالما حلم به.. ككل أهل الحارة.. شهور عاشـــتها رضـــا فـــي أمان بعد سترها من الفضيحة.. كانت سعيدة..

تحـيا.. ترقص.. تغني.. أعجبها صوتها كثيراً.. ملأت البيت الصغير بغـنائها الجمـيل.. وضعت رضا وليدها.. الذي مات بعد أربعة أيام.. حزن حسن.. لم تحزن رضا.. إنتهت الفضيحة.. تحررت رضا.. رضا تشـعر أنهـا فنانه.. صوتها جميل.. لابد لها من الغناء في الإذاعة.. بدأت المشاكل.. رفض حسن بشدة:

- دا مـش جونـا.. ولا وسـطنا.. إحنا ناس غلابة.. مالناش في الكلام ده.

قالت بعنجهية واستهذاء:

- انت راجل جاهل.. عمرك ما حاتفهم يعني إيه فن.

زادت المشـاكل.. كثرت المشاجرات.. علا صوتهما.. رضا تكثر مـن الخـروج.. تتأخر كثيراً.. تغير حالها.. تبدل شكلها.. بدأ الجحيم يطـل على وجدان حسن.. ثم ما لبث أن ملأ فكره.. وبيته.. وحياته.. طلبـت الطـلاق.. رفـض حسن بإصرار.. إنه يحبها بشدة.. عاملته بإهمال.. ثم باحتقار وإهمال.. ثم بتجاهل واحتقار.

أهمـل حسن عمله.. تبدل شكله.. تغيرت حياته.. قرر أن يراقبها يجـب أن يعرف أين تذهب.. أسرع خلفها في ذلك اليوم المشئوم.. ها هـي ذي تخـرج إلـى شارع كلوت بك.. راقبها.. ما هذا؟ إنها تركب سـيارة فارهـة.. يقودها شاب جندي.. من هذا الذي ركبت بجواره.. إنـه.. يـبدو.. كضـابط جيش.. لمعت الرتب على كتفه فأعمت عينا حسـن الجزمجي.. لم يتحقق من الملامح.. انطلقت السيارة لابد وأن

يتـــبعها.. جـــرى خلفها.. لم تسعفه ساقاه القويتان قفز إلى الترام من جهـــة اليســـار.. اخـــتل توازنه.. تحت وطأة دموعه وصراخ وجدانه المكـــتوم.. سقط تحت عجلات الترام.. لم يشعر بشيء.. إلا برودة في ساقه.. تجمع الناس:

- "لا حـــول ولا قوة إلا بالله.. يا ساتر يا رب.. مسكين.. من.. هو مين ده"؟

سأل الأسطى حسن في زعر:

- حصـــل إيـــه؟ فـــيه حاجة؟ أنا سليم مش كدة؟ لو سمحتوا عاوز أقوم.. رجلي سقعانه أوي.. حد دلق عليها ميه؟

ثم ما لبث أن راح في إغماءة طويل.

لـــم يعـــرف حســـن أن.. ســـاقه قـــد بـــترت إلا بعـــد أن أفاق بالمستشفى.. شخص واحد ظل مرافقاً له.. ممن نقلوه إلى المستشفى لـــم يـــتركه لحظـــة.. قضى له كل حوائجه.. آنسه.. أطعمة.. سقاه.. ســـاعده فـــي قضـــاء حاجـــته.. كلما فتح حسن عينيه.. وجد وجهه أمامه.. يغير له ضماداته.. يحادثه.. يسايره.. سأله حسن:

- مين حضرتك؟

أجاب بابتسامة أب سعيد لنجاة ابنه:

- أنـــا سعيد فهمي.. ممكن تناديني بسعيد باشا.. آه.. أنا فعلاً باشا وابـــن باشـــا.. الحمد لله على سلامتك.. ممكن أعرف اسمك انت

إيه بقى؟

أجاب حسن في خجل:

- أنـــا حســـن.. الأســطى حـــزن جزمجي.. ممكن تناديني حسن الأعرج.

ثـم أشـــاح وجهـــه.. وذرف دمعتيـــن باقيتيـــن منذ كان يطارد السيارة.. العسكرية.. الفارهة.

رضـــا؟.. كلا.. لم تزره بالمستشفى مرة واحدة.. بل أرسلت بعد أن عرفـــت الحـــادث.. تطالبه بالطلاق.. أصر حسن على الرفض إنه مازال يحبها.. أرسلت مرة أخرى.. ورفض مرة أخرى.

- "لو انطبقت السما على الأرض.. لا يمكن أطلق رضا".

عندما فتح الأسطى حسن باب بيته.. وجده خاوياً.. لقد أخذت كل شـــيء.. كـــل شيء.. حتى حبال الغسيل.. لم تترك له إلا ورقة معلقة على باب البيت من الداخل

(لو ما طلقتنيش- حانخرب بيتك)

اشـــترى حســـن الأعرج.. كليم أسيوطي.. ووسادة.. وبطانية.. وفوطـــة.. وصابونة.. وجلباباً لنومه.. وطبقين.. ولكنه.. لن يطلِّق.. لم يمض أسبوعاً.. حتى أيقظه أهل الحارة:

- دكانتك بتتحرق يا أسطى حسن.

أطفئـــت الـــنار التـــي أتت على كل محتويات الدكان.. أصيب مع

جـيرانه بحروق شديدة.. في يديه.. في وجهه.. في صدره.. ولكنه.. لم يطلق.. جرجره المخبرون في الحارة.. وفقد عكازاه.

- "إيه الحكاية.. عمل إيه الأسطى حسن".

- "واخدينه.. اشتباه.. وتحري".

بعـد ليلتيـن في حجز قسم باب الشعرية.. عرف فيهما.. معنى الجبروت الحقيقي لرجال الشرطة.. رغم الضرب والإهانة فمازال.. لا يطلق.

أيـام.. وتـم القـبض علـى الأسطى حسن.. هذه المرة لم تكن الشـرطة.. بـل المخابرات العامة.. تم ترحيله إلى سجن القلعة.. في الغـرفة رقم ١٧ عرف أشياء.. لم يشأ أن يخوض فيها.. ولن يفعل.. مـرت ساعات وأيام.. وليال وشهور.. لم يستطع إحصاءها.. لم يكن يعـرف ليلاً من نهار إلا عن طريق ضوء يجيء.. وضوء يروح.. ثم ظلام دامس حتى يجيء الضوء مرة أخرى.. كل ذلك من خلال النافذة الصـغيرة العلويـة المصـلحة بأسياخ الحديد.. نافذة متناهية الصغر. تنبـئه بأن هناك زمناً يمر.. وأياماً وليالي تتعاقب.. هناك في الخارج فقـط.. شـعر حسـن الأعرج.. وكأنهم قد نسوه هنا.. في هذا الجحر القذر لا شيء إلا صرخات لرجال أو نحيب.. طوال الليل.. وهو هنا لا يعرف شيئاً.. لا يرى شيئاً..

يومـاً بعـد يـوم.. بدأ الصول الضخم ذو الكرش.. الصاعد إلى صدره يجازبه الحديث.. تعاطف معه..

- "لا واله.. ما قالوش حاجة عن سبب اعتقالك.. وانت لا مؤاخذة حــتى مــالكش ملــف هنا.. هم حطوك في الزنزانة الصغيرة دي علشان منسية يعني مهجورة.. ما حدش يعرف عنها حاجة".

- طيب ليه؟.. وأخرتها.. أرجوك.. اعمل حاجة..أنا هنا بأموت.

طرق عليه الصول باب الزنزانة الحديدي.. برفق.. ناوله الطعام.

ثم بادره قائلاً:

- أنا خلاص.. عرفت حكايتك.

قال حسن.. بسعادة:

- صحيح.. أرجوك.. قوللي.. إيه الموضوع.. ليه جابوني هنا.

أطرق الصول قليلاً ثم قال.. بعد أن أشعل سيجارة:

- هم.. عايزين منك حاجة.

قال حسن الأعرج غاضباً:

- حاجة إيه؟ أنا حيلتي إيه؟

أطرق الرجل مرة أخرى.. ثم قال بعد صمت وكأنه لا يعرف ماذا يقول له.. تمتم بحزن عميق:

- طلقها يا حسن.. وهم يسيبوك تروَح.

قال حسن بتعجب:

- هــي ميــن دي إللي أطلقها.. مال الناس دي.. ومال طلاقي من

مراتي.

قال الرجل بحدة:

- طلقها.. طلقها يا أخي.. هي دلوقت ما بتقتش من وأمك.

قال حسن بغيظ:

- تقصد إيه يا حضرة الصول؟

قال الصول وهو يدق بيده على ركبته غاضباً:

- إنـــت ما تعرفش إنها بقت فنانة كبيرة.. دي يومياً لها أغاني في الـــراديو.. حـــتى التلـــيفزيون.. بيجيب أغانيها.. ومعروض لها دلوقت فيلم في السينما.. يعني هي خلاص.. وصلت.. فاهم؟ إنت مين بقى؟.. تقدر تقوللي.. يا حضرة الأسطى الجزمجي؟؟

إذن هـــو الأمـــر.. مـــرة أخرى.. رضا فتحي.. بنت حارة سوق البقر.. التي صارت فنانة لها صيتها واسمها.. فعلاً:

- "إنـــت ميـــن يـــا حسن.. مهما عملت.. رضا خلاص طارت منك ومش حايبقى لك من ذكراها. إلا رجلك المكسورة والعكازين".

عـــاد الأسطى حسن إلى ورشته.. وبيته يبدأ من جديد.. ولكن.. لـــم يعد الأسطى حسن.. بل صار حسن الأعرج.. يحمل تشوهاً عميقاً فـــي كـــل شيء.. عرف الأسطى حسن.. أن القانون.. ليس إلا ضباطاً مـــن صـــنفين.. لـــيس إلا تحقيقاً لرغباتهم.. لم يعد القانون لإنصاف الغلابـــة.. أو الحق.. إنه يرى أن الشرطة ما عادت في خدمة الشعب

ولكن على الشعب الركوع لخدمة ضباط الشرطة.. والجيش أيضاً.

لـــم يكـــن أحمـــد البحر يعرف أن الأغنية المذاعه بالراديو التي أثارت الأسطى حسن كانت لطليقته رضا فتحي.

وجـد أحمـد الـبحر نفسـه وحيداً بالمقهى.. رغم كثرة الحركة حولـه.. وأصـوات قطع الدمينو.. تصرخ على الطاولات الرخامية.. وأصـوات زهـر الطاولـة المزغـرد على خشب اللوحة.. وضحكات الزبائـن المخـتلفة.. المتداخلة مع صوت الراديو المرتفع.. وصوت كشـري صـبي المقهـى.. ينادي بالطلبات وكأنه يغني.. إلا أنه شعر بـالوحدة الشـديدة.. كـان الليل قد اقترب من منتصفه لابد له من أن يصعد إلى غرفته لينام.

نهـض فجأة.. دفع الحساب.. أعطى كشري نصف قرش بقشيش وصعد إلى غرفته.. ليستريح.

مـا إن دخل الغرفة.. ومد يده إلى مفتاح النور.. ليضيء الغرفة إلا هاجمـته في الظلام.. محتضنة إياه.. وقد التقمت شفتيه تمتصهما بقوة.. ضمته بعنف مشوباً بالرعشة.. ثم عاتبته قائلة:

- جننتني يا واد يا حليوة إنتا.

شـعر بالاشـمئزاز الشـديد.. لقـد ظـنها في بادئ الأمر سناء ولكـنها.. ويـا للهول.. إنه لا يصدق.. لقد كانت.. أم العربي.. تكاد تلـتهمه.. وجسـدها ينـتفض برغـبة.. عارمة رهيبة.. فجرتها تلك اللحظة.. في وجهه.. دون إنذار.

أفلـت جسـده من بين ذراعيها القويتين المترهلين بجهد كبير..

أســرع هاربــاً.. خــارج الغرفة.. خارج الشقة.. خارج البيت كله.. لاحقــته ضــاحكة.. قهقهت.. تسبه بلفظ قذر.. لم يكن له أن ينطقه.. أبداً.. طوال حياته:

نعم.. خرج أحمد البحر هارباً.. دون تحديد اتجاه أرسلته قدماه.. إلــى مــيدان رمســيس.. هــناك.. أمام التمثال على المقعد الحجري الــبارد.. جلــس.. ناظــراً.. إلــى الميدان الفسيح ناظراً.. إلى مبنى المحطــة.. حيــث الخارجون.. الهاربون.. المسافرون والقادمون.. لا يعرفون.. مهما عرفوا.. فهم حتماً لا يعرفون.

نظر إلى المباني المحيطة بالمحطة.. باحثاً.. مستغيثاً.. عله يجد مــن يســمع له.. هــناك.. وسط الميدان وقف تمثال رمسيس الثاني شــامخاً.. مبتســماً.. كعادته.. فخوراً.. بنفسه.. بإنجازاته.. بأحفاده المنتشرين حوله.. من كل صوب.. ترى أيحق له أن يفخر بهم؟ ربما.

مــاذا حدث لتلك المرأة؟ أم العربي؟.. تلك الأم الهادئة الرزينة.. ربما كان ابنها العربي قريباً من عمره.

يــبدو أن الــناس قــد جنــت هذه الأيام مازال أحمد البحر يشعر بالــتقزز.. بصــق.. ثــم بصق.. مرات ومرات.. ولكنه كان يشعر أن لعابها قد التصق بفمه.. فبصق ثم بصق مرة أخرى.

مــازال رمســيس يبتسم.. وكأنه يحاوره.. "أين لحنك الآن.. يا أحمد يا بحر؟ أيها القادم من بلاد البحار الزرقاء.. من أين تأتي به؟.. كيف يكون؟ من أين ياتيك الإلهام؟

أي إلـــه.. ســيمدك بعونـــه لــيلهمك موسيقاك الخالدة. هل كلما اقتربـــت مـــن الـــناس وغصت في أعماقهم.. تضل الطريق؟ ألم تعمل حساب خطورة غوصك هذا في تلك الأعماق.. الغامضة ذات الألوان.. والأصـــوات.. والمعانـــي..؟ أما زالت تلك المعاني غريبة عليك؟ كيف يخلــدك الــتاريخ؟ إن لـــم تتصف بالشجاعة.. ها أنا ذا.. قاهر الزمن والأيام.. قاهر الشتاء والصيف.. واقف أمامك شامخاً.. لتبحث ثانية.. يـــا ولـــدي.. لا تـــيأس.. لا تستسلم.. ابحث.. ونقب.. فهناك في هذا الحـــي العريق يوجد لحنك الموعود.. كل ما في الأمر.. أنك لم تستطع التقاطه حتى الآن.. انهض.. وعاود الكرة".

نهـــض أحمـــد البحر.. نظر إلى وجه رمسيس الثاني.. شعر أنه يبتسم له وحده.. يحبه.. اتجه إلى باب البحر عائداً مرة أخرى.. شعر بقشـــعريرة تســـري فـــي جسده.. شعر بالرعب.. إنه حي.. رمسيس الثانـــي.. مـــازال حـــياً.. ولكـــنه البرد الذي بدأ ينتشر أحدث فيه تلك القشـــعريرة فإن القميص الخفيف ذو النصف كم الذي يرتديه.. لم يكن ليحمـــيه مـــن لسعات البرد الليلية القارصة.. وليست نظرات رمسيس الثاني.

يبحـــث له عـــن مكان يبيت فيه حتى الصباح.. بعيداً عن بيت أم العربـــي.. وعـــن أم العربي.. حيث عاد إلى شارع كلوت بك.. ليبحث عن لوكاندة يختبئ في غرفة فيها من هذا البرد.. يعصف به خليط من التقزز.. والحنق والحيرة.. والبرد.

لــيس مــن السهل.. أن يجد غرفة خالية في مثل ذلك الوقت من اللــيل.. أخذ الشارع بطوله باحثا.. هناك رآهن رؤية العين.. ساقطات كلــوت بــك.. وقــد وضعن زينتهن الفجة بألوانها الصارخة.. كأنهن مهرجات في سيرك.. بقمصان نومهن اللامعة التي تكشف عن أجساد بيضاء وسمراء.. مترهلة.. واقفات تعرضن الرذيلة علنا.

- "عايز حاجة حلوة يا فندي"؟

- "تعالى يا واد دوق العسل".

- "تعالى يا فندي نام عندي".

- "مش عاوز تقوللي كلمة في (بقى)..."؟

هكــذا.. علــناً.. خلــف أعمــدة البواكي.. في الشارع المعتم.. بقــروش قليلة.. حتى عسكري الدرك.. رآه أحمد البحر.. يغوص هنا وهــناك فــي ذلك اللحم الرخيص.. يا بلاش.. على حساب الحكومة.. فهو حاميهن.. وحارسهن وله حق عليهن.

مازالــت أم كلــثوم تشــدو.. مــن مذيــاع بعيد "..يأتي صوته كالمخنوق":

"هجرتك يمكن انسى هواك

واودع قلبك القاسي

لقيت روحي في عز جفاك بافكر فيك وانا ناسي"

أخــيراً.. كانــت لوكــاندة (المنتزة).. وقد غط الكاتب في النوم

جالسـا إلى مكتبه الصغير.. نقر أحمد زجاج المكتب الفاصل.. مرة.. ثـم أخـرى إلى أن تنبه الرجل.. متثائباً.. يفرك عينيه.. رمق أحمد.. بنظرة معاتبة لأنه أوقظه.. في مثل تلك الساعة قائلاً:

– نعم؟

أجاب أحمد البحر:

– عاوز أوضة فرداني لو سمحت.

تساءل الرجل.. وهو يفتح دفتره:

– معاك خمسة وعشرين قرش؟

أجاب أحمد وهو يخرج النقود من جيبه:

– معايا.

ثم أعطاه ثلاثين قرشاً.. ثلاث ورقات فئة العشرة قروش.. وضع الرجل النقود بالدرج.. وتظاهر بتسجيل اسمه بالدفتر ثم صاح:

– ماهر.. ماهر.. إنت يا زفت يا ماهر.

ظهـر شـاب طويل القامة ممسكاً (بلمبة جاز).. على سلم طويل جـداً مسـتقيم كالعـامود.. يتجه إلى أعلى.. في اتجاه واحد فقط إلى الـدور العلـوي مباشرة.. كان السلم رغم طوله الغريب.. ضيقاً جداً وكأنـه سلم الهرم الأكبر.. بدا له وكأن عدد درجاته يربو على المائة درجة قال الكاتب.. وكأنه يعاود النوم على صدره كما كان:

– خـد يـا حمار البيه.. للمطرح إللي في الحوش الوراني.. يا للا

اتحرك.

قال أحمد بوجوم حذر:

- باقي لي خمسة صاغ.

أجاب الكاتب وهو مغمض العينان. دون مبالاة:

- ابقى فوت خدهم الصبح.. ما فيش فكة دلوقت.

لـــم يستطع أحمد أن يقول كلمة.. وقفت في حلقه.. فلا فائدة من الحوار.

تبع أحمد البحر الفرّاش.. مستسلماً.. صاعداً الدرج.. ما لبث أن دلف إلى رواق طويل أيضاً.. مظلم.. شعر فجأة أنه قد أصبح في عالم آخــر.. لـــم يكـــن مـــن ســـماته الخوف.. رغم أن المكان قد أصابه بقشعريرة زادت من إحساسه بالبرد.. ثم ما لبث الفراش أن نزل سلماً آخــر.. قديمـــاً مـــتهالكاً.. درجاته خشبية قديمة.. لم يدر أحمد.. أين هـــو.. كان الجو غريباً.. ذا رائحة منفرة.. ينذر بشيء غير طبيعي.. تساءل.. أين يأخذه ذلك الفراش؟

عـــبرا ســـاحة صغيرة.. يرقد فيها.. خروف وماعزتان.. ما أن رأوهما حتى دبت فيهما حركة متكاسلة بسيطة.. لأن القادمين قد أقلقا نومهم.

دلفا من باب صغير.. ثم صعدا درجاً آخر.. حجرياً.. صغيراً دفع ماهر باباً خشبياً.. ضخماً.. ليس له لون.. سوى لون الخشب القديم..

ذلك اللون الباهت.. وقف ماهر على الباب وأشار قائلا:

- اتفضل يا فندم.

تساءل أحمد مستغرباً:

- اتفضل فين؟

قال الفتى:

- اتفضل.. هو ده المطرح.

قال أحمد البحر معترضاً:

- لا طبعاً أنا مش ممكن أنام هنا.. شوفلي أوضه نضيفة.. أو آخذ فلوسي.. وأروح لوكاندة ثانية.

لم يجب الفتى.. والتفت عائداً من حيث أتى.. صاح أحمد:

- طيب سيب اللمبة.. الدنيا ضلمة.

أيضاً.. لم يجب الفتى.. بل اختفى.. ساحباً معه بقايا ضوء اللمبة الخافت.. تاركاً أحمد البحر غارقاً في الظلام.. غارقاً في سكون رهيب.

حاول أحمد البحر.. البحث عن كالون الباب.. كلا.. لا يوجد كالون.. أو حتى أي ترباس.. إذاً.. كيف يغلق هذا الباب لينام في أمان؟.. وجد حجراً كبيراً.. خلف الباب الضخم إذا.. هذا هو (ترباس) الأمان لهذه الغرفة.

مـــا كادت عيناه تتعودان الظلام.. حتى بدأ التعرف على محتويات الغـــرفة.. هـــذا ســـرير حديدي.. صدئ.. عليه فرشة مهترئة.. وتلك وســـادة قـــذرة.. لونها كالح.. يكاد يميل إلى السواد بقذارتها.. وهذه بطانـــية.. رماديـــة اللون.. خشنة.. إنها من بطانيات الجيش.. وماذا أيضـــاً؟.. لا شـــيء آخـــر.. ســـوى حجـــر غلـــق الباب.. يا لها من تكنولوجـــيا.. حديثة.. نعم.. هناك عند الحائط المقابل للسرير.. توجد (طاقـــة) صـــغيرة.. لا يمكن لطفل صغير النفاذ منها.. كانت الطاقة.. مـــرتفعة.. قـــرب السقف الشاهق الارتفاع.. لا يمكن الوصول إليها.. حـــتى لـــو وقف على السرير.. شعر بالتعب الشديد.. أراد أن يجلس ليستريح.

جلـــس إلـــى السرير المتحجر.. شعر بشيء يلمس يده.. سحبها بسرعة نظر.. ما هذا؟ دقق النظر.. أسرع واقفاً.. يا للهول إنها أعداد هائلـــة مـــن حشـــرات.. بيضاء اللون تقريباً.. إنها حشرات.. ماصة الدماء.. إنها نوع من (القمل) العملاق.. سمع عنه من قبل.. لا يوجد إلا فـــي السجون.. ابتعد عن السرير بسرعة إنه مرهق.. أسند ظهره إلـــى الحـــائط.. انهـــارت طبقة البياض والدهان الهشة.. حينما لمس الحـــائط.. ظل واقفاً.. ما العمل الآن.. هل يترك هذا المكان.. ويقضي ليلـــته فـــي الشـــارع لقد أصبح الجو بارداً الآن.. إذاً.. فليظل واقفاً.. عاقداً يديه خلف ظهره طوراً.. وعلى صدره طوراً.. يتحرك فقط يمنة ويسرة.. ليريح إحدى قدميه على حساب الأخرى.

ظل ينظر إلى الطاقة السوداء.. لا يرى منها إلا السماء السوداء ظـــل ناظراً.. منتظراً.. لابد لها أن تصبح بيضاء.. وقتها سوف يعرف أن.. النور قد لاح.. وجاء النهار.

مـــرت سنوات.. باسم ساعات.. اجتر فيها أحمد كل ما حدث له.. عـــاد شـــريط تلـــك الأيـــام العصيبة التي تمر به هنا.. في القاهرة.. لماذا؟.. وما هو سبب كل هذا العناء.. هل هو غضب أبيه.. هل أخطأ حيـــنما أغضبه؟ ولم يستمع إليه ربما قد يكون الآن نائماً.. مستريحاً.. في فراشه الوثير في أمان أمام البيت.. في حمى الأسرة.. حيث الأمل بـــلا ألـــم.. ترى أمازال هناك أمل.. بعد كل هذا؟ أمل في ماذا؟.. إنه حتى لم يكتب (مازورة) واحدة من لحنه الغائب.. هل فعلاً سيجده هنا؟ وكـــيف يجده؟ ومتى؟ وفي ماذا يوجد؟ أين هو هذا اللحن المنشود؟.. أهـــو هنا.. في تلك الغرفة المظلمة؟ المتهدمة.. الباردة؟ تماماً كأحلام السذج.. ذلك القبر المختبئ في اللامكان؟.. بسكانه مصاصي الدماء.. تـــرى كـــيف يمكن أن يكون ذلك اللحن.. إذا خرج له من ظلمات تلك الغـــرفة ذات الأنفـــاس المكبوتة.. كأنفاس الموت.. ذات الوجه القديم الدمـــيم.. غـــرفة ليس لها إلا الليل.. فهي حتماً.. تحيا بالليل.. ولليل فقط.. تلتقف أمثاله ممن تاهوا.. في ليل القاهرة.. فساقتهم أقدارهم.. كـــأقدامهم.. إلى قبور.. كتلك الغرفة.. التي لا تختلف بحطام جدرانها عن حطام نفسه.. وروحه الآن.. وتلك الليلة بالذات.

هـــناك.. قرب السقف.. تطل (الطاقة) إلى السماء المظلمة.. وقد

تعنـــي طاقـــة أمل.. ولكنها لا يمكن أن تعني ذلك.. فهي طاقة سوداء مـــن سواد الليل البهيم.. سيظل ناظراً إليها.. ولن يرفع عينيه عنها.. فإنـــه واثق تماماً.. إنها رغم سوادها.. لابد أن تصير بيضاء.. ولابد مـــن ذهـــاب اللـــيل بسواده.. ليأتي النهار بنوره وقتها فقط.. سيكون الأمل.

وهكـــذا.. كان لابد (للطاقة) من أن تذعن للقدر.. فتصير نوراً.. لن تظل ظلاماً.. ابتسم أحمد البحر مع الضوء.. منتصراً حينما رأى.. عصفوراً صغيراً.. قد بنى عشاً بزاوية تلك (الطاقة) زقزق العصفور.. نفـــض ريشه.. نظر داخل الغرفة مستطلعاً.. ثم.. طار نشيطاً.. بعيداً.. باحـــثاً عـــن نهـــاره.. لقـــد انطلق في اتجاه النور الناعم.. الحريري الملمـــس.. بالســـماء الواســـعة خارج حدود تلك الروح.. المهترئة.. هكذا.. فلينطلق هو أيضاً.

خرج من الغرفة القبر.. من جديد.. كالجديد.. حاول تذكر طريقة الخـــروج.. إلـــى أن خـــرج إلـــى الطريق العام.. استغرقت محاولات الخروج.. وقتاً طويلاً.. وبالمحاولة والخطأ.. وصل عن طريق آخر.. مخـــتلف تمامـــاً عن ذلك الذي أدخله.. طريق آخر جديد.. أخرجه من بطن ذلك الوحش.. العملاق.. المظلم.

لســـعه نسيم الصباح الباكر.. وكأنه يرحب به مؤنباً.. محتضناً.. في نفس الوقت.. فرحاً بعودته.

(٩)

ذهــب أحمــد الــبحر إلى المدرسة.. كان الوقت مبكراً.. لم يشأ الدخــول إلــى غــرفة الناظرة.. جلس بالصالة الصغيرة المربعة في المدخــل.. لم يكن هناك إلا ثلاث تلميذات.. يلعبن (الحجلة) بالحارة.. بعلــبة ورنيش صفيح.. قد ملأنها رملاً.. وخططن بالطباشير المربعات علــى الأرض كانت كل منهن تقفز بمريلتها من قماش (التيل نادية).. فتــتطاير ضــفيرتها الســمكية.. خلفهــا.. مرحة.. وهن يتضاحكن.. فــرحاً.. لا توجد لديهن مشكلة الغد.. وما يمكن أن يحمله لهن.. ذلك ليس عملهن الآن.. ولم يشغل عقولهن الصغيرة.. البريئة بعد.

كــان الوقــت مــبكراً.. شعر بالجوع.. ذهب إلى المطعم الصغير بجــوار المقهى.. كان صوت (قلي) الطعمية.. رائحتها.. ينبئ عن بدء يــوم جديــد.. طلب سندوتشاً مقسوماً (شقة فول والأخرى طعمية).. دفــع قرش صاغ.. لف له الرجل الطعام في ورقة جريدة حمله أحمد.. بعث الطعام الساخن بالدفء في أصابعه ويديه.

جلــس إلــى المقهــى.. يتناول إفطاره الدافئ اللذيذ.. في هدوء وســكينة.. وهــو يرشــف رشــفات من الشاي الساخن.. كان راديو المقهــى الــذي لــم يرتده.. في هذا الصباح الباكر.. إلا القليل يحيه بأغنية محمد قنديل – تداعبه قائلة:

"يا حلو صبح.. يا حول طل"

"يا حلو صبح.. نهارنا فل"

ما لبث أن أزاح المذيع أحمد سعيد هذه المداعبات بصوته الجهوري الغاضب.. احتجاجاً على تهديدات إسرائيل.. متوعداً لها بالثبور وعظائم الأمور.. وبأن أيام هذا الكيان الصهيوني القذر.. أصبحت معدودة.. وسيتم إلقاء كل الصهاينة إلى البحر والخلاص منهم إلى الأبد وإن آت لناظره.. لقريب.

اليوم أجازة.. خرج الطلاب للمشاركة في مظاهرة.. قابله الأستاذ لطفي عند عودته إلى المدرسة وهو خارج:

- إيه إللي جابك.. يا عم روَّح نام.. أو حتى روح أدخل السينما.. أنا عموماً.. حأخد عيالي جنينة الحيوانات.

سمع أحمد البحر فعلاً.. في هذا الوقت المبكر.. أصوات المظاهرات على أطراف باب البحر تنادى:

"تحيا الأمة العربية"

"عاش جمال عبد الناصر"

"اليوم حرام فيه العلم"

لم يفهم أحمد البحر.. كيف يكون العلم حراماً.. ولماذا اليوم بالذات.. ومن الذي حرمه.. ومتى..؟

- كده برضه.. يا أستاذ أحمد.. تشغلني عليك.. دا أنا كنت حأتجنن مانمتش طوال الليل.

نظـــر أحمـــد الـــبحر خلفه.. كانت سناء.. مقبلة عليه.. لائمة.. باكـــية.. مدمعـــة.. محمرة العينن.. منكوشة الشعر.. انزلقت ملاءتها اللف عن كتفيها.. عاد.. واستدار إليها قائلاً:

- أهلاً.. نعم؟

استطردت سونة:

- دا أنا كنت حاموت من القلق عليك.. إنت ليه.. بيَّت بره البيت.. مـــش لـــك ناس برده.. تنشغل عليك.. إخص عليك.. إوعى تعمل كده تاني.. حرام عليك.

أجـــاب دون أن يـــنظر إلـــيها.. أجـــاب في حنق يشبه الاحتقار المؤدب:

- معلهش.. كنت بايت عند واحد صاحبي.

ثم تركها.. هارباً إلى داخل المدرسة.. وقفت قليلاً.. في صمت.. ثـــم مـــا لبثت أن غادرت.. في هدوء حزين تمنى أن لا تكون إلهام قد غادرت المدرسة.. شعر بالرغبة الجارفة أن يراها اليوم.. لابد له من ذلـــك.. هناك في المعقد الجانبي.. المقعد الوحيد الوثير غرفة الناظرة كانـــت تجلس كعادتها دائماً.. أمام المروحة الروسى القديمة الفاضية تتصفح مجلة روز اليوسف.. جالسة نفس جلستها الراقية المثيرة.

جلـــس أحمـــد الـــبحر بالمقعد المجاور.. رمقته.. ابتسمت نفس ابتسامتها المختزلة.. تشجع هذه المرة.

- صباح الخير

هـذه المـرة قالها.. ناظراً في وجهها.. مصراً بشجاعة.. بجرأة وترقـب.. رمقته مرة أخرى.. ابتسمت مرة أخرى ثم أجابت.. بصوت ودود:

- صباح النور.

ثـم قلبـت صـفحات المجلـة.. شجعته إجابتها الودود.. أسرع يواصل الحديث.. حتى لا ينتهي هنا:

- هو النهاردة أجازة.. صحيح؟

وضعت المجلة جانباً.. وأزاحت خصلة جريئة من شعرها:

- أيوه يا سيدي.. الدنيا مقلوبة بره.

ثم فتحت حقيبة يدها الصغيرة.. وأخرجت منديلاً صغيراً مطرزاً.. مسـحت بـه بـرقه شـديدة.. رقبـتها الدقيقة.. الناصعة.. استطرد مسرعاً.. حتى لا ينقطع حبل حديثهما الوليد.. متسائلاً:

- طيب.. انت حاتروّحي؟

أجابـت.. وهي تنظر من النافذة وكأنها تبحث عن شيء ما.. ثم إلى ساعتها.. ثم أجابت:

- مش عارفة.

بجرأة غريبة.. لا يدري.. من أين جاءته.. سألها سؤالاً مباشراً:

- ممكن أعزمك على.. حاجة ساقعة؟

ضحكت.. فتهلل وجهها.. وبادلته جرأة بجرأة.. سائلة له:

- هنا؟

أجـــاب.. وكأنـــه لـــم يعد يسمع كلماته.. فطنينها.. يصرخ عجباً فرحا.. ربما مستغيثاً؟ والتوتر يكاد يمسك لسانه:

- لا طبعاً.. تسمحي أعزمك في جروبي؟

حولت ضحكتها إلى ابتسامة خجلة:

- ما فيش مانع..

ثم صمتت قليلاً.. لم يقل شيئاً.. قالت عنه:

- ياللا بينا؟

كـــان خلـــيطاً.. مـــن الذهـــول.. والفرحة.. والتعجب.. والخوف انـــتابه.. وكأنـــه.. قد سقط في بحر كبير.. لابد أن يصارع الموج كي يعرف.. على الأقل.. ماذا يفعل؟.. إنها المرة الأولى التي تجرأ فيها.. بهـــذا الشكل.. لمثل ذلك الحديث.. السريع.. القوى العاصف.. وكيف انتهى به الأمر.. هكذا.. إلى موعد مع فتاة.

وهكـــذا.. خـــرجاً إلـــى باب البحر.. جنباً إلى جنب.. وكل جسده يهتز مستجيباً لدقات قلبه المتعجبة.. أيعقل ذلك؟.. هل يمكن أن تكون تلـــك حقـــيقة؟ أيمكن أن تكون تلك هي.. بجسدها الرشيق.. ومشيتها الراقـــية.. وملابســـها الرائعة.. تسير هنا.. بجواره هو؟.. معه هو..

وبهذه السرعة الفائقة؟ هكذا؟ لابد أن يكون ذلك حلماً.

شـــعر أن هـــناك طيفاً ما.. أو سديماً خفياً.. يخرج من جسديهما مـــتعانقاً.. مـــندمجاً.. مقـــبلاً.. باكـــياً.. فرحاً.. شيئا ما يكاد يأخذهما طائـــراً.. هـــناك.. فوق السحب.. شعر أن كل الناس تراقبه.. تحسده على ما (حازه).. وحده.. من جمالها الآخاذ إنها معه هو الآن.. ليس أحد غيره.

حـــاول قـــدر الإمكـــان.. أن يحـــدث توافقـــاً مـــا.. بين خطواته وخطواتها.. فكادت السعادة تصرخ من أعماقه:

لـــم يكـــن أحمـــد الـــبحر.. يعلم أنه يختزن كل تلك المشاعر في داخلـــه.. دون أن يـــدري.. لـــم يكـــن يدري أن لديه كل هذا الكم من الانفعالات والحب.. مخزون لديه.. منتظراً أن تفجره.. رائعة تسمى.. إلهـــام.. أيـــن كـــان كـــل ذلك؟ نسى الدنيا.. وتناسى الناس.. تناسى الوجـــود كلـــه ورقـــص قلبه.. فرحاً. وبكت مشاعره سعادة.. مشاعر غريـــبة حبيبة.. دافئة.. تملأ الجو حوله عبقاً.. ونقاءاً.. حباً وسعادة وهـــا هي ذي.. تسير إلى جواره.. بنفس ابتسامتها الرائعة.. ووجهها المنـــير.. المســـتدير.. وعينـــيها الخطيرتيـــن الغريبتين.. وخطوتها الواثقة.. وجسدها الرائع الجمال.. الدقيق التقاسيم.. كم كانت جميلة؟

اتجهـــا إلـــى موقـــف سيارات التاكسي بشارع كلوت بك.. حيث وقفـــت السيارات مصطفة بترتيبها (البرنجي- الكنجي والشنجي) أي الأول فـــي الترتيـــب والتالي.. ثم التالي.. حتى لا يخطف أحدهم زبون

الآخر.. نظام.. ركبا التاكسي الأول (البرنجي).. اعتدل أحمد البحر في جلسته بجوار رائعته.. ثم قال:

- جروبي عدلي يا أسطى.

كـــان الســـائق.. أشـــيب الشـــعر.. نابت اللحية.. تفحصهما في المـــرآة.. ثم ابتسم.. وأدار محرك السيارة.. وفتح الراديو.. وتحرك.. كان راديو السيارة.. أيضاً.. يصر عليهم بأغنية عبد الحليم حافظ:

"قلنا حانبني وآدي إحنا بنينا السد العالي"

"يا استعمار بنيناه بإيدينا.. السد العالي"

من أموال...

غـــير السائق محطة الإذاعة.. لم تكن الأغنية مناسبة لزبائنه إنه سائق مخضرم.. يعرف ما يريده الزبون.. كانت أغنية فريد:

"يا جميل.. يا جميل.. يا جميل.."

"على حبك بانلي.. دليل.."

أحمـــد الـــبحر.. لـــم يكـــن من محبي فريد الأطرش.. ولكن هذه الأغنية.. كان لها وقع رائع.. جعلت قلبه يتراقص.. ومشاعره تطرب بهـــذه الـــنغمات الراقصـــة.. شـــعر وكأن فريد الأطرش.. يغني لها.. بلســـانه هـــو.. نعم ها هو الجميل يجلس إلى جواره.. منطلقاً به إلى هناك.. إلى مكانه المفضل.

كانـــت إلهـــام تـــرمقه.. بنظرتها المبتسمة.. بين الحين والحين

وهـــي تعبث بحقيبتها خجلى.. أو تقلب أوراق مجلتها.. وتعدل أطراف صفحاتها.

انتـــبه إلـــى صوت السائق يسب ويلعن.. لقد اضطر للتوقف أول شـــارع إبراهـــيم باشـــا.. أمـــام مسجد أولاد عنان.. فقد سدت عليه الطريق.. مظاهرة كبيرة.. اشتد زحامها.. ومرة أخرى.

"عاش جمال عبد الناصر"

"تحيا الأمة العربية"

"يسقط يسقط الاستعمار"

"إحنا فداك يا جمال"

"تسقط أمريكا والصهيونية"

ومـــرة أخرى.. حرموا العلم.. لهذا اليوم.. ولماذا اليوم بالذات؟ مازال لا يدري.. قال السائق العجوز محتجاً:

- على إيه ده كله؟ حاجة توقف الحال.

أجاب أحمد مهدئاً.. شارحاً الموقف:

- أصل إسرائيل.. بتهدد.. عاوزة تضرب سوريا.

تساءل السائق.. معترضاً أيضاً.. كما لو كان يبدي رأيه بحماس:

- وإحـــنا ما لنا ومال سوريا.. ولا غيرها.. ربنا يوقف حالهم كلهم يا رب.

عقب أحمد البحر.. شارحاً مرة أخرى:

- يا حاج.. دول عرب برده.

استرسل الرجل وهو مازال حانقا:

- وإحنا مالنا.. إيه دخلنا.. إيشي الجزائر.. وإيشي سورياً.. وإحنا مالــنا بس يا ربي..عايزين نعيش بقى يا ناس.. مش كفاية إللي جرالنا في اليمن إللي خربت بيتنا.

اعترض أحمد البحر:

- يــا ريــس إحــنا كلــنا عرب.. وعدونا واحد برضه.. إحنا أمه عربية.. ولازم إنشاء الله حانكون وحده ووطن واحد.

علق الرجل متهكماً:

- ها.. على حياتك إنشاء الله.. يا عم قول يا باسط.

صــمت الاثنان.. وعاد الرجل ليستكمل سبه لأفراد المظاهرة التي ارتفعت الحناجر بها.. بإصرار.. كالإيمان.

"تحيا الأمة العربية"

إنها المرة الأولى التي يدخل فيها.. هذا المكان.. جروبي عدلي.. بصـــحبة فتاة.. لم يتعود ذلك.. ولتحاشى.. نظرات الجرسونات -الذين يعـــرفونه جيداً- المتسائلة.. طلب من سائق التاكسي التوقف أمام باب جروبي من جهة شارع عبد الخالق ثروت.. نعم.. هكذا أفضل.. أيضًا لـــن يجلـــس معها بالحديقة.. سيجلسها بالصالة الشتوية المغلقة.. لا بـــأس بذلـــك.. فالصالة مكيفة.. ولن يشعر بالحر.. الذي بدأ بارتفاع الشمس بالسماء.. تلك ستكون خطته.

أحـــدى عشـــر قرشـــاً.. دفعها أجرة التاكسي.. على باب جروبي توقفت إلهام قليلاً.. ثم اقترحت:

- إيه رأيك؟.. نتمشى شويه في وسط البلد..

صمتت قليلاً.. ثم أردفت:

- علـــى العمـــوم.. لسه بدري.. دي حتى السينما لسه بدري على حفلة عشرة.

عجباً.. لماذا جاءت على ذكر السينما الآن؟

كانـــت شوارع وسط البلد شبه خالية.. في هذا الوقت.. ومازالت تأتـــي.. مـــن مكـــان ما بعيد.. أصوات هتافات متقطعة.. ما تلبث أن تختفي.. بتغير اتجاه الهواء.

سـارت إلهـام.. إلى جواره.. بنفس الخطوات الواثقة.. توقفت أمام فاترينة محل (فيشن) للملابس الجاهزة. شاهد انعكاس صورتها.. علـى زجـاج الفتريـنة الهـائل.. كم كانت رائعة.. وهي ترتدي ذلك (الـبلوفر) البرتقالـي الفـاقع.. حيث أحاطت ياقتة المرتفعة برقبتها فـزادت وجهها المستدير بياضاً مشوباً بحمرة ناعمة.. ولكن (جيبتها الكاروهـات) القصـيرة بشـكل لافت.. لتكشف عن ساقيها الطويلتين المتناسـقتين.. كانـت أكثر روعة وجمالاً من تلك (المانيكانات) داخل الفترينة.

أعجبتها.. بلوزة بلون السماء.. ما لبثا أن خرجا من المحل وقد اشـتراها أحمـد البحر هدية لها.. بعد أن اشترى لها أيضاً (إنسيالاً) رقيقاً من الفضة.. طلبت العودة إلى جروبي.

طلبـت (شـاي كومبلـيه).. وجلست برقي شديد.. تضع قوالب السـكر فـي الفـنجال الكبـير.. تقلبها.. ثم ترفع الفنجال.. بإصبعين رشـيقتين.. ترشف رشفة.. ثم تعيده إلى طبقه.. وكأنها قد ولدت في جروبي.. حيث كانت.. مثالاً للاسترخاء والهدوء.

رشـف أحمـد الـبحر أيضاً من قهوته.. متابعاً لها.. ولحركاتها الأرستقراطية.. أعاد أيضاً الفنجال الصغير إلى طبقه ثم تساءل.

- تفتكري الحرب حاتقوم؟

أجابت بعدم مبالاة:

- مش عارفة.. جائز.

تساءل دون أن يراقب أسئلته الأولى:

- وهو إحنا مستعدين لها؟

أجابت.. أيضاً.. بعدم مبالاه:

- ما عنديش فكرة.

انفجر أحمد البحر ضاحكاً.. مقهقهاً.. وقد علا صوته على صوت المظاهرة التي كانت تخترق شارع عدلي. تساءلت مبتسمة:

- مالك؟ هو أنا قلت حاجة غلط؟

أجاب بعد أن أوقف ضحكه بجهد:

- لا أبداً.. أنا.. أنا إللي قلت حاجة غلط.

مسحت شفتيه القرمزيتين.. بطرف منديلها الصغير وتعجبت.

- يا سلام.. وإيه هي بقى؟

أجاب.. وكأنه يحاسب نفسه:

- أول مـــرة فـــي حياتـــي.. أخـــرج مع بنت.. وأقعد معاها القعدة الجميلة دي.. وبعدين اتكلم في الحرب.

ضـــحكت برقة.. ثم أزاحت نفس الخصلة الجريئة وسألت بصوت دافئ.. ذى معنى:

- أمال عايز نتكلم في إيه؟

قـــال بعـــد أن أنهى صوتها الآثار الباقية من ضحكه.. ناظراً في

عنيـــيها الخضـــرواتين.. أو ربما الذهبيتين.. إنه لم يستطع أن يحدد لونـهما الحقيقي الغامض حتى الآن:

- كلميني عنك.. عايز أعرف كل حاجة عنك.

فهمـــت.. لقد وصلت رسالتها.. أسبلت عينيها.. تساءلت بصوت أنثوي أكثر دفئاً:

- عايز تعرف إيه عني؟

أجاب بشوق:

- كل حاجة.. إنتي مين؟.. منين؟ إزاي ربنا خلقك بالجمال ده؟ إيه إللي عمليته.. في كياني فجأة كده؟ وبعدين؟

ابتســمت مرة أخرى وقالت.. وهي تداعب فنجان الشاي بأطراف أصابعها.. وقد ثبتت عينيها على ذلك الفنجال قائلة:

- إيـــه ده كلـــه؟ إيـــه ده كله؟.. دا انت شاعر بقى.. على العموم (مرسي) خالص على ذوقك.. (أوكي).. اسمع يا سيدي..

اعتدلت في جلستها.. وأقامت ظهرها ثم أردفت:

- أنـــا اسمي إلهام جمال.. وأنا.. معايا دبلوم معلمات.. أنا كمان يا ســـيدي.. مولـــودة فـــي حـــارة فـــي بـــاب البحر.. إسمها درب الراكراكى.. أنا بأحب القراءة موت.. لكن حبي الأول والأخير هو الســـينما.. نفســـي أطلـــع ممـــثلة.. ناس كتير بتقول لي أنا شبه (إليزابيث تيلور).. إيه رأيك أنفع؟

حركـــت وجههـــا جهة اليسار.. لترى جماله لأحمد.. ترمقه في عينـــيه.. العجيب هنا أنه اكتشف أنها فعلاً.. تشبه (إليزابيث تيلور).. استطردت بعد أن عرضت جمالها:

- لكـــن أنـــا مـــا يهمنيش الشكل.. أنا فعلاً حاسة إني فنانة فعلاً.. ممكن أكون ممثلة كبيرة في يوم من الأيام.

اعتدل أحمد أيضاً في كرسيه وعلق قائلاً:

- بس المهم.. ما تعمليش أفلام تافهة.. زي أفلام اليومين دول.

تساءلت بتركيز:

- يعني إيه تافهة؟ مش فاهمة..

أجاب باستغراب.

- إيه ده؟ أنتي مش واخدة بالك إن الأفلام دلوقت ما فيهاش غير.. الـــرقص.. والدلـــع.. والإثـــارة.. ومـــا بتتكلمش أبداً عن قضايا مهمة.. أفلام يعني كده.. ما فيهاش مضمون.

قالت بثقة:

- لا يا سيدي.. ما تخافش.. أنا حاعمل أفلام عالمية.. هو أنا مش زي إليزابيث تيلور ولا إيه؟

لا يدري لماذا؟.. ولكنه قاطعها قائلاً:

- إيه رأيك؟ نروح السينما؟

صمتت.. ولم تجب.. ولكنها رمقته في ترقب.. استطرد قائلا:

- سـينما أوديـون فيها.. فيلم روسي.. حلو.. فيلم هاملت.. قصة وليم شكسبير.. عارفاها؟

ضحكت وعلقت كالغاضبة:

- طبعا عارفة هاملت.. انت فاكرني جاهلة بقى.

أحمر وجهه خجلاً:

- أسف.. مش قصدي.

نهضا.. خرجا من جروبي.. اتجها إلى ميدان سليمان باشا.

بـلا مقدمـات.. بلا ترتيب.. بلا تفكير.. بلا خوف.. أمسك أحمد السـبحر يدها الرقيقة.. الناعمة.. مغلغلاً أصابعه بين أصابعها الرفيعة الدافـئة.. لـم تمانع.. لم تسحب يدها.. تركت يده تعتصر يدها.. كما يشـاء.. مـرة أخـرى.. عاد قلبه ليصرخ صراخاً مدوياً.. تخيل أن عمـارات شـارع عـبد الخالق الفخمة.. قد إهتزت له.. لم ينبث أي مـنهما بكلمـة.. تـركا الحديث.. ليديهما المتعانقتين كان حديثاً.. ذا لغـة.. يفهمهـا.. كـل جـزء فـي جسديهما.. الشابين ويستجيب.. ويتجاوب مع كل همسة.. وكل معنى.

لـم يدخـلا سـينما أوديون.. أو فيلم هاملت.. بل شاهدوا الفيلم الجديـد (ملـيون سـنة قـبل الميلاد) لممثلة الإغراء الجميلة (راكيل وولش).

علـــى مدى الأيام الثقيلة القادمة.. حاول المستحيل ليخرج معها مـــرة أخــرى.. ويعيد ذلك اليوم الجميل.. ولكن هيهات كانت تتحاشاه تمامـــا.. تتهرب من طلبه بشتى الطرق.. وكأن لسان حالها.. يقول.. يكفـــيك هـــذا القدر.. بابتسامة عابرة.. أو إيماءة عابثة ذات معنى.. ولكن.. خروج آخر معها.. كلا.. لا يمكن.. تكفيه تلك الجرعة.

أصر وليم.. وبحماس شديد.. على أهمية الوحدة العربية.. بينما عارضه حسن قائلا:

- يـــا عم سيبك.. بلاش كلام الإنشا ده.. مصر ممكن لوحدها تهزم إســـرائيل.. إحنا مش محتاجين العرب في حاجة.. دول يا بني لو اتحكموا في حد.. يا ويله وسواد ليله.

قال وليم غاضباً:

- بس ده.. حلم عبد الناصر.. ولازم يحققه.

استمر حسن في معارضته:

- دول يا أسطى وليم.. عمرهم ما اتفقوا على حاجة ولسانهم بس طــول كـــده على مصر.. اشمعنى مصر.. وليه الحقد إللي مالي قلوبهم ده.. ياللا.. إيش قولة المثل "العرب جرب".

كـــان صـــوت حسن قد ارتفع قليلاً عن الهمس.. أشار إليه وليم واضـــعاً إصبعه على فمه.. وهو يتلفت حوله.. خوفاً من أن يسمعهما أحد.. كما يقولون:

- أي واحد من إخوانا البعدا.

عاد إلى حسن.. معاتباً:

- وبعديـــن يـــا أسطى حسن.. الحيطان لها ودان.. على العموم..

صـــدقني إحـــنا مـــش حنحارب إسرائيل بس.. دي يا عم وراها أمـــريكا.. وغصـــب عـــن عيـــن أمريكا.. لازم تساعد إسرائيل.. إســـرائيل على فكرة مش هي إللي عميلة أمريكا.. لا يا سيدي.. أمـــريكا هـــي إللـــي صنيعة الصهيونية.. بيتحكم في سياستها.. اللوبـــي الصهيوني مقدراتها كلها واقتصادها بالكامل حتى قيادتها تحت رحمته.

قال سعيد باشا متحدياً:

- إيه يعني؟.. طز.

صحح وليم مفهوم سعيد باشا قائلاً:

- لا يـــا سيدي.. مش طز.. لو ما اتحدشي العرب.. وصاروا قوة اقتصادية وعسكرية.. وسياسية عمر ما يكون لهم قيمة.

أراد بنهاوي أن يغير مجرى الحديث الذي علت وتيرته متسائلاً:

- أمال فين الأستاذ أحمد؟ هو ما جاش النهاردة ليه؟

أجاب وليم:

- آه صحيح.. هو ليه ماجاش لحد دلوقت؟

أجاب بنهاوي:

- يظهر فيه حاجة شاغلاه.. والله أعلم.. شكله كده مش مضبوط.. اليومين دول.

ثم ما لبث أن ضحك ثم أكمل:

- يظهر يا سيدي أنه.. بيحب جديد.

ثـم جـذب الطاولة الحديدية المستديرة الصغيرة بين ساقيه وبدأ ينقر عليها بأصابعه.. كعادته مرددا:

- بيحب جديد.. آه.. بيحب جديد.

ثم صمت قليلاً.. وسرح بنظره في السقف.. وتنهد قائلاً:

- صحيح يا أولاد.. الحب بهدلة.

مـا لبث أحمد البحر.. أن ظهر على باب المقهى. وقد بدت عليه فعلاً علامات البهدلة.. جلس صامتاً.. بعد أن ألقى السلام.. بدت عليه الـنحافة الشديدة.. والتوتر.. وظهرت هالتان سوداوان حول عينيه.. وزاغت نظراته.. دليلا على قلة النوم.. أو الراحة.. أهمل أحمد البحر مظهره.. إنها فعلاً.. علامات الحب.. الذي هو.. بهدلة.

قطع سعيد باشا الصمت قائلاً:

- كنت فين يا راجل؟.. بقالنا كام يوم محرومين من أنسك.

أجاب أحمد بصوت خفيض.. تائه:

- أبداً.. كنت متضايق شويه.

عقب وليم مبتسماً بود:

- طيـب يـا أخـي.. كنـت تعالى.. إحنا نقدر نفرفشك.. وننسيك همومك الناس لبعضها برضه.

تــنهد أحمــد بحــزن.. ناظرا خارج المقهى إلى لا شيء.. وقد اغرورقــت عيــناه.. فقد أصبح "مفرط الحساسية".. جياش المشاعر أكثر من ذي قبل.

الأســتاذ بــنهاوي.. هــو الوحيد.. الذي يعرف سر أحمد البحر الخفــي فــأزاح الطاولة المعدنية من بين ساقيه.. كان يعرف أن أحمد الــبحر لابد وأن يشغل وقته.. لابد له من عمل إضافي يشغله.. ويزيد دخله.. وينسيه.. بادره قائلا:

- علــى فكرة يا أستاذ أحمد.. النهاردة جت وليَة أمر التلميذة هدى بــتاعة ســنة ثالــثة.. عايــزاك يــا ســيدي تدى ولادها درس خصوصي.

نظر إليه أحمد البحر.. وكأنه لم يفهم شيئاً.. فاسترسل قائلاً:

- هــدى محمد يا أخي.. البنت السمينة اللي بتقعد جنب الشباك في فصــل ثالثة ثان.. ما أنت بتدرسلها حساب.. هي بقى وأخواتها.. عــبد الرحمــن في ثانية أول وعبد الرزاق في أولى ثالث العيال السمان دول.

تساءل أحمد البحر.. بعد أن استطاع بنهاوي جذب انتباهه:

- واللــي فــي أولــى وثانية ابتدائي عيازين درس ليه؟ هما لسه درسوا حاجة ياخدوا عليها درس؟!

أجاب بنهاوي وهو يشعر بالسعادة لاستطاعته إخراج صديقه من

كآبته.

- يا سيدي.. رزق وجالك.. ما ترفضوش.

ثم ابتسم وأردف قائلاً:

- هـاتديك علـى الراس ثلاثة جنيه في الشهر.. أبسط يا عم خير وجالك من السما.. على الله بقى تطول رقبتنا.

لـم يكـن أحمد البحر في حالة تسمح له باتخاذ أي قرار.. لذلك قرر بنهاوي عنه بالموافقة.

دخـل (الشيخ سعدية) في صمت على غير عادته.. ووضع أمام الأسطى حسن.. كومة من الفول السوداني.. سأله بنهاوي بتهكم:

- مالك يا شيخ سعدية؟.. لا أسكت الله لك حساً.

أجاب الشيخ سعدية.. وهو يبتعد:

- ربنا على المفتري.

في تلك اللحظة.. انقض على الشيخ سعدية.. اثنان من المخبرين السـريين.. الذيـن كـانوا معروفيـن ببلاطيهم الصفراء.. والطاقية الصـوف.. والخـيرزانة الطويلة.. لم يكونوا يوماً ما سريين.. انقضا علـى الرجل.. ضرباً وركلاً.. ما لبث أن تبعهم.. ضابط الشرطة عادل زيـدان.. أشهر ضابط مباحث بالقسم.. يتبعه شرطيان صائحاً بلهجته الآمرة:

- هاتوه.. هاتوه هنا.. ياللا.. فتشوه الحيوان ده.

أحكم الشرطيان قبضتهما على الشيخ سعدية.. وفتشه المخبران.

أخـــرج أحدهما.. من كيس السوداني.. الكبير.. قطعة ضخمة من الحشيش قائلا:

- آهه.. يا فندم.. لقيت معاه دي.. حشيش يا فندم.. حشيش.

في تلك اللحظة قفز سعيد باشا من مقعده.. مسرعاً إليهم:

- لا يـــا حضرة الضابط.. دا مش مضبوط.. أنا شايف المخبر وهو بيطلعها من جيب البالطو ويحطها في كيس السوداني.. أنا شفته بعنيا دون.. إلي حايكلهم الدود.

صاح الضابط عادل زيدان.. بغيظ.. في وجه سعيد باشا قائلاً:

- وانت مال أهلك انت يا حيوان؟

مـــا لبـــث أن عالجه بصفعة قوية.. وضع سعيد باشا على أثرها يـــده علـــى خده الأيسر.. ووقف مشدوهاً.. لم يكن يتوقع أن يصفع.. أبداً يوماً ما.

أراد حســـن النهوض.. دفاعاً عنه.. أقعده كل من بنهاوي ووليم بقوة.. تصل إلى حالة تقييده.. بذراعيهما إلى المقعد.

ســـحب رجـــال الشرطة (الشيخ سعدية) مشبعينه.. ركلاً وضرباً ولكمـــاً.. وتمـــزق كـــيس السوداني.. وتبعثر.. محطماً.. تحت الأقدام سحبوه إلى سيارة الشرطة.. التي ما لبثت أن انطلقت.

دخـــل فـــي تلـــك الأثناء.. بعد انطلاق عربة الشرطة.. سليمان

الــبكري.. وهو يرتدي بذلة كاملة.. وجلس في صدر المقهى وصفق صائحا:

- واحد قهوة مضبوط.. يا بهايم.

تــرك كشــري المكنسة التي كان يجمع بها السوداني المحطم.. علــى الأرض كمــا هــي.. وهــرول لتلبــية طلــب.. عضو الاتحاد الاشتراكي.

قطــع بنهاوي الصمت الناتج عن هذا الموقف الغريب.. بأن سأل أحمد البحر.. مغيراً هذا الجو المتوتر المشحون.. ومحولاً الانتباه:

- هيه.. ما قلتلناش ياسي أحمد.. كنت بتروح فين اليومين دول؟

أجاب أحمد البحر.. بعد أن رجع هو الآخر إلى الجماعة:

- كنت باقعد على الكورنيش لغاية ما أتعب.. وبعدين أروح أنام.

كــان إحســاس بنهاوي بما يختلج في صدر أحمد.. وكذلك علمه أنه يمر بضائقة مالية.. فلم يصرف له راتبه حتى الآن.. جعله يبادره قائلاً:

- أنــا نسيت أقول لك.. إن أم هنادي سابت لك معايا ثلاث جنيهات عــربون.. يعنــي.. ربط كلام.. أصل العيال آل إيه.. بيحبوك يا سيدي.

لــم يصــدق أحمد البحر عينيه.. وهو يقلب الثلاثة جنيهات بين يديه ويحصيها.. فقد جاءت في موعدها تماماً.. ولأن أحمد البحر كان

إنسانا عنيداً.. وراثة عن أبيه.. فإنه لم يفكر.. حتى مرة واحدة.. في الاتصـــال بأبـــيه.. للاستعانة به.. تحامل.. اقتصد.. كان على استعداد للاقـــتراض من أي شخص.. في حالة موافقة إلهام على الخروج معه مـــرة أخرى.. ولكن أن يسأل أباه.. فلا يمكن؟.. رغم أن آخر خمسة وعشـــرون قرشـــاً كانت تلك التي دفع منها تاكسي العودة من السينما مع إلهام.. وما لبث الباقي أن تاه في سندوتشات الفول والطعمية.

لم يكن في مقدوره تلك الأيام المبيت في اللوكاندات.. كان يقضي يومـــه.. بعـــد المدرســـة ســـائراً.. متسكعاً.. في وسط البلد.. فإذا ما أغلقـــت المحـــلات كـــان يواصـــل الســـير إلى محطة.. الجيزة للسكة الحديديـــة.. هـــناك بيـــن الـــناس.. وعلى المقاعد الحجرية.. يجلس ليســـتريح.. فـــي هذا الظلام وكأن هذا الظلام.. ينبع من داخله هو.. ليغمر الأشياء بلونه الكئيب.

ســـاعة يقضـــيها هناك أو ساعتان.. ثم يعود أدراجه إلى ميدان العتـــبة هناك.. على المقعد الحجري أيضاً.. في محطة الترام الخالية.. إلا مـــن بعض الصبية من أبناء الطريق يفترشون الأرض.. تحت تلك المقاعد.. هرباً من عسكري الدرك.. الذي يطاردهم طوال الليل.

هناك يجلس.. أمام مبنى المطافئ.. متأملاً مبانية القديمة.. حيث كـــان يناجيها محبة.. وتناجيه.. بزخارفها ورسوماتها.. وأفاريزها.. الرصينة.. لم يكن يغادر المكان.. إلا حينما يؤذن الفجر.. حيث يرحل عـــائداً.. إلـــى هـــناك بـــاب البحر.. في حوض.. شرب التلاميذ.. ذو

الحنفـيات السـت.. كـان يغسل وجهه.. ويمسح على شعره مساوياً إيـاه.. بمشـط صغير.. يضعه دائماً في جيب بنطاله الخلفي.. ثم يبدأ يومه.

تغير.. مظهر أحمد في تلك الأيام القليلة.. اتسخت ملابسه طالت لحيته.. ظهر على وجهه وحول عينيه كم الإجهاد الذي يعانيه ولكنه.. رغـم شـدة الجوع القاسي.. ظل قائماً وكأنه يتلذذ بذلك العذاب.. لم يستسـلم.. لـم ينهر.. لم يسقط.. وكأنه يعاقب جسده.. لهذا الضعف أمام.. حبه الجارف المميت لإلهام.

نهـض سعيد باشا فجأة.. وهو تائه شارد الذهن.. ومازال يضع كفـه علـى خـده.. وكأنه.. يداري إهانته عن الجميع.. سار كالمنوم خارجـاً.. دون أن يـنطق بكلمة.. لم يعد بعد ذلك إلى المقهى لم يره أحـد.. منذ ذلك اليوم.. حتى شقته في كلوت بك.. لم يدخلها قيل أنه سافر.. قيل أنه انتحر.. قيل أنه اختفى بين طيات البشر بعيداً.. يحمل معه إهانته.. وذله.

أيـام من التردد.. إلى أن اقترب أحمد البحر من الأستاذ بنهاوي لمفاتحته في الأمر قائلاً:

- لو سمحت يا أستاذ بنهاوي.. ممكن أطلب منك خدمة.

اعـتدل بـنهاوي في جلسته.. وأبعد الطاولة الصغيرة.. وأجاب مبتسماً وكأنه يعرف ما يريد أحمد البحر أن يقول:

- طبعاً.. طبعاً.. انت تؤمر.

تردد أحمد البحر قليلا.. ثم قال متلعثما:

- أنـــا.. أنا عاوزك.. يعني لو ما فيهاش إحراج لك.. يعني عاوزك تكلم أبلة إلهام.. أنا عاوز.. يعني.. عاوز أخطبها..

ربت بنهاوي على كتفه بجدية شديدة ثم سأله:

- أنت عاوز رأيي؟

أجاب أحمد:

- طبعاً.. انت صاحبي.. وزميلي.

قال بنهاوي بعد أن أعاد الطاولة الصغيرة بين ركبتيه.

- بلاش.

وصل أحمد بشدة متسائلاً:

- بلاش إيه؟

أجاب بنهاوي.. وهو يحاول إخفاء وجهه في زحام الشارع.

- بلاش إلهام.

وجـــم أحمـــد.. صـــمت.. وأطـــرق وكأنه أسقط في يده.. أحس بنهاوي بقسوته على الشاب العاشق فقال:

- ولا أقول لك.. كلم أبلة أزهار الناظرة.. دي ست طيبة.. وبتحب كـــل الناس.. وتحب تخدم.. هي لها تأثير كبير عليها.. أما أنا.. مافيش بيني وبين إلهام عمار.

عاد الأمل لأحمد فبادره قائلا بلهفة:

- طيب كلم لي انت أبلة أزهار.. أرجوك.

ابتسم بنهاوي.. ورق قلبه لهذا المسكين.. الموله:

- على العموم.. قوم انت روَح واستريح.. والصبح ربنا يعمل إللي فيه الخير.. وأرجوك علشان خاطري.. إحلق دقنك.. ووضب نفسك كده.. وما تشغلشي بالك.. تبات نار.. تصبح رماد.

تهلل وجه أحمد المرهق. قائلاً:

- ربنا يخليك ليا.. يا أستاذ بنهاوي.

ربت بنهاوي مرة أخرى على كتفه قائلاً:

- ياللا يا شيخ.. بلاش لكاعة.. وما تنساش موضوع أم هنادي.

تساءل أحمد:

- إيه موضوع أم هنادي ده؟

ضحك بنهاوي بملء شدقيه قائلاً:

- إيه ده.. انت نسيت أم هنادي وعيالها.. يا شيخ.. دي فلوسها.. لسه في جيبك.. أم هنادي يا راجل.. أم البنت هدى محمد.

قال أحمد وكأنه تذكر للتو:

- آه صحيح.. وهو عنوانها إيه دي؟ أصل ميعادهم يوم التلات الجاي.

أجاب بنهاوي:

هـــي ســـاكنة هنا في باب البحر.. بعد مدرسة أم المؤمنين على الشمال العمارة الجديدة العالية.. انت بس إسأل فين بيت الحاج محمد الصعيدي.. ألف مين يدلك.

قال أحمد البحر.. وكأنه تذكر شيئاً مهماً.

على فكرة يا أستاذ بنهاوي.. أنا سبت السكن عند أم العربي.

أجاب بنهاوي في هدوء:

- عارف.

تساءل أحمد البحر:

- طيب.. وحاجتي؟

أجاب بنهاوي في نفس الهدوء:

- ما تخافش.. حانجيبها.

مازالـــت.. أغنيات عبد الحليم حافظ.. وعبد الوهاب.. وأم كلثوم وغـــيرهم الوطنـــية.. تخـــترق آذان الجماهير.. بإصرار متسللة إلى قلوبهـــم الطيـــبة.. تجذبهـــم جذباً للانفعال بها ومعها.. بعشق الثورة والوطـــن.. وعبد الناصر.. معبود والجماهير كانت أغنية عبد الوهاب تشدو.

"يا جمال يا حبيب الملايين.. يا جمال"

"يا حبيب الملايين"

كـــان للأغنـــية.. وقع راقص جميل.. في قلب أحمد البحر.. الذي جلـــس راضـــياً منذ أيام.. بعد أن عاد إليه.. بعض من روحه.. جلس مستمتعاً بنغماتها.. وإيقاعها الجميل.. النافذ إلى القلب مباشرة.

لـــم يشأ بنهاوي.. إزعاجه الآن بطريقته العبقرية في قلب كلمات الأغانـــي والوطنـــية بالذات إلى كلمات ساخرة.. بل تركه لاستمتاعه.. واستغراقه.. الراقص.

كشـــري.. صـــبي المقهـــى.. هو الذي أخرجه.. من ذلك اللحن الجميل حينما اقترب منه.. هامساً في أذنه:

- فيه ناس عايزينك بره.. يا أستاذ.

بذلـــك أخرجه كشري من بحر الألحان الجميلة الخبيثة.. المتسللة

فـــي جمــــال.. لتغرق قلوب الملايين مثله في عشق الأسطورة.. حينما أفاق أحمد البحر سأل كشري:

- بره فين يا كشري؟

أجابه الصبي.. وهو يحمل صينية عليها أكواب الشاي الفارغة:

- عند الجامع يا أستاذ.

سأل أحمد البحر مستفسراً:

- مين يعني إللي عايزني.

أجاب الشاب.. مبتسماً:

- ما اعرفش بقى روح وانت تعرف.

سأل أحمد البحر ثانية:

- طيب عند الجامع.. فين يعني؟

أجاب كشري مبتسماً:

- يوه بقى يا أستاذ أحمد.. قلتلك روَح وانت تعرف.

كانـــت ســـناء.. تقف أمام شباك النذور.. وقد تعلقت بكلتا يديها الصـــغيرتين.. بـــالحديد القديم.. وأراحت رأسها عليه.. تراقب ضوء الشـــموع المتلالئ.. وكأنها تناجي صاحب المقام.. أقبل إليها.. مقطب الجبين.. قائلاً.. بغضب:

- نعم؟

التفتت إليه.. وقد أغرقت دموعها الغزيرة كل من خداها.. وأنفها.. وشفتيها أخرجت منديلاً صغيراً مطرزاً من (بك) نقودها مسحت به دموعها.. وتمخطت ثم قالت.. بتوسل حائر.. من بين دموعها التي مازالت تغرق رموشها الطويلة.

- نفسي أعرف بس.. انت ليه سيبتنا؟ ليه؟ إحنا عملنا إيه زعلك؟

لم يجبها.. بل تركها متجهاً إلى ناحية كلوت بك.. تبعته متوسلة:

- أستاذ أحمد.

أجاب بدون أن يلتفت إليها:

- أنا مش فاضي.. للكلام ده.. لو سمحتي.

أصرت أن تتبعه مسرعة.. وهي تتعثر.. حتى لحقته.

- أرجوك مش حآخد من وقتك خمس دقائق.. أرجوك اسمعني أنا حتجنن.. ماتسيبنيش في حيرة كدة.

توقف فجأة.. ثم واجهها قائلاً بحدة:

- أيوه.. نعم.. عايزه إيه؟

أجابت في وجل:

- أفهم بس.. ليه سيبتني؟ أقصد ليه سبت البيت.

أجاب وبنفس الحدة:

- ظروف.. فيه حاجة ثانية؟

قالت متوسلة.. وقد عادت الدموع تغزو عينيها:

- يعنـــي إيـــه ظــروف بـــس؟.. أنا.. أنا مستعدة أقيدلك صوابعي العشـــرة.. بس أرجوك.. خليك معانا.. ما تسيبنيش بس قوللي.. مين إللي زعلك بس؟ نفسي أفهم.

أجابها بتأفف.. وعدم صبر:

- يــوه.. يـــا ستي ما فيش حد زعلني.. أنا حر.. أرجوكي سيبيني بقى.. وروحي لحالك.

لــم يـــنظر أحمـــد البحر في تلك الأثناء إلى وجه سناء.. بل كان يشـــيح وجهـــه دائمـــاً.. فإن عينيه في تلك الأثناء.. لم تكن ترى إلا صـــورة أمها.. بقميص نومها العاري.. ولحمها المترهل.. وهي تكاد تعتصـــره.. للأســـف لم يكن يرى سناء بالمرة.. لم يكن يرى دموعها الصادقة.. لم يكن يرى عذابها.. فقط لحم أم العربي المقزز.

أيضـــاً.. لـــم يكن يدري أنه في هذه الدقائق المعدودة قد مارس أشـــد أنـــواع القسوة.. لم يكن يدري أنه.. ربما يكون قد سحق قلبها الصـــغير.. سحقاً.. أيضاً بدون أن يدري.. فقد كان في عالم آخر.. لو أنـــه قـــد نظر في عينيها.. لحظة واحدة فقط.. ولكنه لم يفعل.. تجنب ذلـــك.. لقـــد كـــان فـــي عالم غير عالمها.. عالم أغلق عليه عينيه.. وعقله.. وقلبه.

كـــان كـــل شـــيء غير طبيعي.. في تلك الأيام.. كل شيء..تماماً مثلما كان البنهاوي يحلو له أن يقول:

- العالم ماله الأيام دي بقى مكهرب كده؟ ضروري فيه حاجة غلط إيه إللي جرى لباب البحر؟.. فيه إيه؟

ثم يصمت قليلاً.. ويتابع حزيناً:

- يا ترى الأيام السودة دي.. مخبية لك إيه يا حي الغلابة.

أحب البنهاوي هذا الحي عن صدق.. ذلك الشارع ذو النكهة الغريبة.. له إحساس مختلف عن أي مكان آخر.. إنه يبدو كبيت واحد كبير دافئ.. بمن فيه.. المغلق إلى حد كبير على أبنائه.. بروحهم ورائحتهم.

من عجائب المكان.. أن يقع بين شارع كلوت بك.. بلوكانداته وضيوفها الغرباء.. الآتين.. من كل حدب وصوب.. بدعارته الليلية الرخيصة.. العابرة.. لعماله البسطاء.. الباحثين عن الثراء.. في القاهرة (مصر المحروسة) كما يسمونها.. لضيوفه الأغراب.. المسافرين حتماً وبين شارع الفجالة.. بمكتباته الكثيرة.. العامرة بكتبها.. من كل نوع وكل علم.. هذا الشارع باهتماماته العلمية.. الدراسية.. المستقبلية.

هذا التباين العجيب بين الشارعين الكبيرين.. جعل باب البحر.. مكاناً متفرداً.. ذا خصوصية شديدة.. غير منتمٍ إلى أي الشارعين الكبيرين.. كلوت بك أو الفجالة.

هذا الشارع البيت.. قليلاً ما كان يستقبل الغرباء.. فليس هناك غريب.. فلهذا الشارع خاصية انتقائية.. إما أن يحتضن الغريب..

فيصير من أهله.. وإما أن يلفظه.. لاختلافه عن روح باب البحر.

فكـل مـن في هذا الحي يعرف الآخر.. يعرف أسراره.. آلامه.. آمالـه.. يعرف مشاكله.. يعرف تاريخه.. دائماً.. ليس هناك غريب.. فمن بقي منهم أصبح واحداً من العائلة.. شيء ما يربطه بهم.. شيء مـا لا يدري كنهه يشدة إليهم.. شيء وكأنه داء ما.. داء جميل.. قد سرى في دمه..

انـتمى البـنهاوي لهـذا الشـارع منذ زمن.. إذن فهذا الشارع البيـت.. بحاراته المتعددة.. المتعرجة.. عائلة واحدة لها مقوماتها.. وخصوصيتها.. ودفؤها..

أصـبح أحمد البحر.. هذه الأيام.. واحداً منهم.. فرداً حبيباً محبباً بيـنهم.. مـا إن يتواجد في الشارع.. إلا وألقى معظم من في محلاته وبـيوته السـلام.. بـل ربما كلهم.. الكل هنا يحب إفشاء السلام عم محمـود مكوجـي الرجل العجوز.. بائع الخبز على التريسيكل "صباح الخـير يـا أستاذ أحمد" سليم أبو شنب الطرشجي "ميت فل على البيه" ماسح الأحذية شديد النحافة حسانين" تمسح يا بيه.. عليا المرة دي.. خـيرك سـابق يـا بيه" أبو شلبي بائع الفسيخ والسردين المشهور.. الشـيخ مرسي.. خادم مسجد سيدي محمد البحر الكفيف.. حتى بائعة الفجـل والجرجـير وبـائع السوبيا.. وبائعة الشعرية البلدي الغليظة والكشك الصعيدي الجالسة على الرصيف أمام السرجة.

الـدوم وحب العزيز على عربته الخشبية.. ذلك الرجل السوداني

ذو الضـحكة البريـئة.. صـاحب محل السجاد البلدي.. الذي يشتري الملابـس القديمـة ويمـزقها شـرائط يلفها على شكل كرات كبيرة.. يسـتخدمها فـي صـناعة السـجاد الـبلدي بألوانه الجميلة.. المنجد الأفرنجـي.. صانعة المقشات بنوعيها.. ليف النخل.. وسباطات البلح للأتـربة.. صـاحب محل القباقيب.. بائع عصير القصب.. بائعة لحمة الراس والكوارع وغيرهم.. كلهم يعرفون أحمد البحر.. يحبونه.

لم يعكر صفو هذا الشارع المترقب.. إلا تلك الحادثة المشئومة.. حيـنما تعثرت قدم الشيخ مرسي خادم المسجد الضرير.. بشيء ما.. تحسـس الـرجل فـإذا بـه حسد رجل مسجي.. إنها.. جثة.. قتيل.. صرخ:

– يا ساتر يا رب.. قتيل.. الحقوني يا ناس.. قتيل.

كـان الشيخ الضرير عائداً إلى المسجد قبل صلاة الفجر.. حينما تعـثر فـي جثة ضابط المباحث.. عادل زيدان.. مذبوحاً.. وملقى في عـرض الطـريق.. أمـام المقهى المغلق.. وقد تجمعت حوله بعض الكلاب الضالة تلعق الدماء عن رقبته المذبوحة وتحاول نهشه.

لم يكن العنف من سمات أهل هذا الحي بالمرة.. حقيقة أن عادل زيـدان كـان أشـرس ضـباط القسم.. حيث كان يتفنن في استحداث وسـائل اسـتجواب وتعذيـب لا تخطر ببال أحد.. كان الجميع يخافه ويهابـه.. حـتى بعـد أن قام أحد أبناء أسرة الباشا الشهيرة بضربه وسـط الشارع ضرباً مبرحاً.. ثم هرب بعدها إلى اليوم.. ولكن زادته

هـذه الحادثـة قسوة عن ذي قبل.. كان احتقارهم له يفوق خوفهم.. حيـنما ذبح عادل زيدان قامت الدنيا ولم تقعد.. فليس من السهل قتل أحد رجال الشرطة.. استمرت التحقيقات القاسية أياماً وأياماً رغم علم النـيابة أنه لم يذبح في هذا الشارع وإنما نقل إلى هنا بعد وفاته حيث لا يوجـد دم مسـال أو مختر على الأرض.. أخيراً قيدت الحادثة ضد مجهول.

شـخص واحـد فقط سعد.. بمقتله سعادة لا توصف.. إنها إلهام جمال المدرسة بمدرسة باب البحر.. ظلت تبكي من فرط السعادة أياماً وأياماً.. فقد انتقم القدر لها.. بعد أن يأست أن تستعيد حقها وكرامتها منه.

لم يستطع أهل باب البحر أن ينسوا ذلك اليوم.. حيث تعثرت قدم الشيخ مرسي الضرير بجثة ضابط المباحث الجبار.. مذبوحة.

- ســـعيد باشـــا رجع يا جماعة.. سعيد باشا رجع.. والله العظيم.. مش حاتصدقوا.. عامل في نفسه إيه.

هكــذا.. دخل كشري المقهى مهرولاً.. مساء أحد الأيام.. حتماً لم يصــدق أحــد عينـــيه.. كاد بعضهم أن يطلق ضحكة ما.. لولا ملامح الجدية التي ظهرت على سعيد باشا.

دخـــل الـــرجل المقهى.. وكأنه شخص آخر.. دخل مرتدياً جلباباً صـــعيدياً.. نظيفاً.. مكوياً.. فوق صديري صعيدي أيضاً.. مقلماً ويلف رأســـه بعمامـــة كبـــيرة.. بيضاء فوق طاقية صوف.. وقد أسدل أحد طرفـــي العمامـــة علـــى كـــتفه.. الآن صـــارت شواربه كثة قد أرخى طرفـــيهما على جانبي فمه.. كان صعيدياً بمعنى الكلمة بادره بنهاوي مداعباً.

- إيـــه ده يـــا عم سعيد.. نقولك بقى سعيد باشا.. ولا المعلم سعيد فهمنا.. إيه الحكاية؟

لـــم يجلـــس سعيد باشا.. لكنه قال بصوت عميق.. رزين غلبت عليه اللكنة الصعيدية تماماً.

- بـــأجولك إيه يا بنهاوي أفندي.. أنا باشا ابن باشا.. بس برده أنا صـــعيدي.. خابر يعني إيه صعيدي.. يعني راجل ابن راجل.. دمي حامي.. فاهم ولا لأ؟

اقشـــعر بـــدن بـــنهاوي.. من طريقة الرجل العميقة القوية.. فلم يعلق أردف سعيد باشا قائلاً.. والجميع يراقبه في صمت:

- علـــى العمـــوم.. أنـــا جـــاي أجول لكم أشوف وشكم بخير.. أنا مسافر.. أنا ما ليش غير بلادي.. وأهلي وناسي..

علق حسن الأعرج في ضيق:

- هو إحنا مش ناسك برضه؟

أجابه الرجل:

- صَـــح.. إنـــتم كنتم زي أهلي تمام.. لكن أنا خلاص.. ما عدليش عيش معاكم.

قال وليم في تعجب:

- لـــيه بـــس يـــا عم سعيد.. حد داسلك على طرف.. صدقني كلنا بنحبك.

استطرد سعيد باشا مكملاً وموضحاً:

وأنـــا كمـــان حبيـــتكم.. بـــس أنـــا خلاص.. فُجت.. وهب سعيد الصـــعيدي من جواي كما الديب.. صحاني.. فوَّجني.. انتم بلدكم دي.. إمـــا ديابـــه وإما خرفان هي دي إللي عايشه بناتكم النفر الصح لازم يكـــون نابـــه حامـــي.. وكفه عالي.. وأنا خلاص.. بقى كفي عالي.. وراســـي عاليه.. لكن بردك أنا كرهت البلد دي خلاص.. كرهت الظلم إللـــي فيها.. وكرهتكم.. أيوه.. كرهتكم.. لأنكم ساكتين.. عاملين زي

الغـنم.. محتاجيـن إللي يسوقكم.. وانتم زي الغنم الأخرس.. لكن أنا عمـري ما كنت خروف.. وعمري ما حأكون خروف.. في سوق الغنم ده.. أيـوه.. كلكم غنم.. محتاجين إللي يرعاكم وانتم جاعدين تحشوا فـي بطونكـم.. ولا لكـم رأي.. ولا لكم صوت.. لو هب فيكم كلب.. تجروا.. تستخبوا في بعض.

قال حسن الأعرج:

– لزومه إيه بس الكلام ده.. دلوقت؟

أجاب الرجل:

– إللي مش مصدقني.. يفز يقوم يروَّح على بلده.. يلاقي إنه نسى من زمان.. إنه كان.. راجل من ظهر راجل.. لكنه للأسف نسي.. الخرزانه نسته.. والضرب على القفا نساه.. والخوف إللي عايش فيه.. نساه.. هو مين.. ابن مين.. أهله مين.

علـى العمـوم.. أنا جيت دلوقت علشان أقول لكم إن سعيد باشا خـلاص.. مسح عاره من على خَدُّه.. ورفع راسه لفوق.. لفوق قوي.. أعلى من أعلى سلطة.. ولا حكومة.. فاهمين.. أنا خلاص مسـحت عـاري.. ورميـت لكم فروة الخروف بتاعتكم ورجعت راجل من ظهر راجل.. سلام.

ثم خرج فجأ.. كما دخل.

سـاد صـمت بارد.. في أوصال الجالسين.. قطعه بنهاوي بشكل

محزن.. باسم بألم قائلاً.. بصوت خافت:

- ماء.. ماء.

وضـــع كل من الجالسين وجهه بالأرض.. في صمت مخجل قطعه هذه المرة حسن الأعرج قائلاً:

- والله عـــندك حـــق يا أستاذ بنهاوي.. الناس جرى لها حاجة في مخها.. فيه حاجة غريبة الأيام دي.

أضاف وليم مؤمناً:

- على رأيك.. الحتة بقت مكهربة.. والناس بقت شايطة.

ضـــحك بنهاوي.. وجذب الطاولة المعدنية واضعاً لها بين ركبتيه وكأنه يختبئ بها وجعل ينقر عليها.. ويغني

- الدم فار يا ولاد.. طفح العار يا ولاد

وصاحب الدار يا ولاد.. مش شايف النار يا ولاد

آه يا ناري.. آه يا ولاد

لم يفهم أحد.. ماذا كان يقصد بأغنيته هذه

مـــرت أيـــام.. وصورة سعيد باشا.. مازالت تقرع عقول الجميع إلـــى أن دخل سليمان البكري أحد الأيام إلى المقهى مهرولا.. مكفهر الوجه.. يمسح العرق المتصبب من جسده بمنديل محلاوي كبير.

للمـــرة الأولـــى.. اتجـــه إلى جماعة بنهاوي.. ظل واقفاً ثم سأل

بوجل:

- ما حدش فيكم شاف سعيد باشا الصعيدي.. النهاردة؟

ثم ظل يتلفت باحثاً عنه في جنبات المقهى.. قال بنهاوي بأدب:

- اتفضل اقعد يا أستاذ سليمان.

أجاب سليمان متأففاً:

- يا سيدي مش عايز أقعد.. حد يقوللي بس هو فين؟

أجاب حسن الأعرج:

- والله يـا سـليمان.. هـو بقاله كام يوم ما ظهرش.. يظهر إنه سافر.. فين؟ الله أعلم.. ما تتفضل تقعد.

قـال حسـن الجملـة الأخيرة.. وهو يشعر بشماته كبيرة.. وهو يـرى سليمان البكري..عضو الاتحاد الاشتراكي.. مرتعباً بهذا الشكل، صرخ سليمان البكر بغضب:

- إنـت إيـه يا أخي.. ما بتفهمش.. مش عايز أقعد.. الله ثم عاد ليهذب لفته.. حيث شعر أنه ليس وقت العنجهية.

أنـا آسـف يا جماعة.. مش قصدي.. مش قصدي والله.. على العمـوم.. قولـوا له إن سليمان البكري عايزك ضروري.. وأنه زعل جـداً.. لمـا عرف إن عادل زيدان.. الله يرحمه.. مد إيده عليه.. بس هـو يجي يقابلني.. وأنا وحياة شرفي.. لآخد له حقه.. ولا يحمل هم حاجـة.. هـي الـبلد سـايبة ولا إيه؟ أنا ما يخلصنيش إن واحد من

الشــعب.. يــتهان بالشــكل ده.. قولــوا له إن سليمان البكري عضو الاتحــاد الاشتراكي.. أقسم بالله العظيم إنه لازم ياخد لك حقك.. إنشاله مــن وزارة الداخلية كلها.. ولا يحمل هم حاجة.. إيه. هي البلد سايبة ولا إيه؟

قاطعه حسن الأعرج متحدياً:

- إلا قوللــي يــا سليمان يا بكري.. ما تعرفش فين الشيخ سعدية دلوقت أصل وحشنا.. فوله السخن قوي..

ضــغط ســليمان البكري على أسنانه.. وحملق في حسن الأعرج بغيظ شديد.. ثم خرج من المقهى.. يرغي ويزبد.. هنا فقط.. انفجرت حناجر الجميع.. بالضحك.. وقال بنهاوي متهكماً:

- الله.. أمال سعيد باشا كان بيقول علينا خرفان ليه؟

ماحنا حلوين أهوه.

علق وليم مبتسماً:

- والله برافو عليك يا حسن.. خليت وشه راح لون وجه لون.

قال بنهاوي بسعادة:

- شفتوا الراجل.. كان هايشخ على نفسه من الخوف.. أكيد خايف إن سعيد باشا يدبحه.. مش هو السبب في إللي حصل؟

أصر وليم قائلاً:

- بس برده حسن طلع جدع (رادل ابن رادل.. صح).

قال أحمد أججالبحر:

- والله كل رجالة باب البحر جدعان.

أمن بنهاوي على كلامه:

- إنـــت بتقول فيها.. رجالة باب البحر.. ونسوان باب البحر كمان جدعـــان دا يـــا أســـتاذ.. نسوان باب البحر دول جننت الإنجليز زمان.

تساءل أحمد:

- إزاي بقى جننت الإنجليز؟

قال بنهاوي متسائلاً:

- إيه ده؟.. هو إنت ما سمعتش عن (درب آيه) ولا إيه؟

استمر أحمد البحر في تساؤله:

- وفين درب آيه دي كمان؟

تدخـــل كشـــري صـــبي المقهى.. وهو يرص الفحم على شيشة الأستاذ بنهاوي.. وينفخ فيه قائلاً:

- دي يـــا بيه.. أول شارع باب البحر.. من ناحية باب الشعرية أنا خالتي ساكنة هناك.

دفعه بنهاوي.. ببوزلىَّ الشيشة ناهراً:

- قـــوم يـــا واد يا كشري فز.. إنت مالك كده بتتحشر في إللي ما

لكش فيه.. قوم جاتك خيبة.. قوم.

نهض كشري وهو يتمتم:

– وأنا مالي.

طيب أحمد خاطر كشري قائلاً:

– معلهش يا كشري.. ما تزعلش.. حقك عليا أنا.

ثم اتجه إلى بنهاوي متسائلاً:

– إيه بقى حكاية درب آيه دي.. وإزاي جننت الإنجليز.

اعتدل بنهاوي في جلسته.. بعد أن سحب نفساً عميقاً من الشيشة وقال:

– درب آيه دي يا سيدي.. حارة.. زي أي حارة.. فيها شوية دكاكين.. أقصد كان فيها شوية دكاكين.. دكاكين صغيرة أيام الإنجليز.. تفتكر الدكاكين دي بقى.. كانت بتبيع إيه؟ طبعاً.. انت عارف يا أسطى حسن.. ما هو انت مولود هنا في باب البحر وعارف تاريخ كل حارة فيه.. سواء أنت ولا وليم.

أجاب حسن قائلاً:

– عارف يا سيدي.. عارف.

تساءل أحمد البحر بنفاذ صبر:

– ما تقول يا أستاذ بنهاوي.. كانت بتبيع إيه؟

اقترب بنهاوي برأسه من أذن أحمد البحر عبر الطاولة الرخامية الفاصلة بينهما.. وكأنه يفشي له بسر خطير قائلاً:

- كانت بتبيع (دعارة).

علق أحمد مستغرباً:

- نعم؟!!

أجاب بنهاوي مؤكداً:

- أي والله.. زي ما باقولك كده.. بتبيع (دعارة).

زاد استغراب أحمد البحر متسائلاً:

- طب إزاي.

فسر وليم الموضوع قائلاً:

- أصـــل أيام زمان.. كانت الدعارة.. لها رخص.. يعني كل واحدة مـــنهم لها رخصة.. زي رخصة السواقة كده.. ولها كمان محل.. دكان يعني.. هأهأ.

ضحك بنهاوي بقوه حتى اهتز كرشه.. حينما هدأ.. سأله أحمد:

- وإيه دخل ده بالإنجليز؟

أجاب بنهاوي:

- مـــا أنـــا جـــاي لك أهوه.. أصبر على رزقك يا أخي.. ده دي.. القصـــد كانت كل معلمة.. صاحبة دكان.. قاسماه نصين.. قاسماه

بسـتارة قماش.. كده.. مدندشة.. النص البراني فيه دكتين خشب واحدة لها.. تقعد عليها.. وفي إيدها الشيشة.. معلمة بقى.

سأل أحمد البحر:

- طلب والثانية؟

أكمل حسن عن بنهاوي:

- التانية لصبيانها.. أقصد النسوان بتوعها إللي مسرحاهم.

أخذ بنهاوي الكلام مرة أخرى من حسن قائلاً:

- والنص الجواني.. تفرش فيه سرير سفري صغير.. وباب وبس.

صحح له حسن المعلومة معانداً:

- لا يا سيدي.. كان فيه كمان.. طشت وكوز.. وبستلة مليانة ميه وكان فيه دكاكين فيها.. حنفية بحوض.

علق بنهاوي قائلاً بسخرية:

- يا واد يا نمس.. يظهر إنك كنت جن وانت صغير.

دافع وليم عن حسن قائلاً:

- أبداً.. لا نمس ولا حاجة.. إللي قبلنا.. كانوا بيحكولنا.

نفذ صبر أحمد البحر فقال محتد:

- برده ما قلتليش.. إيه دخل ده كله بالإنجليز؟

أجاب بنهاوي:

- يـــا عـــم حلمك علينا شوية.. الله.. نـهايته.. كانت البت من دول تخـــرج تصـــطاد لـها عسكري إنجليزي.. من بره.. من أي حته.. من كلوت بك.. من ميدان المحطة.. من باب الشعرية.. أول بقى مـــا تدخـــل بيه ورا الستارة.. ويعني لا مؤاخذة.. يقلع هدومه.. يـــبص يلاقي واحد طابق على زمارة رقبته.. يخنقه في سكات أو يدبحـــه بســـكينه.. من غير حس.. وبعد كده.. يسحبوه من الباب الورانـــي.. يكـــون باقي الرجالة حافرين حفرة.. يرموا فيها جتة الخواجه.. ويردموا عليه.

تساءل أحمد مستفسراً:

- وبعدين؟

أجاب حسن:

- ولا حاجـــة.. يفضل الإنجليز يدوروا على الفقيد.. ويحققوا.. لكن فينك بقى؟ لا حس ولا خبر.

قال وليم:

- تصـــور يا أستاذ بنهاوي.. درب آيه ده مدفون فيه يجي تلتميت عسكري إنجليزي.

قال حسن معقباً:

- لا أكثر والله.

أكمل بنهاوي القصة متسائلاً:

- بالزمة.. كانوا نسوان رجالة ولا لأ؟

أجاب حسن:

- طــبعا رجالة.. وجدعان كمان.. كل الدكاكين دي كان شغلها على الإنجليز.. لغاية ما جننوهم.

تعجــب أحمــد البحر.. وكأنه كان يستمع إلى قصة من ألف ليلة قائلاً:

- ياه.. أما حكاية.

أنهى حسن الأعرج كل تلك المعلومات التاريخية قائلاً:

- لعلمــك بقــى.. كــل البــنات دي مــا كانتش تعرف حاجة عن الدعارة.. كل ده كان تمويه للمقاومة.. مش أكتر.

قال بنهاوي هامساً:

- معظمهم مش كلهم.

تذكـــر أحمـــد الـــبحر.. أن موعـــده اليوم مع أم هنادي لإعطاء الـــدروس لأبـــنهائها.. لم يبحث كثيراً.. فقد كان بيت محمد الصعيدي عالـــياً.. واضـــحاً.. حديـــث البناء نوعاً ما.. حيث بدى للعيان وكأنه عمارة كبيرة.. بالنسبة للبيوت القديمة.. المتراصه حوله.. وقد هدمت أدوارها العليا.

لاحـــظ.. أحمـــد البحر.. وجود عربة يد قديمة.. على باب البيت وقد وضع حولها.. سور جميل.. من الحديد المشغول (الكريتال) فبدت كما لو كانت نصباً تذكارياً.. وهي في الحقيقة كانت كذلك.

جـــاء محمد الصعيدي إلى القاهرة.. منذ سنوات بعد تسريحه من الجيش.. لم يشأ العودة إلى قريته النائية على أطراف الجبل بمحافظة ســـوهاج.. أراد أن يجرب حظه بالقاهرة.. كأقرانه.. الذين سبقوه إلى (مصـــر المحروسة) وصاروا مقاولين كباراً.. سيبدأ مثل الآلاف غيره من أهل الصعيد في مهنة المعمار.. آملاً أن يصير يوماً ما (معلم).

في شارع كلوت بك.. أقام مع أقرانه من أهل بلدته.. فوق سطح إحـــدى اللوكـــاندات.. هكـــذا.. كـــان يقـــيم أكثرهم.. حيث يفترشون فرشـــات.. متراصة متجاورة.. على السطح.. يدفع كل منهم.. قرشين أجرة مبيته.. لليلة واحدة.. من يوميته التي لم تتجاوز السبعة قروش بحال من الأحوال.

ولأنـــه شـــاب أصيل.. كان يدخر ثلاثة قروش.. لإرسالها لأهله بالصـــعيد.. آخر الشهر.. لم يكن القرشان ليكفيانه.. مأكلاً.. ومشرباً وملبســاً.. فـتعود.. وبشـــكل سري.. البحث ليلاً.. في المخلفات في صناديق القمامة.. في الطرقات.. كان مبدؤه:

"كل حاجة.. تنفع".

بقايـــا طعام.. أخشاب.. مسامير.. قطع حديد.. حتى أنه كثيراً ما كـــان يجـــد قروشـــاً فضية.. هنا وهناك.. لم يكن أحد يدري شيئاً عن هوايـــته الغريبة تلك.. كان يحتفظ بموجوداته هذه في شيكارة أسمنت فارغـــة فـــوق ســـطح اللوكاندة.. في ركن بعيد.. لم يفكر أحد في أن يعبث بها.. حيث أنها (زبالة) ليست لها أية قيمة.

ولكـــن.. كـــيف بدأ تجارته.. وجد في إحدى الليالي رأساً حديدية لفـــأس.. صدئة.. أخذها.. غسلها.. نظف الصدأ عنها بحث لها عن يد خشـــبية.. وجد غصن شجرة قوياً.. هذبه.. استعدل الفأس المعدنية.. بقطعـــة كبـــيرة من الزلط الضخم.. تمنى أن يكون معه الآن مطرقة.. ولكـــنه لم ييأس من الفأس.. استعدلها جيداً ركب اليد الخشبية.. ثبتها بمســـمارين كبيريـــن لإحكامهـــا.. الآن أصـــبح الفأس كالجديد.. في الصـــباح باعه لعمال الخرسانة.. إنه ينفعهم.. بكم؟ بخمسة قروش.. سعد بها.. كانت ثروة لها طعم.. استهوته الفكرة.

أصـــبح كـــل همه.. في نهاية عمله كل يوم.. هذا العمل المضني الشـــاق.. مـــن حملـــه (قصعة) الخرسانة الثقيلة.. والصعود بها على

(السـقالات) الخشـبية.. التـي أسـقطت الكثير من معارفه.. وقضت علـيهم.. كان يعمل يومياً.. كالآخرين.. صاعداً هابطاً.. صاعداً هابطاً بـلا عدد من أدوار وأدوار.. ساعات وساعات.. أياماً وأياماً بلا كلل.. حـتى تكونـت فوق كتفه.. كتلة ضخمة من اللحم الميت من أثر حمل (القصـعة) المعدنـية الثقيلة.. تلك الكتلة الضخمة من اللحم الميت.. شـديدة القسـاوة.. والتي تشبه الكعب.. كانت الصفة المميزة لرجال المعمـار.. كسمة لهم دليل شقائهم المستمر.. بصبر منقطع النظير.. ولكـن محمد الصعيدي.. كان مختلفاً في فكره عن الجميع.. لم يستكن لهـذا الشـقاء نهاراً.. ثم يرقد متعباً ليلاً.. ولا شيء آخر.. كانت له دائماً.. أفكار مختلفة.

مشـروعه الثانـي كان كرسياً خشبياً.. ملقى بجوار مقهى أولاد الباشـا.. ملقى فوق كومة من القمامة.. تناوله محمد.. تفحصه.. هذا الكرسـي.. يمكـن إصـلاحه.. إن لديه مسامير فوق السطوح وقطعة الـزلط الضخمة.. نعم.. لا شيء مكسور فيه.. ولكن ثلاثة من أرجلة مخلوعـة.. ملقـاه بجانبه.. قام بإصلاحه صار كرسياً قوياً.. مثبتاً.. كـالحديد.. باعه للمقهى البعيد في حارة السكرية في كلوت بك.. بكم؟ باثنى عشر قرشاً.

وهكـذا تعود المرور أمام المحلات.. والدكاكين.. وفي الحارات.. وفـي الخرابات التي كانت تذخر بما يمكن الاستفادة منه.. وما لبث.. أن بـدأ.. يسـأل المحـلات والدكاكين والبيوت عن أي شيء يريدون

الـتخلص منه.. بدأ يحمل شوالا من الخيش فوق ظهره.. يجمع فيه.. حصـيلة يومـه.. وآخـر النهار يصلحها.. يبيعها.. وقد يفترش بها الأرض في شارع كلوت بك.

كـثرت بضاعته.. وجد عربة يد مكسورة في إحدى الخرابات بلا عجلات.. حملها على ظهره.. اشترى لها عجلتين.. أصلحها صنع لها يديـن من خشب المعمار.. فرح بها.. صار يدفعها أمامه واضعاً فيها بضاعته.. صائحاً:

- روبابيكيا.. بيكيا.. أي حاجة قديمة للبيع.

أصـبح فـي مقدوره الآن.. أن يدفع ملاليم.. أو حتى قروشاً في أشـياء تعطـيها له سيدات المنازل.. يقوم بإصلاحها وبيعها وقد يبيع بعـض الأشـياء دون تدخـل صناعي منه.. فقط تجارة حيث صارت بعض النساء والرجال يبحثون في بضاعته عن شيء قد يفيد.. وهكذا ترك مهنة المعمار.. الشاقة.. بلا طائل.

أمـام أحـد الأبـواب رأى إناءاً نحاسياً.. كبيراً.. ملقى وبه ثقب كبير.. إنه يعرف كيف يصلح هذا الثقب ببساطة.. طرق الباب قائلاً:

- يا أهل الله يا للي هنا.. دستور.

فتحـت له إمـرأة ممتلئة.. ترتدي جلباباً أسود.. وهي تعدل من وضع الطرحة السوداء على رأسها قائلة:

- أيوة.. نعم.. عاوز إيه؟

سألها:

- الحلة دي يا ست.. عايزة تصلحيها؟

سألته بتوجس:

- بكام؟

أجابها متبسطاً:

- حآخد منك قرش صاغ.. حارجعها لك جديدة

فاصلت.. كصفة نساء أهل مصر:

- لا حاديلك قرش تعريفة.

أجاب وهو يجلس ويضع الإناء على ركبته لإصلاحه:

- على خيرة الله.. هيه.. ياللا.. استعنا على الشقا بالله.

انفرجت أسارير المرأة راضية وهو تقول:

- ربـــنا يصـــلح حـــالك يا عم.. والله الحلة دي كانت نفعاني.. دي إيدي ورجلي.. دي الحلة الوحيدة إللي بأسيح فيها الزبدة.

أم هـــنادي.. بائعة الزبد.. والجبن القريش والقديمة صاحبة هذا الفـــناء.. الذي كان يوماً ما بيتاً كبيراً.. مات عنها زوجها.. تاركاً لها ابنـــتها هنادي.. الطفلة النحيفة بشكل متناقض تماماً مع أمها السمينة الممتلـــئة.. ولـــدت أم هنادي هنا.. في هذا البيت.. وكذلك أبوها.. قد ولد هنا أيضاً.. في البيت القديم في باب البحر؟.. تهدم البيت.. وبقيت

تلـك الغرفة التي تقيم فيها أم هنادي مع ابنتها.. رفعت ما استطاعت مـن الأنقـاض وتركـت الباقـي على امتداد الأرض الفضاء.. وظلت كأمهـا.. مـن قـبلها تبيع الزبد.. والجبن القديم.. والجبن القريش.. الذي يرد إليها أسبوعيا من الريف.

عرف محمد الصعيدي كل ذلك أثناء إصلاحه الإناء وقد جلست أم هـنادي علـى عتـبة الباب تسايره.. عرض عليها استئجار الفناء.. لتخزيـن بضـاعته.. ويقوم بإصلاحها فيه.. سيعطيها قرشين يومياً.. اعترضت.

- لا.. أنا ممكن أجر هولك.. بخمسة صاغ.

انتهى الفصال على أن يدفع لها ثلاثة قروش يومياً..

- بـس بشرط.. تسوى الأرضية.. وتشيل (الرتش).. وتدك الأرض وترشها كل يوم.. بالعربي يعني تبقى زي البلاط.

كان الزواج هو النتيجة المنطقية.. انتقل محمد الصعيدي للسكنى مع أم هنادي.. بائعة الزبد.. تلك المرأة الطيبة.. وأصبح من أهل باب البحر.. ولأنه رجل مجتهد وهي أيضاً.. تمر أيام الشقاء.. هذه بسلام. وباقتصـادهما معـاً.. قرر بناء بيتاً.. في هذه الأرض.. بدلاً من هذه الحجـرة الضيقة.. فقد كبرت الأسرة.. نعم.. بيت كامل كبير.. فسيح.. بيت فيه (محل أدب له باب بترباس).

حيـنما بـدأ فـي أعمـال الحفر بالحوش الكبير.. فوجئ محمد الصعيدي بأفندي محترم.. يسأله عن شقة في بيته الذي سيبنيه.. هذا

الشـــاب الأفـــندي.. يـــريد حجز شقة.. ولم لا؟.. قرر أن يحول البيت الكبـــير إلـــى شـــقتين.. أعطاه الرجل مبلغ ثلاثمائة جنيه لماذا؟ (خلو رجل).. نعم.

السوق ماشي كده.

إذاً فقـــد أصـــبح البيت شقتين.. ثم خمساً.. ثم ثماني.. لم تمض شهوراً قليلة.. إلا وأصبح محمد الصعيدي من أصحاب العقارات يملك مبلغاً كبيراً.. في حساب خاص بالبنك.

فـــي العام التالي.. بدأ محمد الصعيدي في بناء عمارة أخرى في حـــي الظاهـــر.. ثـــم مـــا لبـــث أن حفـــر أساســـات عمارة ثالثة في المهندسين.. عمارة كبيرة (لوكس).

حـــول إحدى شقق الدور الثاني في (عمارة) باب البحر إلى مكتب للعقـــارات (الســـوهاجي للمقـــاولات العامة).. تملك سيارة نقل (وعدة خرســـانة كاملـــة).. ثـــم سيارة ملاكي بسائق.. ولكنه.. لم ولن يخلع الطاقية الصوف الملونة عن رأسه رغم تعوده ارتداء ملابس أفندية.

أمـــا عـــربة الـــيد الخشـــبية.. التي صنعها بيديه.. لتحمل عنه بضـــاعته مـــن الروبابيكيا.. فلم يتركها.. بل ظلت قائمة أمام البيت.. رمزاً لشقائه.. وكفاحه.. وقد كانت كذلك.. بعد أن أدت ما عليها..

محمد الصعيدي.. يعتبر كل المتعلمين.. جهلة.. لماذا؟!

لأنهـــم لـــم تسنح لهم فرصة لتعلم الحياة.. لم يكن لهم إلا الكتب

والكراسات ولا شيء آخر مهم.. لذلك.. فهو يصر على جهلهم.. وهو يشـفق علـيهم ويسـتأجرهم للعمل لديه.. في مهن بسيطة.. برواتب جيدة.. فقط كما يقول:

- علشان يتعلموا حاجة تنفعهم.. يا عم الحياة هي المدرسة صَح.. والعلم في الراس مش في الكراس.

كـان سـايس الجـراج تحت عمارة الظاهر.. بكالوريوس تجارة يغسـل السـيارات.. براتب ضعف راتب الحكومة.. علاوة على مكان يعـيش فـيه بـبلاش.. فـي البيت.. خادمتان.. إحداهما دبلوم تجارة والأخـرى.. دبلوم نسوي.. راتب كل منهما.. عشرون جنيهاً.. كانت قولته الشهيرة:

"دول غلابـة.. مظاليم والله.. قوروا عينيهم في الكتب وبعدين.. ولا حاجة.. دول ما يعرفوش حاجة في الدنيا غلابة".

وهكذا كان يستخدم للعمل لديه المتعلمين.. والمتعلمين فقط.

هل حقاً.. كان محمد الصعيدي.. يشفق عليهم؟ برواتبه الكبيرة.. المـبهرة.. وعطاياه السخية.. التي لا تنقطع.. أم أن هذا.. شيء من الإسقاط وحب السيطرة.. والشعور بالذات والسيطرة على من حصلوا على ما لم يحصل عليه؟

أم هـنادي.. الشـابة الفتية.. الطيبة.. بائعة الزبد لم تعد "بائعة الـزبد" بل أصبحت الآن.. "ست بيت" تخدمها الأخريات أنجبت له ستة أطفـال.. متتابعين.. كلهم مثلها تماماً.. شديدو السمنة إلا.. هنادي..

ابنـــتها الكـــبرى.. التـــي بقيـــت علـــى نحافتها.. وكأنها رافضة في أعماقها.. كل هذا (العز).

كـــم تمنت أم هنادي أن يصبح لها ابن طبيبا.. تماما مثل الدكتور محمود حمدي.. الذي أجرى لابنتها هنادي.. جراحة الزائدة الدودية.. كـــان يـــبهرها بنظافـــته.. وبـــياض يديـــه.. ورقة أنامله.. ونظارته الذهبـــية.. الـــبراقة.. أو أن يصـــبح لها ابن مهندساً.. مثل المهندس إسحاق الذي يبني لزوجها العمارات.

رغم كراهية.. محمد الصعيدي الدفينة للتعليم.. إلا أنه لم يشأ أن يعبـــث بـــأحلام أم هـــنادي.. فتركها.. تشرف على تعليم أولادها كما تشاء.

شـــقة محمـــد الصـــعيدي.. تحـــتل طابقاً كاملاً في (عمارة) باب البحر.. تكدس فيها.. كم هائل من الأثاث الضخم.. غالي الثمن رديء الـــذوق.. بـــلا إحساس بالجمال.. فقط كل ما هو ضخم وغالي وكثرت فيه الزخارف الذهبية.. بصورة فجة.. دليل الفن عنده.

يـــتقافز على الكراسي والكنب.. أبناء الرجل الصغار.. السمان لا يرتدي أي منهم.. سواء صبي أم فتاة.. إلا (فانلة) قصيرة تكشف عن بطنه الكبيرة.. وعورته.. وساقيه المترهلين.

أمـــا الفـــتاتان.. هـــدى وهنادي.. فقد كانتا في انتظار المدرس بملابســـهما.. ليعطـــيهما الـــدرس.. كانـــت هـــنادي تحلم بأن يوافق المـــدرس.. أن يعلمهـــا القراءة والكتابة.. حتى تستطيع أن تعوض ما

فاتها.

لـــم يمـــض مـــن الدرس الأول.. نصفه.. حتى دخلت أم هنادي وافترشـــت الأرض.. أحضرت الخادمة (المتعلمة) كماً هائلاً من البيض المسلوق.. وضعته في حجر أم هنادي الضخم.

نـــادت صغارها.. وما كادت.. حتى هرول الصغار إليها كالطيور الصـــغيرة.. جالســـين أمامها.. كيفما اتفق.. أعادت النداء للفتاتين.. اندفعت هدى إليها.. تاركة القلم يسقط على الأرض.

نظـــرت هـــنادي إلـــى الأرض خجلي.. ما لبثت أمها أن قرعتها بشتى الألفاظ:

- آه يـــا خايبة.. يا مسمومة.. والله ما انت نافعة.. بوشك الأصفر ده.. عمر ما حد حايبص لك.. ولا يفكر يتجوزك.

أم هنادي.. تقشر البيض المسلوق.. وتدفع به في الأفواه.. التي مـــا تلبـــث أن تزدرده.. كانت تلقم البيض بلا حساب.. بلا عدد.. فقط تمـــلأ أفواهـــا.. مفـــتوحة.. على رقاب ذات طيات كثيرة.. مشرئبة.. إلـــيها.. كصـــغار الطيور.. لم يكن على أحدهم إلا أن يفتح فمه.. بلا كلام.. حتى تدفع فيه البيضة.. دفعاً.

لـــم يكـــن أحمـــد الـــبحر يسمع.. إلا أصوات.. إزدراد البيض.. مختلطاً.. بصوت.. غوايش الذهب المتراكم.. على ذراعي أم هنادي.. صاعداً.. هابطاً.. مهرولاً.. متدافعاً متصادماً.. مع حركة يديها.. باحثاً له عن مخرج.. من هذا الكم من اللحم.. الأبيض السمين.

كانــت أم هــنادي.. تحب أن تطعم أولادها دائماً بهذه الطريقة.. بــيدها هي.. انتهت من إطعامهم جبل البيض المسلوق.. تماماً.. وقت انــتهاء موعــد الدرس.. فاستأذن أحمد البحر.. لم تنهض المرأة من مكانها لوداعه.. ولكن هنادي تمتمت بخجل.

- طيب.. وأنا؟!

شعر أحمد بشدة رغبتها رغم خجلها فقال واعداً:

- الحصــة الجاية.. حضري كتاب "معلم القراءة".. ولا أقول لك أنا حاجيبه لك معايا.

تهلــل وجه هنادي.. وحينما ابتسمت.. بدت له.. كمريض يوشك أن يفيق من غيبوبة.. طويلة.. بوجهها الشاحب.

غطـــى صوت المذيع أحمد سعيد.. وهو يصيح.. ويجلجل بحماس شـــديد أثناء تعليقه على الأنباء.. فقد كان أحمد سعيد يقرأ هذا التعليق تقريـــباً كل يوم بالتبادل مع جلال معوض.. بصوتهما الحماسي.. وهو يـــتحدث عن الخونة.. وعملاء الاستعمار.. من الحكام العرب.. غطى هـــذا الصـــوت الخطابي الصارخ على صوت أحمد البحر.. وهو يسأل الأستاذ بنهاوي على استحياء تام:

– عملت إيه في موضوعي يا أستاذ بنهاوي؟

تســـاءل بـــنهاوي.. بغـــير التفات.. وهو.. مازال منتبهاً للنقاش الدائر بين الجماعة عن الملك حسين:

– نعم؟ بتقول إيه؟

ثـــم مـــا لبـــث أن شارك في ذلك النقاش.. الذي احتد فيه حسن الأعرج للمرة الأولى بغضب شديد.

– الـــناس دي.. مش هاتجيبها البر أبداً.. همَّ عايزين إيه بس من عبد الناصر؟.. يحارب بدالهم يعني.. أما والله حاجة غريبة؟

أجاب وليم:

– ما تنساش.. برده إن فيه اتفاقية دفاع مشترك مع سوريا؟

يعني أي اعتداء عليها.. لازم نتدخل.. وندافع عنها.. وإسرائيل

بتحشد قواتها دلوقتي على الحدود السورية.

تسائل حسن بغيظ:

- طب.. والأردن مالها.. تطول لسانها علينا ليه؟

احتد وليم أيضاً:

- بس ما تقولش الأردن.. حدد كلامك.. قول حكام الأردن وغيره.. إنما الشعب في الأردن لأ.. هم بيحبوا عبد الناصر.. زينا تمام.

قال بنهاوي متهكماً:

- ما أنيل من ستي إلا سيدي.

استطرد وليم مستكملاً حديثه:

- لعلمك بقى.. شعوب الأمة العربية كلها.. بتعبد عبد الناصر عباده.. وعارفين كويس.. إنه قادر.. في يوم وليله إنه يمحي إسرائيل دي من على وش الأرض.

لم يكرر أحمد البحر سؤاله.. بل أشاح بوجهه إلى الشارع الذي بدأ الظلام يتحسس جنباته.. لقد زاد به الوجد.. فصار طيف إلهام لا يفارق عينيه، ومخيلته.. بل ووجدانه في كل لحظة.. في كل لفتة، وكل نفس يتنفسه، أصبح يراها ويشعر بوجودها الآن، في كل شيء.. بل إنها قفزت من عقله.. جاثمة على عينيه.. باحثاً عنها في كل بنات الحي المارات أمام المقهى. تلك هي.. لا.. ليست هي.. ها هي ذي قادمة.. أبداً تلك فتاة تشبهها.. كلا.. لا تشبهها.. فإلهام أجمل من أن

تشبه.

رغـــم أنه يراها تقريباً يومياً.. فإن عينيه دائمتاً الجوع لرؤياها.. ورغـــم أنها قد تجاذبه حديثاً ما سريعاً خاطفاً إلا أن ابتسامتها الهاربة دائماً تأخذها بعيداً عن تساؤل عينيه دون أن تجيبهما.. إجابة شافية.

ولقـــد كانـــت إلهـــام تقصد ذلك.. قصداً.. تقصد الهروب بعد أن أنـــبأتها حاستها الأنثوية بمدى ما به من وجد.. ولكن لا لن تعيد إلهام تجربـــتها المريـــرة مـــرة أخـــرى.. وهكذا سنحت الفرصة لذكرياتها الرهيـــبة القاتلـــة أن تقفز مرة أخرى جاثمة على قلبها مرغمة ذهنها علـــى تذكر تلك الأيام بدون رحمة وسحبت ذكرياتها مرة أخرى ذهنها بعـــنف إلـــى هناك.. أمام باب (سجن النسا) بالقناطر الخيرية.. أثناء زيارتهـــا لأمهـــا حيـــث لابد للزائر من الوقوف ساعات وساعات.. قد يصـــل إلـــى نهار كامل في هذا الحر وتلك الشمس الحارقة في انتظار (الدور).. هناك.. أمام باب السجن رآها.. إنها هي نعم.. هي مطلبه.. هذا الجمال.. وذلك الجسد الشامخ والخطوات الواثقة.. إنها هي..

أرســـل إلـــيها عسكري ساعد على دخولها بسهولة عند خروجها كـــان فـــي انـــتظارها بسيارته.. لابد أن يوصلها إلى بيتها.. لا يمكن تركها هنا وحدها.

فـــي الـــزيارة الـــرابعة.. فاتحـــت أمها.. "أنه نقيب شرطة يعمل بالســـجن.. هـــو مـــن يساعدني في كل زيارة.. هو أيضاً من وفر لك الحمايـــة هـــنا.. فقـــد طلـــب يدي.. عنده شقة فخمة في شارع نوال

بـــالعجوزة.. كاملة من جميعه.. أهله بالريف.. سيدفع مهراً خمسمائة جنيه كاملين مع مؤخر صداق ألفي جنيه.. حتى أضمن أنه لن يتركني أبـــداً.. إنه يحبني بجنون يا أمي.. إنه رجل مؤدب رقيق.. يعمل على حمايتي وخدمتي".

لم تجد الأم بداً من الموافقة.

"علـــى خـــيرة الله يا بنتي.. بس خللي بالك من نفسك.. وفكري وافهمي شخصيته كويس.. إوعي يطلع مفتري زي جوز أمك الله يجحمه".

لم تمض أيام قليلة إلا وقابلها مهللاً:

- خـــلاص يـــا حبيبتي.. أنا خصلت جوازات السفر.. يوم الخميس نكتـــب الكـــتاب في الشقة.. نقضي فيها يومين تحضري نفسك.. وبعدين نسافر نقضي شهر العسل في بيروت.

صرخت فرحة:

- بيروت حتة واحدة؟

قال وهو يمسك يدها بكلتا يديه:

- لـــو أقدر أوديكي القمر.. حاوديكي.. أنا مستعد أعمل المستحيل علشان أسعدك.

يـــوم الخمـــيس.. مســـاءاً.. في شقة العجوزة.. جاء المأذون.. وبعـــض الـــرجال.. لا تعرفهم.. وحضرت هي وأختها.. أخذ المأذون

بطاقــتها.. وكارنـــيه العريس.. وكتب الكتاب وشهد الشهود.. وغادر الجميع.

ثلاثة أيام قضتها في شقة العجوزة.. في سعادة غامرة.. اشترى لهـــا كمـــاً هائلاً من الملابس والإكسسوار الراقي.. تغيرت.. أصبحت تماماً كنجوم السينما.. ما كل هذه السعادة.

فـــي بيروت نسيت الدنيا وما فيها.. سعادة لا توصف مع الحبيب الغالي في حلم جميل.. وعادت.

فـــي مطار القاهرة طلب منها الذهاب هذه الليلة لتبيت عند أختها فـــي باب البحر.. حتى يتثنى للعساكر تنظيف شقة العجوزة.. وتحضر في اليوم التالي لتلقاه في (بيت الزوجية) لاستكمال سعادتهما.

حيـــنما ذهبت للمبيت في باب البحر.. لم تكن تعلم أنها قد قامت في تلك الرحلة بأكبر عمليتي تهريب دون أن تدري.

دقـــت الـــباب.. بـــاب عش الزوجية بالعجوزة.. خرج لها رجل عربي.. وجلت ثم سألت:

- مين حضرتك.. انت بتعمل إيه في شقتي.

قال متعجباً:

- إيش تقولي.. أنا مستأجرها شقة مفروشة.. دي شقة مفروشة.. أنا هنا من يومين

هرولت بالنزول صارخة.

- يا أبو علي.. إنت يا عم يا بواب.

شـــرح لها البواب الحقيقة.. إنها فعلاً شقة مفروشة.. وقد أجرها الشهر السابق تاجر من الصعيد اسمه سلامة مرسي..

أيضـــاً.. لم تكن تعرف أن المأذون والشهود.. كلها من رجاله.. وأن كل ذلك كان تمثيلية متقنة.

فـــي ســـجن القـــناطر أخـــبروها أنه قد أعيد نقله إلى قسم باب الشعرية.

"جـــرى إيه يا بنت يا مجنونة إنتي.. حاترمي بلاويكي علينا ولا إيه".

صـــاحت.. بل صرخت.. ولطمت وجهها.. وولولت ولكنه بنظرة قسوة هددها قائلاً:

"تعرفي لو ما روحتيش لحالك.. أنا حادخلك الحجز وأبيت معاكي ثلاث مخبرين.. يخلوكي ما تنفعيش بعد كدة أبداً.. فاهمة ولا لأ؟"

أصـــر عادل زيدان أنه لا يعرفها.. وأنه لم يقابلها من قبل.. ليس بيدها شيء.. لا يوجد عندها دليل حتى المطار لم تجد به شيئاً.. كانت جـــوازات السفر والتذاكر معه.. لم ترها.. لم تتفحصها.. كانت تشعر بالأمـــان.. لـــم تعرف أنهما قد سافرا وعادا بأسماء مزورة.. لقد أراد فقط فتاة جميلة أرستقراطية لا يشك فيها أحد.

هكـــذا.. لـــم تهـــدأ ذكـــرياتها القاسية إلا بعد أن قامت بتمزيق

وجدانها مرة أخرى.. بعنف.. رغماً عنها.

لا.. لا يمكـــن أن تعيد الكرة مرة أخرى.. لن تسلم قلبها لرجل.. أيـــاً كان.. إنها تعرفهم جيداً.. تعرف مبتغاهم إن المرأة أمامهم ليست إلا جســداً جمـــيلاً.. معــداً لهـــم ولشهواتهم فقط.. ليست إنساناً.. أو روحـــاً.. أو قلـــباً.. ليســت إلا جسداً جميلاً فقط.. مهما قالوا.. مهما بكـــوا.. مهما صرخوا.. مهما كتبوا شعراً أو نثراً فيما يسمونه الحب كـــل هـــذا لـــيس إلا وسائل للوصول ليس لقلب المرأة.. ولكن وسيلة للوصـــول إلى هذا الجسد الذي ما وجد إلا لمتعتهم فقط.. الكل يرديها لذلـــك.. الكل يريد منها ذلك وهي لن تعطي أياً منهم إلا بقدر ضئيل.. ثم تبتعد تاركة له.. وقد التهمته نيران تلك الرغبة الدنيئة.

لـــم يتلق أحمد البحر إجابة شافية من بنهاوي.. رغم إلحاحه في الســـؤال يومياً.. لا بنهاوي أراحه.. ولا الناظرة ساعدته رغم شعوره بتعاطفها معه.. وإحساسها بعذابه الشديد.. ولكنها طالما كانت تجيب.

- كل شيء بأوانه يا أستاذ أحمد.. كل شيء بأوانه.

فقـــط.. هكـــذا.. ولكن متى؟.. متى يحين ذلك الأوان.. ترى أهو (مســـتعجل)؟ كما كان بنهاوي يتهمه.. بأنه غير صبور كما تقول أبلة أزهار الناظرة؟

ألا يشـــعران بما يختلج في صدره من عذاب وفي قلبه من آلام.. ألم تتم دراسته جيداً.. ألم يحن الوقت بعد لتعرف إلهام حقيقة ما به.. ألـــم يحـــن الوقـــت بعد لتهدأ نفسه حتى يمكن أن يتفرغ لعمله.. أمله

العظــيم.. إن الأيام تمر فهو وحتى الآن لم يستطع كتابة ولو مازورة واحــدة في لحنه.. إنه حتى لم يحدد روح اللحن واتجاهه وهدفه. ألم يأت هنا فقط لكي يصنع أمله.. فما له قد غاص هنا إلى أذنيه هكذا ما الــذي جذبه هكذا دون أن يدري.. كيف ذاب هكذا هنا.. أمن أجل لحنه الكبــير؟ أم أن هــذا المكان قد التهمه في جوفه.. شيئاً فشيئاً دون أن يــدري.. والآن كــيف يمكن له أن يكتب ألحانه وهو يحيا هنا هكذا.. ضائعاً.. تائهاً.. لم يعرف الاستقرار بعد.. وقد زاد الأمر عليه وطأة.. مــنذ أن رآها.. إلهام.. تلك الرائعة التي أخذت عليه كل كيانه.. وكل خلجاتــه ووجدانه منذ لقائهما الوحيد الذي اهترأت ذكراه الجميلة من كــثرة استعادته لها.. وسباحته فيها.. وتلذذه بها.. واجتراره لها.. ثم اســتعادته مرة أخرى.. ثم مرات.. ومرات.. مستمتعاً.. حالماً.. هائماً سعيداً بها.. تلك الذكرى الحلوة القاسية.

كــيف يكتــب؟.. وهو ينتقل من لوكاندة إلى أخرى.. كيف له أن يكتــب.. وهو يشعر بهذا التوتر الشديد من حوله.. في الشارع.. في المقهى.. في المدرسة.. في الراديو.. في الأغاني والأناشيد الوطنية.. فــي المظاهــرات شبه اليومية.. كيف له أن يكتب؟ وهو يعيش بالكاد هنا.

لقــد أقسم أحمد البحر ألا يعود إلى الإسكندرية.. إلى أبيه إلا بعد أن يحقــق ذاته.. لن يعود إلا حاملاً معه نجاحه الكبير لن يعود إلا وقد ســبقه اسمه إلى هناك.. لن يعود إلا وقد ذاع صيته.. وسمعت ألحانه

عبر الأثير.. تسبقه إلى هناك فقط حينها يمكن أن يواجه أباه.. قائلاً:

"مـــش قلت لك.. أديني أهو نجحت.. وحققت أحلامي وأحلامك..

إللـــي اتمنيـــتها لـــي مـــن صـــغرى.. موسيقار تاني كبير.. من الإسكندرية".

أعـــاد أحمـــد إلـــى المقهى من أحلامه تلك.. صوت الحاج علي الباشا.. صاحب المقهى.. يصرخ في الجماعة:

- يا ناس حرام عليكم.. كفاية كلام في السياسة.. يا ناس حاتقفلوا لنا القهوة.. ربنا يخرب بيوتكم.

كـــان غضـــب الحاج علي لأن النقاش.. وكالعادة.. قد بدأت تعلو وتـــيرته.. بشكل لافت.. بعد صياح الحاج علي.. صمت الجميع تماماً وأمســـك بـــنهاوي طاولته المعدنية المستديرة.. آخذاً وضعه المعتاد.. وأخذ ينقر عليها بكلماته الخاصة على لحن أغنية "إحنا الشعب.. إحنا الشـــعب.. اختارناك من قلب الشعب" "يا فاتح باب الحرية.. يا ريس يا كبير القلب".

غـــير بـــنهاوي كلمـــات الأغنـــية بطريقة عبقرية سريعة.. قائلاً بصوت خفيض:

"زي الكلب.. زي الكلب.. سكتِّني كده زي الكلب"

"يا مضيع معنى الحرية.. يا أخينا يا عديم القلب"

ضـــحك مـــن ضـــحك.. واستاء من استاء.. ولام من لام.. ولكن

بـــنهاوي اســـتمر فـــي إبداء رأيه.. بطريقته الخاصة.. ثم توقف عن الغناء فجأة قائلاً:

- إيـــه يا جماعة.. مالكم؟.. انتم مخكم راح فين؟ دا أنا بأقول على الحاج علي.. صاحب القهوة إللي عايز يخرسنا.

ضحك الجميع.. لكزه وليم.. قائلاً بغيظ:

يـــا أخي إتلم بقى.. والمسيح الحي.. لو حد سمعك دلوقت لنروح كلنا في داهية.

لم يلتفت إليه بنهاوي.. بل تساءل في غضب قائلاً:

- علـــى فكـــرة يـــا جماعة.. ما حدش فيكم يعرف فين سعيد باشا دلوقت؟ إيه.. كان راجل شجاع.. ما فيش منه دلوقت.

انتفض وليم قائلاً:

- إيـــه رأيـــك بقـــى.. أنـــا مش حاقعد معاك تاني.. دا انت طينتها خالص يا أخي.

وأيضـــاً لـــم يلتفـــت بنهاوي إليه مرة أخرى.. ولم يعبأ بكلماته الغاضبة بل تنهد قائلاً:

- الله يرحمك يا بيرم يا تونسي.

شـــعر أحمـــد البحر أن هناك غضباً.. رهيباً.. مختنقاً.. في قلب بـــنهاوي.. لـــم يفصح عنه لأحد.. كانت حالة بنهاوي اليوم.. ينتابها الكثير من القلق.. والأكثر من الحزن الدفين.

لـم تترك الجماعة وليم.. يخرج غاضباً.. ولطالما حدثت مثل تلك المشـادات.. بيـن وليم.. وبنهاوي.. جلس وليم وأصر حسن الأعرج أن يشرب وليم العناب البارد على حسابه كنوع من الترضية.. قائلاً:

- يـا عـم إحـنا عارفين.. إن عبد الناصر راجل كويس.. وسيد الـناس كلها.. مبسوط؟.. وأهو الأستاذ بنهاوي قالك إنه يقصد.. الحاج علي.. خلاص بقى.

عقب وليم قائلاً:

- كلكـم عارفيـن إن عبد الناصر.. أشرف من الشرف.. إيش بس اللي حواليه.. هم إللي مضيعين الدنيا..

قال بنهاوي مسترضياً:

- عندك حق في دي.. عندك حق يا أسطى.

استكمل وليم متجاهلاً:

- يعنـي عايزيـن عبد الناصر.. يمشي ورا كل واحد؟! يعرف هو بـيعمل إيه؟ عنده ضمير ولا لأ؟.. أهو سايب الجيش لعبد الحكيم عامر.. ثقة بقي.. وسايب البلد لوزير الداخلية ورجالته..

قال بنهاوي متهكماً:

- آه.. جيب على الوجيعة.

أيضاً استمر وليم في الحديث متجاهلاً تعليقات بنهاوي:

- يعنـي مثلاً.. إيه ذنب عبد الناصر في إللي حصل للشيخ سعيدية

ولا غيره..!

قال الأسطى حسن الأعرج بغضب ولوعة:

- البركة في صلاح نصر وإللي زيه.. ورجالتهم.

وجه بنهاوي كلامه هذه المرة.. مباشرة إلى وليم قائلاً:

- ماشي يا عم وليم.. إنت صح.. أديك فهمتنا.. آسفين يا سيدي.. مـــا تـــزعلش.. على العموم تشكر لأنك نورتنا إشرب بقى العناب بتاعك.

تلــك هــي المــرة الثانــية.. التي يفتح فيها أحمد البحر.. دفتر تحضــير دروســه.. داخــل الفصل.. ليسقط منه خطاب آخر.. نفس الورق نفس الرائحة.. نفس الخط.. ولكن.. هذه المرة رسالة مطولة

"إلى حبيبي ونور عيني / أستاذ أحمد

حرام عليك الذي تعمله معي ده أنا لم أعد أقدر أعيش من غيرك أبداً ليس لحياتي قيمة من غيرك أبداً لماذا تعمل معي كل هذه القساوة دي وأنا أحبك أكثر من روحي.

لعلمــك إن أنــا لم يعد لي أي رغبة أن أعيش لا أريد الحياة وأنا قــررت أتخلــص مــن الدنيا الغدارة دي وأرمي نفسي تحت الترماي فأرجوك أن تقابلني مرة واحدة بس.

أرجــوك يــا أستاذ أحمد يا أعز إنسان لي قابلني اليوم سأنتظرك فــي الأمريكيــن الذي في عماد الدين سأنتظرك الساعة خمسة مساء اليوم.

وأقســم لــك إنــي والله العظيم والله العظيم إن لم تحضر سأنهي حياتــي التي ما فيش لها قيمة من غيرك أرجوا يا حبيبي قابلني هذه المــرة بــس وأنا أعدك إنك لن تشوف وجهي ثاني أبداً إن لا يعجبك كلامي كله أو مش مصدق حبي لك أكثر من الدنيا كلها.

لا تنسى الساعة خمسة اليوم في الأمريكين عماد الدين.

حبيبتك إلى الأبد

(س.م)

جلس أحمد البحر.. إلى مقعده.. واضعاً وجهه بين كفيه.. الآن.. مـــا العمل؟.. ما هذا؟ كيف يتصرف؟ من تكون س.م هذه؟ وهل يمكن أن تـــنفذ تهديدها الساذج هذا حقاً وإن نفذته.. ماذا يكون موقفه؟ أمام نفسه.. وأمام الناس ألا تكفيه مشاكله حتى تأتيه تلك المشكلة الغريبة المفاجـــئة؟ طبعاً.. سيعرف الناس.. سبب انتحارها.. يا ويلي ستكون فضـــيحة كـــبرى.. يا ويلي.. كيف لي أن أورط نفسي هكذا ولكن.. ما ذنبـــي؟.. أنا لم أحب أحداً إلا نوال.. ليس لي علاقة بأحد غير نوال.. وهذا.. لا يمكن أن يكون أسلوب نوال.. كما أن نوال ليس (س.م).

مـــا العمل يا إلهي.. ما العمل؟.. إنه لم يواجه مثل ذلك الموقف الغريـــب من قبل.. ما أدراه.. إن ذهب.. تحت تهديدها إلى موعدها.. أن تقـــوم بأي تصرف جنوني؟.. في مكان عام مثل الأمريكين.. يبدو مـــن خطابهـــا هذا أنها مجنونة.. أو غير سوية.. أو على أقل تقدير.. طائشة!!

نهض أحمد البحر عن كرسيه.. تحرك جيئة وذهاباً.. يا إلهي ما العمل؟.. ما العمل؟.. لم يلتفت إلى ما صار بالفصل من هرج وصراخ مـــن التلامـــيذ.. فهو غير موجود هنا.. بالمرة.. جلس مرة أخرى.. أخرج الرسالة.. أعاد قراءتها.. مرة أخرى.. وأخرى.

لم يلاحظ حتى.. دخول الأستاذ لطفي.. بعد أن ظل يطرق باب الفصل بقوة.. حينما انتبه أخيراً له.. صاح به لطفي:

- مش معقول كده يا أستاذ أحمد.. أنا مش عارف أشتغل في الفصل إللي جنبك من هيصة الأولاد بتوعك.

ثم توجه بعد ذلك إلى التلاميذ.. بعد ما لم يجد أي رد فعل من أحمد البحر.. قائلاً:

- بس يا كلب انتهى وهي.. سكوت.. قيام.. جلوس.. قيام.. جلوس.. قمر.. شمس.. قمر.. شمس.. قمر.. يا ويله بقى إللي حايرفع راسه منكم.. ولا حركة.

خرج لطفي من الفصل.. بعد أن صمت التلاميذ تماماً.. ورغم كل هذا الموقف المحرج.. إلا أن أحمد البحر لم يعره اهتماماً فهو لم يكن.. مهتماً.. بما يدور حوله.. فقط.. انصب كل تفكيره.. على تلك الرسالة.. التي نزلت على رأسه كالصاعقة.

لم يفق أحمد إلا على صوت انكسار زجاج إحدى نوافذ الفصل.. إنها مظاهرة أخرى.. طلاب مدرسة أم المؤمنين مع مدرسة سيدي محمد البحر.. يلقون بالطوب.. والأحجار لإخراجهم معهم في المظاهرة.. وهكذا.. مرة أخرى..

"اليوم حرام فيه العلم" ومرة أخرى "حنحارب.. حانحارب" ومرة أخرى "بالروح.. بالدم.. نفديك يا جمال" وأيضاً "لابد أن تسقط إسرائيل" وكذلك "يسقط الاستعمار" أيضاً.. ولم لا؟

اضـــطرت أبلـــة أزهـــار ناظـــرة المدرسة.. العاقلة.. أن تسمح لتلامـــيذها.. بالخـــروج للمظاهرة.. حتى لا يحطم المتظاهرون زجاج المدرسة بالكامل.. انتهت الدراسة اليوم أيضاً.

التقى الأستاذ لطفي.. بأحمد البحر.. في حارة جنينة مفتاح قائلاً:

- أنـــا آســف يـــا أســـتاذ أحمد.. أنا عارف إنه ما يصحش.. إني أتدخـــل.. مع التلاميذ وانت في الفصل.. ولكن أنا كنت مضطر.. الســـنة خلصـــت.. وأنا مالحقتش أخلص المنهج كل يوم والتاني مظاهـــرة.. أو احـــتفال.. أهـــو عطلة والسلام.. على العموم ما تزعلش مني.

كان أحمد بالكاد يستمع إلى الأستاذ لطفي.. فقد كان كل تفكيره.. منصباً على هذه الورطة.. التي وجد نفسه فيها وهكذا.. بلا مقدمات.. ترى كيف يعالج تلك المشكلة؟

في تمام الساعة الخامسة إلا ربع.. كان أحمد البحر جالساً.. إلى إحدى طاولات.. الأمريكين عماد الدين.. وجسده مشدوداً في حالة من الـــتوتر الشـــديد.. ترى.. ماذا يمكن أن يحدث اليوم؟ أيمكن أن تكون تلـــك الفتاة الغامضة.. مجنونة فعلاً.. أو على الأقل.. متهورة؟ فتقوم بـــأي عمل محرج هنا؟.. ترى.. ماذا تريد منه؟.. من تكون؟ ماذا أتى بـــه.. لمـــاذا حضـــر إلـــى موعدهـــا؟ ليته ما جاء.. حقاً.. لقد أخطأ بمجيـــئه.. هـــل الخـــوف يـــرغمه على ذلك التصرف؟ هل جاء خوفاً ورعباً.. من أن تنفذ تلك الفتاة تهديدها وماذا لو حدث ذلك؟.. ثم ماذا

لو قامت بتصرف مجنون هنا.. كيف سيتصرف؟ هل يهرب.. يتركها.. ويذهب؟ هل يمكن له أن يعالج الأمر بحكمة.. كلا.. إنه لا يعرف شيئاً عنها.. إذن.. يجب أن يخرج الآن.. حالاً.. لابد له من الذهاب قبل أن تحضـــر.. إنه فعلاً نادم لأنه أتى.. غير مهم.. ماذا يمكن أن يحدث إن لـــم تجـــده؟.. كـــلا قد تذهب إليه غداً في المدرسة.. بثورة غضب.. حيـــنها ستكون المصيبة أكبر.. قد تسبب له فضيحة.. هناك.. كلا هنا أرحم فمهما حدث.. فهو بعيد عن كل من يعرفه.. بعيد عن "إلهام".

ســـينتظرها.. هكـــذا.. أفضل.. لماذا تكاد رأسه تنفجر ما كل هذا الصـــداع.. ليطلب فنجالاً من القهوة.. كلا.. لينتظر.. نظر من النافذة المجاورة.. هذا شارع فؤاد بزحامه الشديد سيارات.. وزحام.. وأناس كثيرون.. هنا وهناك.. ترى أتكون تلك المجنونة إحداهم؟ ربما.

لم يكن من عادته الجلوس هنا.. في الأمريكين عماد الدين إنه لم يـــرتح لهذا المكان.. إنه يرتاح جداً.. لجروبي عدلي.. ولرواد جروبي عدلـــي.. الهادئيـــن.. الجالســـين دائمـــاً في رقي شديد.. لجرسونات جروبـــي عدلي.. لحديقة جروبي عدلي.. المفروشة بحبات الزلط التي تحـــدث صـــوتاً.. عـــند السير عليها.. أما هذا المكان.. فلا شيء فيه يجذبـــه.. بـــل إنـــه يكـــره الزحام الشديد في طابقه السفلى.. ورائحة الطعـــام.. المتصـــاعدة مـــنه.. حـــارة.. مشـــبعة بـــالدهون.. رائحة المـــأكولات.. التـــي تطهـــى تحته مباشرة.. ثم تتصاعد تلك الرائحة.. بسماجة وإصرار.. إلى الطابق العلوي.. حيث يجلس هو الآن.

انسحبت.. ابتسامة غريبة على شفتيه.. ما هي إلا خليط من التعجب والتساؤل.. وقليل من الراحة الحذرة.. حينما رأها.

كانت سناء.. تصعد السلم الخشبي للأمريكين.. وقد ارتدت (بلوزة) بيضاء بسيطة.. بكم فضفاض.. و(ميني جيب) أسود بحزام جلدي عريض.. تحمل في يدها (بوك) نقود صغير.. ترتدي حذاءاً (نصف بوت) بكعب عالي.. تحته جورب (شبيكه) أسود وقد أسدلت شعرها الأسود الناعم.. على كتفيها.. بدت صغيرة الحجم.. ناعمة الملامح.. حقاً كانت جميلة.. بسيطة.. مريحة.

تهلل وجهها.. فجأة.. وفتحت عينيها بفرحة عن آخرهما حينما رأته.. في انتظارها.. لقد أتى.. نعم.. إنه هو.. قد أتى.. يا لهفى.. لقد أتى.. غير معقول.. إنه هو.. جالس هناك.. يبتسم لي.. أنا.

كادت.. من لهفتها.. تسقط في نهاية السلم.. حينما رأته لقد انزلقت قدمها الصغيرة.. من فرط الانفعال..

- مساء الخير.

قالتها سناء.. وقد أشع وجهها.. حبراً.. وسعادة.. وبهاء.. زاد جمالها الناعم جمالاً.. وهي تكاد تعتصر يده.. بيدها الصغيرة مصافحة.. سحب يده قائلاً بشبه عتاب:

- هو انتي؟ إيه يا بت شعل السيما ده؟ كده برضه.. تخضيني عليكي..؟

إذن.. هــذا هــو التصرف الذي قرره فجأة.. بدون مقدمات هكذا قــرر أن يــتعامل مــع الموقف.. ببساطة.. متبعاً إحساسه ليس إلا.. وإحساســه الآن يقــول.. إن هذه السمراء الجميلة تجلس أمامه.. في هــذا المكــان.. يمــلأ وجهها الصغير.. ابتسامة طفولية.. حلوة فرحاً بلقياه.. إذاً.. فليفرحها.

إنــزاح عــن قلــبه الكثير من الوجل والخوف.. ألقى بنظره إلى شــارع فــؤاد.. مرة أخرى.. مبتسماً.. سبحان الله.. منذ دقائق فقط.. كــاد يمــوت خوفاً.. ورعباً.. وقد تخيل الشرطة وهي تقبض عليه في المدرســة بــتهمة.. دفــع فتاة للانتحار.. ترى ماذا يمكن أن يفعل به رجــال المباحــث.. ارتد عنه هذا المشهد المخيف عندما أحس بيدها تمسك بيده على حين غرة.

كانــت أصــابعها الســمراء.. الدقيقة.. دافئة.. ملتهبة متوترة.. تبحــث لهــا عن مخابئ بين أصابعه.. المتوترة أيضاً.. قالت بصوتها المتهدج:

- مالك؟.. ساكت ليه؟

ســحب يــده.. بهــدوء.. وهــو لا يرغــب حقاً في ترك يديها الصغيرتين قائلاً.. وقد عاوده هدوؤه:

- هــو.. مــش إنتــي إللي ادتيني الميعاد..؟ قولي إنتي.. اتكلمي قولي.. عايزة مني إيه؟

أمسكت يده بقوه.. هذه المرة قائلة:

- أنا عايزاك إنت.. أنا عايزه..

فجأه ظهر الجرسون.. رجل طويل.. متهجم الوجه.. لا يشبه أبداً بأي حال.. جرسونات جروبي.

نظر إليهما شزراً.. قائلاً:

- أيوه.. طلباتكم؟

وجـل أحمـد.. كانـت مفاجـئة غريـبة.. ليس هكذا.. يتعامل الجرسـونات.. وكان الرجل.. قد قصد عن عمد.. أن يفاجئهما بالجرم المشهود.

سـحب أحمـد البحر.. يده مرة أخرى من بين كفيها.. ولكنه بدا متماسكاً.. وسألها

- تشربي إيه؟

أجابت بلهفة طفولية.. وهي توجه كلامها للجرسون المتجهم:

- أنا عاوزة (تروا.. بتى.. كوشون).

التفت الجرسون.. إلى أحمد البحر.. وهو يدون في أوراقه:

- وسعادتك؟ تشرب إيه؟

أجاب أحمد مفتعلاً.. الاحتقار لذلك الجرسون.. (عديم الذوق):

- إديني قهوة تركي.. لو سمحت.

اسـتدار الجرسون فجأة.. إلى الطاولة المجارة لهما حيث جلس

للتو.. رجل أصلع.. ذو شارب دقيق.. في حوالي الثلاثين من العمر.. برفقــته.. إحــدى طالبات المدارس الثانوية.. بحقيبة كتبها.. وملابس المدرســة التــي كانــت قصــيرة.. بشــكل لافت.. بجوربها الأبيض القصــير.. تحــت الحــذاء المدرسي الأسود المنخفض.. تساءل أحمد البحر متعجباً:

- إيه الحكاية؟.. هما بيسمحوا (بالميني جيب) في المدارس دلوقت ولا إيه؟

انفجــرت ســناء.. ضــاحكة.. ضحكة طفولية لذيذة.. ثم أزاحت بــيدها.. شــعرها الــناعم.. الذي كان قد إنساب بدلال مغطياً.. نصف وجهها.. ثم قالت:

- إنت طيب قوي يا أستاذ أحمد.

ثم اقتربت بوجهها نحوه هامسة:

- دي يــا سيدي بارمة (كمر الجيبة) على بعضه كذا برمه.. تحت القمــيص.. حســب الطــول إللي نفسها فيه.. كل بنات المدارس بتعمل كده.. لما بيجيوا ينزلوا نص البلد.. ولما تيجي مروحة أو راحة المدرسة مسائي.. ترجع طول الجيبة زي ما كان.

ثم ما لبثت أن تصنعت الغضب قائلة:

- لــو ســمحت ما تبصلهاش.. مالكش دعوة بيها.. خليك معايا أنا هنا.

ثم أمسكت يده مرة أخرى.. قائلة بحنان كبير:

- أنا.. أنا بأحبك قوي يا أستاذ أحمد.. أنا ما أقدرش أستغنى عنك أبـــداً.. أنــا والله العظـــيم.. مستعدة أعمل أي حاجة في الدنيا.. علشان أرضيك.. بحبك.. بحبك.. بحبك يا أخي.

"بالروح بالدم نفديك يا جمال"

اقتحمت المظاهرات شارع فؤاد.. وقد رفعت كل مجموعة شخصاً ما يهتف ويردد الآخرون خلفه.

"إحنا فداك يا سوريا.. إحنا فداك يا سوريا"

صمتت سناء.. بنت أم العربي حتى ابتعدت المظاهرة.

لا يدري ما الذي جاء بطيف أم العربي الآن.. ليفسد عليه جلسته الرومانســية تلــك.. لم يدم الصمت كثيراً.. حيث تساءلت سناء بنفاد صبر:

- يعني ماردتش عليّا؟

أجابها أحمد البحر بتساؤل أيضاً:

- يعني إنتي عايزة مني إيه دلوقت؟.. أنا مش فاهم.

أكملت التساؤل:

- مــش فاهم؟ يعني عايزني.. أجري في الشارع.. وأصرخ وأقول بحبك.. بحبك؟ والله أنا مستعدة أعملها.

أجابها مبتسماً:

- والله إنتي مجنونة.

ابتسمت بالتالي قائلة:

- مـــا هو إنت السبب.. إنت إللي جننتني.. على العموم.. أنا مش حـــاكلفك حاجـــة.. الشقة موجودة.. أمي واخواتي.. حاينزلوا مع ســـتي فـــي الشقة إللي تحت.. ويسيبوا لنا الشقة كلها وبالنسبة للعفـــش والموبيلـــيا.. خالي يا سيدي متكفل بيها دا أسطى نجار كبـــير.. محلـــه في المناصرة.. إيه تاني يا سناء إيه تاني؟ آه.. الـــبوتاجاز والسجاد والثلاجة عليا أنا.. أنا محوشة مبلغ.. ندفعه مقدم.. والباقي حأدفع أنا قسطه.. أما موضوع الشبكة..

قاطعها أحمد البحر قائلاً:

- حـــيلك.. حـــيلك.. إيـــه ده كله.. يعني إنتي.. رتبتي كل حاجة.. وأنا.. ما ليش رأي؟

قالت.. وعيناها يملأهما.. حب وحلم.. كبيران:

- إنـــت؟.. إنـــت سيدي وتاج راسي.. إنت ما فيش عليك حاجة إلا الشبكة.

ثـــم أمعنت النظر في عينيه.. ووضعت يديها على يده.. وقالت في نظرة توسل:

- بس إنت ترضى..

أجابها بتعجب شديد.. من كل هذه التخطيطات.. والأحلام:

- يا ستى.. أنا مش مستعد للجواز دلوقت.

قالت بإصرار:

- حاستناك.. حاستنالك.. إنشاله لآخر يوم في عمري أنا لسه صغيرة.. أرجوك.. دبلة.. دبلة وبس.

سحب يديه من بين كفيها.. واعتدل في جلسته قائلاً:

- شوفي يا سناء.. لازم تعرفي إن أنا لسه قدامي دراسة طويلة.. لسه قدامي الماجيستير.. وبعدين الدكتوراه.. وبعدين أسافر أكمل دراسة في إيطاليا.. مشوار.. مشوار طويل وأنا مش عايز حاجة تعطلني.. قدامي لسه سنين وسنين.

وقالت بإصرار مرة أخرى:

- ما تحاولش.. شوف بقى.. لو انطبقت السماء على الأرض.. ماحدش حايقدر ياخدك مني.. فاهم.. إنت ليا.. ليا أنا وبس.. مهما طال العمر.. أنا عارفة ومتأكدة.. إنك بتحبني.. زي ما أنا بأحبك.

أنقذه الجرسون.. من هذا الموقف.. المحرج.. وقد أحضر الطلبات.. وجعل.. يرصها على الطاولة.. ثم غادر مقطباً.

رفع فنجال القهوة.. يخفي وجهه فيه.. مرتشفاً منه رشفات ببطء.. وهو يراقبها.. وهي تلتهم (الآيس كريم الثلاثي) بنهم

الأطفـــال.. لـــم يكـــن يســـتطيع أن ينكر.. أن هناك شيئاً من سعادة.. يداعب وجدانه.. رغم علمه الأكيد أنه لن يستطيع.. أن يبادلها كل هذا الحب.. فهناك من تملأ قلبه تماماً.. ولا مكان لهذه السمراء الجميلة.. طفولـــية الملامح.. والروح.. والتصرفات.. لا مكان لها في قلبه رغم ذلـــك.. لـــم يستطع.. أن يخفي تلك السعادة التي تغمره الآن.. بشيء من بهاء.

اقـــترب أحمـــد البحر من المقهى.. وهو ما زال يدندن بأغنية أم كلثوم قائلاً:

"أشوف هنا عينيه.. بنظرتك ليا"

بادره بنهاوي.. متسائلاً:

- إيـــه يـــا بنـــي؟.. إنـــت إيه حكايتك؟ كنت فين؟.. إنت كل شوية تغطس كده مرة واحدة.. ما تبانشي إلا بعد كام يوم؟

قال وليم.. وهو يراقب أحمد بعينيه الفاحصتين:

- سيبه يا عم.. دا وشه منور.. وشكله كده تمام التمام.

قال حسن الأعرج متحمساً:

- خلاص.. نسأل الأستاذ أحمد.. إيه رأيك يا أستاذ أحمد؟

الحرب حاتقوم.. ولا لأ؟

أجاب أحمد البحر.. في تراخ:

- مش عارف.. دي حاجة في علم الغيب.

علق حسن الأعرج قائلاً:

- علم الغيب إزاي؟ إذا كان عبد الناصر.. بعت فرقتين بحالهم على الحـــدود مـــع إســـرائيل.. يبقى لازم وأكيد حانحارب.. واليومين

دول.. مـــا هـــي باينة زي الشمس أهي.. طيب إبقى قول إني ما باعرفش حاجة في السياسة لو ماكانتش الحرب تقوم..

عقب بنهاوي معارضاً:

- يـــا أخي.. فال الله ولا فالك.. إنت عارف الأول الحرب دي يعني إيه؟ يعني موت.. وخراب ديار.. يعني دمار يعني شبابنا إللي زي الـــورد دول.. حايروحوا بلاش.. علشان إيه يعني؟ هيه.. علشان إخواننا السوريين ولا حتى الأردنيين؟.. يا أخي المثل بيقول.. آل يا جاري إنت في حالك وأنا في حالي.

عقب وليم غاضباً:

- آهـــي دي بقـــى.. الروح الأنانية.. إللي موديانا في داهية دي يا أستاذ بنهاوي اسمها.. إنعزالية..

أشاح بنهاوي في وجه وليم قائلاً:

- يـــا عم روح.. بلا انعزالية.. بلا بطيخ.. أنا مش عارف بيجيبوا الكلام الكبير ده منين؟

لـــم يتح لوليم.. متابعة مناقشته مع بنهاوي.. فقد التفت الجميع إلـــى مدخـــل المقهـــى.. حيـــنما هرع الحاج علي الباشا.. ومن خلفه كشـــري إلـــى هـــناك حيـــث كان عم سليمان الكهربائي ينزل صندوقاً كبـــيراً.. مـــن الكرتون.. من فوق أحد التاكسيات.. أدخله مباشرة إلى المقهى بمساعدة كل منهما.

قال بنهاوي متهكماً:

- مبروك يا سيدي.. أهو الحاج علي.. جاب تليفزيون للقهوة.. آل إيــه علشــان.. يشــوف علــيه ماتشات الكورة.. وكمان يسللي الزباين.

عقب حسن الأعرج:

- والله ده كلامه.. هو بيقول كده.. وربنا أعلم بالسر.

قال بنهاوي متنبئاً:

- تلاقــيه جايــبه.. علشان يغلّي علينا المشاريب.. إشمعنى قهوة المحطــة.. جــابوا تليفزيون.. وغلوا المشاريب على العالم إللي قاعدة تتفرج.. زي (البقج).

وضــع عم سليمان.. جهاز التليفزيون الجديد.. فوق رف عال.. صنعه الحاج علي.. قوياً.. متيناً.. مخصوص لهذه المناسبة.. ظَل عم ســليمان.. يعالج التليفزيون.. ويداعب أسلاكه وتوصيلاته وكأنه خبير إلكترونــي كبــير.. وقــد تجمــع حوله.. بعض رواد المقهى وبعض الصــبية.. مبهوريــن.. وفــي مقدمــتهم الحاج علي وكشري صبي المقهى.. بهذه التكنولوجيا التي أدخلها.. الرجل إلى المقهى.

ظهــرت الصــورة أخــيراً.. مــتحركة بسرعة إلى أعلى بشكل متتابع.. صاح الحاج علي:

- التلــيفزيون بــايظ يا كهربائي الغبرة.. أصلك كهربائي حمار يا

سليمان الكلب.

التفت سليمان.. من مكانه العالي.. إلى الحاج علي قائلا:

- حلمك علينا شوية يا حاج.. دلوقت أظبط لك الصورة.

قال الحاج علي غاضباً:

- طيب يا سيدي أظبط.. أديني صابر.. لما نشوف آخرتها معاك.

عالج سليمان التليفزيون إلى أن استقرت الصورة.. ولكنها كانت باهتة.. ظهر عليها.. الكثير من النقاط الصغيرة تتحرك بسرعة كالنمل.. ضحك الأطفال.. وصرخ الحاج علي:

- إيه إللي في التليفزيون ده كمان؟

قال عم سليمان غاضباً:

- يا ناس خلي عندكم شوية صبر.. ده تليفزيون مش حجر معسل.

انتبه الجميع.. إلى صراخ وعويل بالشارع.. هرول مسرعاً الحاج علي وكشري.. ونزل سليمان الكهربائي عن السلم.. قافزاً وفي يده المفك تابعاً الحاج علي الذي كان يقول:

- يا ساتر يا رب.. فيه إيه؟ حصل إيه؟

خرج الجميع لاستطلاع الأمر.

- كانت هناك جنازة مقبلة.. وقد حمل الرجال نعشاً خشبياً صغيراً.. تبعهم بعض النسوة.. يولول ويصرن.. كان بعضهن..

يحســـون التراب من الأرض.. ويضعنه فوق رؤوسهن تعبيراً عن الحزن.

تساءل بنهاوي:

-.يا ساتر يا رب.. مين مات؟

أجاب وليم في نبرة حزن:

- دا الواد الصغير.. ابن الحاج عطية.. بتاع المانيفاتورة..

جايين يصلوا عليه في الجامع.

قال الحاج علي مع الجميع في ألم:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال بنهاوي لوليم:

- تلاقيك إنت يا أسطى وليم.. إلي قضيت عليه لما طاهرته.

قال وليم مدافعاً:

- يــا شــيخ حــرام عليك.. الواد بعيد عنك.. جاتله الصفرا.. راح فيها..

قال الحاج علي:

- يــا لــلا يــا جماعــة.. الطاهر منكم.. ييجي معانا نصلي على المرحوم.. صلاة الجنازة.. ربنا يرحمه ويرحم أمواتنا أجمعين.

نهض الجميع.. ونهض معهم أحمد البحر.

فـــي هــدوء وحـــزن أدخل الرجال النعش الصغير إلى المسجد.. توضأ الجميع.

ليســـت تلـــك المـــرة الأولى التي يدخل فيها.. أحمد البحر.. ذلك المســـجد.. مقـــام ســـيدي محمد البحر.. ويشعر بتلك القشعريرة في جســـده وتلـــك الرهـــبة الشديدة.. هناك شعور خفي أن صاحب المقام يراقبه من داخل المقبرة.. لم يشأ أن يخبر أحداً بذلك.

كـــان المســـجد.. صـــغيراً.. بسيطاً.. قد فرشت أرضيته بحصير عـــادي.. وعلـــى حوائطـــه نقـــوش إسلامية.. غير دقيقة إلى يسار الداخـــل.. كـــان المقام.. حيث يرقد (سيدي محمد البحر).. وقد غطى بقمـــاش الساتان الأخضر اللامع.. وعلى شاهد القبر.. وضعت عمامة كبيرة.. خضراء أيضاً.. حتى قناديل الإضاءة حول المقام كانت باللون الأخضـــر.. علقـــت على المقام كميات كبيرة من المسابح كما وضعت عـــدة مصـــاحف متنوعة.. يلي المقام قاعدة كبيرة أمام النافذة المطلة علـــى الشـــارع.. علـــيها مئات الشموع المضاءة التي وضعها الناس البســـطاء.. طالبيـــن البركة.. وشفاعة صاحب المقام ليقضي الله لهم حوائجهـــم.. البســـيطة أيضـــاً وقد عبأت المكان رائحة المسك.. تلك الـــرائحة المشـــهورة فـــي المقامـــات والمســـاجد.. والتي تشعرك.. بروحانية المكان.

تمـــنى أحمـــد الـــبحر.. هذه المرة أيضاً.. أن يراه.. هذا الشيخ الملائكـــي.. صـــديق السماء.. بتراتيله.. صاحبة الفجر.. وذلك عندما

كـــان يقـــيم.. عـــند أم العربـــي.. ولكـــنه.. للأســـف افتقد هذا الجو الروحانـــي.. في فترات الفجر.. وهذا الصوت الملائكي.. حينما إنتقل للاقامة بعيداً.. في شارع كلوت بك.

حـــاول كثيراً.. أن يراه.. أن يصافحه.. يعرفه.. لكن الرجل كان يختفـــي.. وكأنه.. طيف ما.. وقف اليوم في صفوف المصليين يحدوه الأمل مرة أخرى.. أن يرأن

اه.. جـــاء الإمـــام.. حيـــنما قال الله أكبر.. عرف أحمد الصوت للتو.. إنه هو.. نفس الصوت.. قرر أحمد البحر.. هذه المرة.. إذا ما انتهت الصلاة.. أن يذهب إليه لابد أن يراه هذه المرة.. يرى وجهه.. يصـــافحه.. يلمـــس يـــده الطاهرة.. لابد أن هذا الرجل.. يشع نوراً.. سماوياً.. ربانياً.. قد جاء من غير هذه الأرض.. لن يدعه يختفي هذه المرة.

انتهـــت الصلاة.. تزاحم الناس.. للخروج.. كل يحاول المشاركة فـــي حمـــل الـــنعش الصغير.. وجد أحمد نفسه محصوراً بجوار باب المســـجد.. مـــا إن خرج النعش.. وانتهى الزحام.. حتى ذهب للبحث عن شيخه الملائكي.. ولكنه.. كان قد اختفى تماماً مثل كل مرة..

حيـــنما خـــرج أحمد البحر من المسجد.. كانت جماعته.. مازالت في انتظاره.. بادره بنهاوي سائلاً:

- إيه إللي أخرك كده.. يا أستاذ أحمد؟

أجاب في حزن شديد.. ظنه الجميع حزناً على الطفل الفقيد:

- أبدا.. ولا حاجة.. الزحمة.

ثم أردف متسائلاً.. بعد برهة:

- هو إحنا مش حانروح معاهم الدفنة؟

أجاب وليم مقبلاً عليهم.. بعد أن قام بالعزاء:

- مـا أظـنش.. دول هايـاخدوه على طول.. علشان يدفنونه في بلدهم.. في الشرقية.. هيه.. ياللا بينا.

عقب كل من الواقفين:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال بنهاوي معارضاً:

- والله أنا شايف نروح نحصلهم.. نحضر الجنازة والدفنة.

ثم صمت حينما لم يجد استجابة.. أردف بعد قليل:

- سـبحان الله.. أنا قلت لكم.. بقالي كام يوم.. قلبي مقبوض كده مش عارف ليه.. الحتة كده فيها حاجة مش مظبوطة.

جلـس الجمـيع في صمت عميق.. وقد خيم الحزن على المكان غطـى عم علي التليفزيون الجديد.. بغطاء من القماش الأبيض وكأنه هـو أيضـاً.. يجـب أن يشارك الجميع حزنهم الصامت من مكان ما بعيد.. جاء صوت عبد الوهاب باهتاً مردداً:

"يا مسافر وحدك.. وفايتني"

"ليه تبعد عني.. وتهجرني" .

كان الصوت بالكاد يخرج من الظلام الصامت..

داوم أحمد البحر.. على دروسه الخاصة.. التي نجح فيها أيما نجاح وذاع صيته بسرعة.. كمدرس ممتاز.. وذلك في أيام قليلة أصبح أشهر مدرس.. يحبه التلاميذ.. ويحترمه أولياء الأمور.. لأدبه الجم.. وأخلاقه الحميدة..

قابلها.. في بيت أم هنادي.. في إحدى الأمسيات.. فتاة بيضاء.. هادئة.. ممتلئة الجسم قليلاً.. ذات جمال هادئ.. بسيط.. قالت أم هنادي لتعرفه بها:

- أعرفك يا أستاذ.. على بنتي.. وصاحبتي.. وحبيبتي.. الست أم ناصر.

تعجب أحمد "أم ناصر" كيف.. هذا غير معقول بالمرة.. فهي تبدو فتاة.. في الرابعة عشرة.. أو ربما الثالثة عشرة.

وكأن أم هنادي.. تعرف مقدماً أن هذا التساؤل سيدور في خلد الأستاذ.. ككل الناس.. فأردفت مبتسمة:

- علـى فكرة.. ما يغركش شكلها.. دي عندها تمنتاشر سنة.. هي يا سيدي أصلاً من هنا.. من باب البحر.. وربنا حكم عليها يجوزوها واحد كويتي. إلهي ربنا ما يكسبه.. موريها المر يا خوياً.. دفع قرشين كويسين لأبوها الغلبان.. وخدها.. يا عين

أمهـــا.. بنت صغار.. يعني كده.. حداشر.. اتناشر سنة.. سننوها له.. اتجوزها.. شوية وسابها وسافر.

تجرأ أحمد.. بعد أن جمع شتات نفسه وتساءل:

- أمال.. إنتي عايشة إزاي؟

أجابت.. بصوت طفولي رقيق:

- ماهو بيبعت لي كل شهر.. مبلغ كويس علشان أولاده.

عاد العجب مرة أخرى متسائلاً:

- أولاده؟

أجابت عنها أم هنادي:

- أيـــوه يـــا ســـيدي ما هو مخلف منها.. ولدين توأم صلاة النبي أحسن.. عندهم دلوقت ييجي خمس سنين.. فهد وناصر.

صمت أحمد.. ولم يجد ما يقوله.

أم ناصـــر.. تلـــك الفتاة.. التي أخرجوها من المدرسة.. قبل أن تنهـــي المرحلة الابتدائية.. لتزويجها.. لسالم العتيبي.. رجل الأعمال الكويتـــي.. الـــذي بهرهم.. ببعض الجنيهات.. بعد أن أخبره سمسار الـــزواج عنها.. كان الرجل.. في حوالي الخمسين من العمر.. لا يهم فقـــد أفـــتى سمسار الزواج مستدلاً.. لأبي الفتاة البسيط بزواج سيدنا محمد في مثل تلك السن من أم المؤمنين.. هذا الزواج شرعي.. مبلغ صـــغير دفـــع لمكتـــب الصـــحة.. صـــارت الفتاة الصغيرة في الثامنة

عشــرة.. دفــع الــرجل المهر للأب الفقير.. الذي فرح به.. ثم أجر شقة.. في عمارة محمد الصعيدي بالمهندسين.. فرشها أحسن أثاث.. تزوج شهوراً.. ثم سافر.. اختفى.. لمدة طويلة.

بالبحــث عــنه.. اكتشــفت زوجــته الحامل أن هذا الرجل سالم العتيبــي.. يعمــل حــارس مدرسة.. في منطقة الزور النائية جنوب الكويــت.. سافرت الفتاة.. ما لبثت أن عادت لم تحتمل خدمة زوجتيه الأخرتان.. استقرت بالقاهرة مرة أخرى ولدت توأمها.. ناصر وفهد.

تــابع أحمــد البحر قراءة ما كتبته هنادي المجتهدة.. لقد صارت تكتــب "جَمَعَ.. دَرَسَ.. أَكَلَ" وغيرها من كلمات تقرؤها جيداً.. صارت تعــرف كــل حروف الهجاء.. تعلمت بسرعة هائلة الجمع والطرح.. قاطعته الأم الصغيرة قائلة:

- ممكن لو سمحت.. حضرتك.. تدي ولادي درس؟

أجاب أحمد وهو منكب لتصحيح مسائل الواجب لهنادي:

- أنا تحت أمرك.. هم ولادك في أي سنة؟

أجابت مبتسمة:

- دول لســة.. هايدخلوا الحضانة.. بس أنا عوزاهم يطلعوا شطار من الأول.

أجاب أحمد البحر مرة أخرى:

- ماشي.. إللي تشوفيه.. بس إنتي إديني العنوان.. وأنا أروح لهم

إنشاء الله.

صاحت أم هنادي.. بفخر:

- أم ناصــر.. ســاكنة في عمارتنا إللي في المهندسين.. هي بقى تكتب لك العنوان.

كانــت فكــرة أم ناصر.. وجوب تغيير في حياتها الرتيبة المملة ولكن بعيداً عن هذا الكم الهائل من الذئاب المنتشرين حولها طمعاً في المرأة.. الصغيرة.. الوحيدة.. فالأستاذ أخلاقه عاليه.. ومحترم.

وكانت فكرة أحمد البحر.. أن يعرف أكثر عن حياة تلك الذبيحة.. حيث شعر بعطف كبير نحوها.. متعاطفاً مع مأساتها.

أخذ أحمد ورقة العنوان بيد مرتشعة.. عطفاً.. وحزناً.

وصـــل أحمـــد الـــبحر.. إلى المقهى.. حيث أصبحت جلساته مع المجموعـــة ذاتهـــا.. من طقوسه اليومية المهمة.. ما إن دخل إليهم حتى بادره الأسطى حسن الأعرج قائلاً:

- شـــفت يـــا سيدي.. أنا مش قلت لك.. يا جماعة.. أنا فاهم إللي بيحصل كويس.

جلس أحمد البحر متسائلاً:

- إيه بقى إللي بيحصل؟

أجاب وليم عن حسن:

- عبد الناصر يا سيدي.. طلب سحب قوات الطوارئ من سينا.

تابع حسن بحماس:

- مـــش كـــده بـــس.. دا بعـــت خمس فرق ثانية على الحدود مع إسرائيل أهو هو ده الكلام.

كـــان الانفعـــال شـــديداً.. وعلا الصخب.. عند مرور الحاج علي عليهم داخلاً المقهى.. فقال كاليائس:

- والله حرام عليكم.. تقفلوا لنا القهوة.

مـــا كاد الصمت يسود بينهم.. حتى سمع صوت صراخ.. وجري وحـــركة غريـــبة مفاجـــئة بالشارع.. حيث يهرول الناس.. ويصرخ

الأطفال والنساء.. ويسب الرجال.. خرج الجميع من المقهى للاستطلاع.

كانت هناك عربة (كارو) تنهب الشارع نهباً.. وقد وقف (العربجي) على (العريش) مثبتاً قدميه.. وهو يلهب الحصان بالسوط وكأنه فارس محارب بعربته تلك في ميدان القتال يصيح ويصرخ:

– إوعى رجلك.. إوعى رجلك.. رجلك يا أفندي.

ما لبثت (الكارو) أن اصطدمت.. بعربة الفول المدمس تلك العربة الخشبية ذات اليد.. حيث تعود (دسوقي) بائع الفول المدمس.. الوقوف كل مساء.. في هذا المكان.. ناصية الجامع.. ليبيع فول العشاء.. لقد كان فول دسوقي المدمس اللذيذ.. مشهوراً.. في شهرة رجال السينما.

كان دسوقي.. معروفاً بفوله اللذيذ.. وندائه الغريب حينما يقول "فوووول" فيمد الفاء كثيراً.. ثم فجأة يختطف حرف اللام خطفاً.. بصوت دراماتيكي جميل.. وكم أعجب هذا النداء الموسيقي أحمد البحر.. حيث كان يتمنى أن يبني عليه.. إحدى الجمل الأساسية في لحنه المنتظر.

عند اصطدام الكارو.. بعربة الفول.. طارت (قدرةُ الفول) عالياً في الهواء.. ثم سقطت محطمة.. مهشمة.. وانسكب ما فيها من فول على الأحجار المرصوف بها الشارع.

صاح دسوقي.. ثم جلس إلى الأرض.. مولولاً.. يضرب رأسه

بيديه صائحا:

- يا خراب بيتك يا دسوقي.. يا خراب بيتك يا دسوقي.

أسـرع أهـل الشـارع.. لإيقـاف الكارو.. حيث اعترض بعض الـرجال الحصـان.. وسحب رجلان (العربجي) وأسقطاه أرضاً.. قاده الجمـيع مـن (قفـاه) وتلابيبه.. إلى داخل المقهى.. موسعينه ضرباً وركلاً.. وسباً.

أسـرعت بائعـة الفجـل.. وألقت بالفجل الذي كانت تغسله تلك الأثناء في طشت من النحاس.. على قفص الجريد مع باقي (الخضرة) واتجهـت بالطشـت حيـث انسـكب الفول.. وقد تجمع بعض الصبية والفتـيات.. يغـترفون الفول بحرص.. من الأرض.. حتى لا يغترفون معه الأتربة.

وضـعت بائعة الفجل.. الطشت.. وبدأ الجميع يسكبون فيه الفول المجمـوع.. بالأطباق والأيادي.. وهم يدفعون الكلاب والقطط.. الذين تجمعوا.. حول هذه الوليمة من الفول المدمس.

سـحب الرجال العربجي.. داخل المقهى ممسكين بجلبابه بقوة.. وقـد إنهـال عليه الكثير ضرباً.. حتى كشري صبي المقهى كان يقفز عالياً.. ليصل إلى (قفا) الشاب الطويل قائلاً:

- إنت فاكر نفسك.. ماشي فين.. يا بهيم إنت؟

بينما أنبه أحمد البحر قائلاً:

- يعني مش شايف إن الشارع زحمه.. ومليان أطفال؟

سأله وليم:

- إنت منين يا واد إنت ياه؟

أجاب الشاب الذي كان يحاول تفادي الصفعات قدر استطاعته.

- أنا من الإمام.. يا سعادة البيه.

صاح به الحاج علي صاحب القهوة:

- وحـياة أمـك لأدفعـك ثمن القدرة.. والفول كمان علشان تحرم تجري بالشكل ده.. يا ابن الكلب.. يا حيوان.

قل الفتى باعتذار شديد:

- حرمت يا حاج.. حرمت والله.. عمري ما حآجي هنا تاني.

نادى الحاج علي على دسوقي بائع الفول قائلاً:

- إنت يا واد يا دسوقي.. هي القدرة والبضاعة بكام؟

أجاب دسوقي وهو ما زال ينعي حظه:

- القـدرة جايـبها بجنيه يا حاج.. والفول مكلفني خمسين قرش.. خـرب بيتـي الله يخرب بيته يا حاج.. روح ياشيخ.. ربنا يخرب بيتك يا بعيد.

أحكـم الحـاج علـى قبضته.. بملابس العربجي على رقبته يكاد يخنقه قائلاً:

- طلع يا واد.. طلع وريني معاك كام.. ياللا طلع وريني.

أجاب العربجي.. وصوته.. يختلج من شدة الخوف:

- أنا كل إللي معايا عشرين قرش.. حتى فتشوني.

قال بنهاوي:

- طبعاً.. حانفتشك.. إنت فاكر إيه؟

بتفتيش الرجل.. اتضح أنه فعلاً.. لا يمتلك سوى عشرين قرشاً.. ونصف قرش.. قال وليم:

- خلاص يا جماعة.. سيبوا له فلوسه معاه.. وإحنا نلم لدسوقي ثمن حاجته.. ياللا.. العوض على الله.

بعد المزيد من الصفعات واللكمات.. والكثير من التأسفات والتعهدات من العربجي.. تم إطلاق سراحه.

كانت بائعة الفجل.. قد أحضرت ما استطاع الناس لمه من الفول النظيف.. إلى دسوقي.. كانت الكمية تتجاوز نصف الفول المسكوب تقريباً.. وقد ترك الباقي وليمة حقة.. لهذا الكم من القطط والكلاب.. تعجب أحمد البحر فهي المرة الأولى.. التي يرى فيها القطط والكلاب.. تأكل الفول المدمس بهذا النهم.. وهذا الاستمتاع وهذا الصراع والتهويش بينها نباح وخربشة.

تم جمع المبلغ في وقت قياسي.. فقد دفع كل من بنهاوي وأحمد البحر ثلاثة قروش لكل منهما.. كما دفع الأسطى وليم وحسن الأعرج

خمســـة قـــروش لكـــل منهما.. وتم جمع ثلاثين قرشا أخرى من باقي رواد المقهى.. ودفعت كل من بائعة الفجل.. وبائعة الشعرية البلدي.. وبـــائع العرقســـوس.. وبائع الزبادي.. قرشين.. كما دفع ثلاثة أطفال كل منهم.. نصف قرش.. ثم دفع الحاج علي باقي المبلغ المطلوب.

أخذ كشري المبلغ.. وأسرع قائلاً:

- أنا.. حاشتري له قدرة.. من الفخراني إللي على الشارع.

صاح به الحاج علي:

- بسرعة يا واد يا كشري.

أجاب كشري وهو يركض خارجاً:

- هوا يا معلم.. هوا.

قال بنهاوي لدسوقي.. مطيباً خاطره:

- خـــد يـــا دسوقي الفول ده.. إغسله كويس قوي.. واتصرف فيه بمعرفتك.. يا للا يا سيدي.. ربنا يعوض عليك.

أكمل الحاج علي كلام بنهاوي قائلاً:

- يـــاللا يـــا عم.. مالكشي رزق النهاردة تبيع حاجة.. روَّح بقى.. وبكرة ربنا يعوض عليك.. علي رأي الخوجة بنهاوي أفندي.. يا للا.. أرزاق وبيوزعها سيدك.

جلس بنهاوي.. وهو يحوقل ويهلل قائلاً:

- لا إله إلا الله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. ياللا نصيب.. سبحان الله رزق القطـط والكلاب.. وكان مقسوم أنا قلت لكم يا جماعة.. الدنيا فيها حاجة مش مظبوطة.

عقب حسن قائلاً:

- يظهر إن الناس ضربت.. ياللا بقى.. ربنا يستر على عبيده.

كـان سـليمان الكهربائي.. قد أحضر شاكوشاً ومسامير وعكف يصلح عربة الفول المحطمة.. ناداه الحاج علي مبتسماً:

- يـا سـليمان.. نفسـي أعرف إنت كهربائي ولا نجار.. ولا إيه بالظبط؟

أجاب الرجل من خارج المقهى:

- أنا بتاع كله يا حاج.

قال بنهاوي معقباً:

- والله مـا ضيعنا إلا بتوع كله دول.. نهايته.. ربنا يستر علينا بقى.. في الأيام الغبرة دي.

لـم يشـأ أحمد أن يفاتح بنهاوي بالسؤال عن موضوعه الخاص اليوم.

خـرج الجمـيع من المقهى.. واحداً تلو الآخر.. ظل أحمد جالساً فـي مكانـه سـاهماً.. كـان قد تعود أن يجلس وحيداً.. بعد خروج الجمـيع.. مـن المقهـى مـتأملاً.. في هذا الشارع العجيب.. وناسه

الشديدي التنوع.. والدفء.. والبساطة.

شعر بيد تدق بقوة على ظهره. وسمعه يقول:

- يا بني حرام عليك.. دوختني.. الله يدوخك.

ما إن رآه أحمد البحر.. حتى اندفع إليه محتضناً.. مقبلاً.

- إيـه ده. مـش معقول.. طارق مرسي.. هنا في مصر!! هنا في بـاب البحر!! طارق مرسي.. مش معقول!! إنت جيت إمتى مين معاك!! يخرب عقلك.. عرفت توصللي إزاي؟

طـارق مرسي.. نقيب بالقوات المسلحة.. طويل القامة رشيق.. فـي بذلـته العسـكرية.. يقـيم بالشـقة المقابلـة لشقة أحمد البحر بالإسـكندرية.. مع والدته.. يكبر أحمد بعامين فقط ولكنه كان الصديق الحمـيم.. والوحيد له.. رغم التباين الشديد في طبائعهما.. ولد أحمد الـبحر.. فوجد طارق مرسي.. لعبا معاً.. كبرا معاً.. أحبا الحياة معاً.. لكـل آمالـه.. وأحلامه.. انطلاقاته إنهما من جيل الثورة.. آمنا بها.. أحبا عبد الناصر معبودهما الثائر.. قال أحمد البحر:

- اتفضل يا طارق.. ياه.. دا انت وحشتني خالص.. اتفضل أقعد.. تشرب إيه؟

جلس طارق ثم قال:

- إسـمع يـا سـيدي.. أنا جاي هنا.. في مهمتين.. واحدة سرية مالكش دعوة بيها.. والتانية.. شخصية.. وليك دعوة بيها.

ضحك أحمد وقال مداعباً:

- وليه مش سرية هي كمان؟ المهم.. إيه هي بقى؟

استطرد طارق قائلاً:

- أبـوك يـا سيدي.. القبطان جابر النمر.. باعتني.. أقنعك ترجع معايـا الإسـكندرية.. أوامر صريحة.. يعني تفضل معايا وأفضل ملازمـك.. لغاية ما أخلص مهمتي الرسمية.. ونرجع سوا.. هي دي الأوامر.

نهـض أحمـد الـبحر وجلاً.. وابتعد خطوتين.. ثم عاد وجلس منتصباً.. بعد أن اعترض قائلاً:

- يا سلام.. بالبساطة دي؟

نهـض طـارق.. وسوى أطراف بذلته العسكرية.. ولبس الكاب العسكري.. وأعدله على رأسه مزهواً ثم قال:

- علـى العمـوم.. أنـا ساكن في عوامة على النيل.. حجزتها لي القـيادة فـي الكيت كات.. حابعت لك العسكري المراسلة بتاعي يجيـبك ولا أقولك.. أنا يا سيدي عازمك على الغدا بكرة حاستناك السـاعة اتنيـن في كافتيريا فندق ناشيونال في شارع سليمان.. أقصد طلعت حرب.. دلوقت لازم أروَح علشان بكرة أروح القيادة من بدري.. سلام.

اسـتدار طارق وسار بخيلاء ضباط جيشنا.. المعهود وقد هرول

خلفـــه كذنـــبه.. جـــندي نحيف.. أسمر اللون.. قصير القامة.. ضئيل الجســـم.. يكاد يتعثر في بذلته المترهلة.. إنه جندي المراسلة الخاص به.. يحرسه.. يساعده.. يخدمه.. هو وأسرته وأحبائه أيضاً.

(١٩)

مـــا إن دخل أحمد البحر إلى حارة جنينة مفتاح.. حتى شاهدها.. مقبلة عليه.. تتشح بملاءتها اللف.. تسبقها ابتسامتها الطفولية.. إنها ســناء تكــاد تقفز فرحاً لرؤيته.. ارتبك قليلاً.. ماذا جاء بها إلى هنا؟ ويله إن ظلت تلك الفتاة تلاحقه في كل مكان.. هذا محل عمله.. يجب ألا تتبعه هنا.

اتجه إليها.. غاضباً.. حتى لا يسمح لها بالدخول إلى المدرسة.. يجب أن لا يراها.. أي من الزملاء معه.. قالت في براءتها الطفولية :

- صباح الخير يا حبي.

بادرها.. وكأنه لم يسمعها:

- إيه اللي جابك هنا؟ إنتي عاوزه تفضحيني؟

اختفت بسمتها في ذعر.. خلف نظرتها المرتعبة.. وتساءلت:

- إيه؟ أفضحك؟ إيه الكلام ده؟

استكمل كلامه بنفس القسوة:

- لوسمحتي.. ما تجيليش المدرسة.. إوعي أشوفك هنا تاني مهما كان السبب.. فاهمه؟

بسرعة انسابت دموعها بغزارة دون بكاء.. وقالت:

- أنا آسفه.. أنا كنت بس جايبه لك هدية بسيطة.. على العموم ما

تــزعلش منـــي.. مش حآجي هنا تاني.. مادام انت عاوز كده.. حاضر.

خفف من لهجته القاسية.. وقال وهو مازال مقطب الجبين:

- طيــب.. خــلاص.. ما تزعليش.. امسحي دموعك بقى.. الناس بتبص لنا.

مســحت دموعها.. وأعادت ابتسامتها إلى مكانها وقالت بصوت متهدج.. تخالطه بقايا بكاء:

- مش هاتشوف هديتك بقى؟

سأل.. دون أن يمد يده :

- بمناسبة إيه؟

أجابت من خلال خجلها الذى ظهر فجأة:

- مــن غــير مناسبة.. أنا أصلي.. كنت فرحانة قوي.. قلت لازم أجيب لك هدية؟ أرجوك.. ما تكسفنيش بقى .

مــد يــده آخــيراً.. وأخــذ هديته.. علبة كبيرة.. ملفوفة بورق هدايا.. ملون.. وشريط ساتان لونه أحمر قاني.. تنبعث منها.. رائحة جميلة.. وضعها تحت إبطه قائلاً:

- يالله.. روّحي بقى.. مع السلامة.

وقفت برهة.. ثم تساءلت:

- مش هاتفتحها؟

أجابها:

- جوه.. جوه.. حافتحها في المدرسة مش هنا.. ياللا بقى.

قالت وهي تتحرك.. وتغالب ذهابها:

- دي.. آية قرآنية.. إنشاء الله تعجبك.

قال في شبه حدة:

- خلاص.. ياللا روحي.. قلت تشكري.. الله.

انسحبت في هدوء.. ويأس.. وهي تشعر.. أن.. محاولتها قد فشلت.. لم تستطع أن ترضيه.. شعرت أنه قد عاد وابتعد عنها كثيراً.. ماذا حدث؟

لم تستطع إيقاف دموعها المنهمرة.. وقد كانت دموعها سريعة الانهمار.. قوية التعبير.. مهما حاولت.. لا تستطيع إيقافها.. كان هذا أحد عيوبها.. حيث يصفها أقرانها قائلين:

- يا عيّلة.. أي حاجة تعيَّطك كده؟

لماذا؟.. لماذا يا رب؟ إنها الآن تحبه من كل جوارحها.. لم تعد تستطيع التراجع.. لن تستطيع مهما حاولت إيقاف هذا الحب الجارف.. لماذا يعاملها هكذا.. إذن؟ هل يكرهها.. إلى هذا الحد؟ لا يمكن إنها تعلم أنه يحبها.. نعم يحبها.. ظهر حبه لها واضحاً جلياً.. بلا شك هناك.. في أمريكين عماد الدين.. إذن.. ماذا حدث؟

لمـــاذا يا رب؟ هل أمنيتها تلك كبيرة.. لكي يحققها الله لها.. هل أمنيـــتها كبـــيرة إلى هذا الحد.. إن أحلامها صغيرة.. جداً.. مثل صغر حجمهـــا.. بســـيطة.. بســـاطة قلبها البريء.. فقط تتمنى أن تتزوج.. الشـــخص الوحـــيد الذي أحبته.. والذي طالما حلمت به وحافظت على قلـــبها.. وروحهـــا.. وأفكارهـــا.. وجسدها.. انتظاراً له.. لم يلمسها بشـــر.. لم تحب أحداً قبله.. كانت في انتظاره بعناد.. لم.. ولن تصبح كأمهـــا أبـــداً.. مهما طال انتظارها.. انتظارها لفارسها.. ليأخذها إلى بيـــت صـــغير.. هـــادئ.. شريف.. مثل كل البنات.. بيت يجمعها بمن تحـــب.. فقط لهما.. هما الاثنان.. تحيا حباً.. تأكل حباً.. تشرب حباً.. لا تـــريد شـــيئاً آخر.. لم تحلم بقصر كبير.. لم تتمن أن يكون عندها ســـيارة خاصة.. لم تتخيل شقتها كبيرة.. في حي راق.. بل هنا.. في بـــاب الـــبحر.. حيث ولدت.. وتربت.. وعاشت.. وستموت واحدة من بنات باب البحر .

حيـــنما دخلت إلى محل عملها (مكتبة النور في الفجالة) لم تكن دموعهـــا.. قـــد جفـــت بعد، استقبلها.. (مجدى جرجس) ابن صاحب المكتبة بحنان مبالغ فيه قائلاً:

- مالك يا جميل يا (صغنون) انت.. مين زعلك؟

دندنت إحدى زميلاتها قائلة:

- مين زعلك.. بتخلصي مني؟

أجابت وهي تمسح دموعها.. وتتمخط في منديلها الصغير:

- مافيش.

ألح مجدى قائلاً:

- لا صحيح مين زعلك.. وأنا أروح أقطم رقبته؟

قالت الزميلة بنفس الأسلوب:

- أيوه.. قولي مين.. والأستاذ مجدي يقطم رقبته.

ثم ضحكت ضحكة ذات معنى قائلة:

- دا انتي.. عزيزة علينا خالص.

قالت سناء.. لإنهاء هذا الاستجواب:

- أبداً.. أنا اتكعبلت في طوبة .

ضحكت الزميلات وقالت نفس الفتاة:

- يـــا نـــنوس عين أمه.. لأ ألف سلامه ليكي.. إخص على الطوبة الوحشة دي.

كانـــت معاملـــة الفتاة لها بهذه الطريقة.. بسبب الاهتمام الشديد الـــذي يولـــيه مجـــدي جـــرجس لهذه الفتاة الصغيرة وتجاهله الجديد للأخريات.

كل ذلك.. لم يفد مجدي كثيراً.. في محاولاته المستميتة للوصول إلى سناء ..

ولكـــن ســـناء.. لـــم ولن تفكر في مجدي هذا.. علاقة مثل تلك

مســتحيلة.. لا يمكن أن تفكر فيها.. يكفي أنه مسيحي وهي مسلمة.. لا يمكن أن تحقق معه أحلامها بالزواج.. أبداً .

كــلا.. لــن تفعل مثل زميلاتها من العاملات الفقيرات بالمكتبة.. اللائـــي وافقـــنه.. خرجن معه.. مزحن.. فرحن بهداياه الثمينة.. تغير حالهن.. شكلهن.. هيئتهن.. ولكن كل هذا.. ما هو إلا لعب.. تسلية.. مــنفعة.. تسكين.. تسكين مسروق.. لكل ما يختلج في صدور الشباب مــن ثــورة وكبــت.. وحرمان.. إنه.. الوهم ذاته.. وهن يعرفن ذلك جيداً.

أمـــا هـــي.. فشيء آخر.. كلا لن تفعل ذلك.. فلن يلمسها إلا من تحلــم بــه.. حافظت على كل شيء في انتظاره.. قاومت.. وقاومت.. ولم تستسلم لأي من هؤلاء.. أصحاب العمل في كل مكان.. معظمهم.. مــثل مجــدي.. ولكن لن يكون أبداً رغم محاولاتهم المستميتة.. فهي الوحــيدة التـــي عصت عليهم.. هي الوحيدة التي قالت لا.. لم تغرها هدايـــاهم.. شـــبابهم.. جمالهم.. أموالهم.. قدرتهم الفائقة على التحكم بالفتــيات.. العاملات.. نعم هي الوحيدة التي قالت لا.. وستظل إلى أن تهب كل ما لديها له.. حبيبها الوحيد.. الجميل.. الأستاذ أحمد .

مـــا كـــاد أحمد البحر.. يودع سناء.. ويلتفت عائداً إلى مدرسته حـــاملاً هديـــته الملونة حتى رأى.. بنهاوي.. يقف على باب المدرسة يراقـــبه.. مبتسماً.. متكئاً على الباب.. مدندناً بألحانه العجيبة.. ما أن اجتازه أحمد البحر حتى همس خلفه:

- يابني ما ترسى لك على قاره .

تســاءل أحمــد متوجس مما يقصده بنهاوي بذلك التعليق بعد أن التفت إليه:

- تقصد إيه؟ بالكلام ده يا أستاذ بنهاوي؟

وضــع بــنهاوي يــده على كتف أحمد البحر.. متجهاً إلى داخل المدرسة ونادى أبو إبراهيم قائلاً:

- والنبي يا أبو إبراهيم.. ممكن تجيب لنا اثنين شاي من القهوة؟

أجاب أبو إبراهيم قائلاً:

- يــا ســلام.. ولــيه القهــوة.. أعملكم أنا اثنين شاي.. صباحي حلوين.

قال بنهاوي معقباً:

- طيب يا عم تشكر.. هات لنا بقى الكرسيين بتوع المدرسين اللي في الفصول.. إحنا حانقعد هنا في الهوا .

لاحظ أحمد.. عدم وجود أحد ما غيرهم بالمدرسة فسأل:

- إيه الحكاية؟ هو مافيش حد في المدرسة ولا إيه؟

أجاب أبو إبراهيم من داخل الفصل وهو يحضر الكرسي:

- أيــوه يا أستاذ.. الناظرة روحت العيال.. ما جاش النهارده غير كام تلميذ.. روحتهم.. وراحت اجتماع.

أكمل بنهاوي ..

- وطبعا اخواننا المدرسين.. ما صدقوا.. اتسرسبوا واحد ورا التاني.. ما عدش غيرنا يا عم .

تساءل أحمد وهو يجلس إلى الكرسي.. الخيرزان المتهالك والذي ربطه.. أبوإبراهيم بدوبارة قوية.. حتى يمكن الجلوس عليه .

- برده.. ما قلتليش.. تقصد إيه بقى يا أستاذ بنهاوي .

سأله بنهاوي:

- عاوز نصيحتي؟

أجاب أحمد البحر:

- طبعاً.. انت زي ما قلت لك قبل كده زميلي وأعز صاحب ليا.. هنا في مصر.

قال بنهاوي.. وقد بدت عليه الجدية غير المعتادة:

- خد اللي تحبك.. أوعى تاخد اللي تحبها.. أحسن تجننك زي ما عمل المسكين كشري.. اللي ضيع ماله كله.. ومستقبله علشان واحدة.. ما تسواش.

تساءل أحمد البحر مستغرباً:

- إيه ده؟ كشري؟.. صبي القهوة؟ كان عنده مال؟

قال بنهاوي:

- يــوه.. أهو كان زيك كده.. جه من الزقازيق علشان يشغل محل الكــوارع اللي ورثه من عمه.. في شارع كلوت بك.. لافت عليه واحــده من اياهم.. بيعته اللي وراه واللي قدامه.. وبعد ما بقاش فــيه فايده.. بعيد عنك ضربته علقه.. في الشارع وحياتك.. كانت فضــيحة.. لمــا خرج من المستشفى.. عطف عليه.. الحاج علي الباشــا صاحب القهوة.. وأهو شغال.. وبيبات في القهوة.. واتلم من يوميها.. بعدما اتعلم الدرس كويس.

سأل أحمد البحر:

- هو اسمه كشري صحيح؟

أجاب بنهاوي:

- أبــداً.. دا اســمه جمــال العســال.. من الشرقية.. لكن حكاية الكشــري دي لزقــت فــيه.. لإنه كان بيحب الكشري.. كل أكله كشري.. الصبح كشري.. الظهر كشري.. حتى بيحلي بالكشري.. ياالله.. له في خلقه شئون.

ثم مالبث أن نهض فجأة.. قائلاً وهو يحيي أحد المارة:

- مرحب يا سيدنا الشيخ.. اتفضل.

ثم عاود الجلوس محدثاً أحمد البحر:

- دا الشــيخ مســعود.. مؤذن وإمام.. سيدي محمد البحر.. راجل كله بركه.

قفز أحمد مسرعاً إلى باب المدرسة قائلاً بلهفة:

- إمام الجامع؟ هو فين؟ أنا عاوز أشوفه ضروري.

تلفت أحمد يمنة ويسرة وهو يكرر سؤاله لبنهاوي الذى تبعه.

- فين هو يا أستاذ بنهاوي.. مشي منين؟

بحث بنهاوي بنظره معه هنا وهناك ثم قال:

- مش باين.. الحارة زحمه.. ياللا مسيره حايبان.. إنت عاوز منه حاجه.. خلى بالك الشيخ مسعود ده راجل مبروك.

رشـف بنهاوي رشفة من الشاي الساخن.. ثم أعاد الكوب على الصـندوق الخشـبي.. الـذي أعده لهما أبو إبراهيم كمنضدة ثم قال مستمتعاً برشفته.

- تعـرف يا أستاذ أحمد.. إن أحسن واحد يعمل شاي في مصر هو أبـو إبراهـيم.. يا أخي.. كباية شاي منه تسوى عشرة من شاي قهوة الحاج على.. تسلم إيدك يا راجل يا طيب.

أجـاب أبو إبراهيم.. وهو يلف سيجارة من علبة الدخان القديمة وقد جلس القرفصاء.. أمامهم.

- الله يكرم أصلك يا بنهاوي أفندي .

علق أحمد البحر قائلا:

- الناس في باب البحر كلهم طيبين يا أستاذ بنهاوي.

قال أبو إبراهيم وهو ينهض معترضا:

- مــش كلهــم يـــا أحمد أفندي.. مش كلهم.. فيه هنا ناس عايزه حش رقبيهم.

قال بنهاوي مصححاً:

- مش ذنبهم برضه يا أبو إبراهيم.

تساءل أحمد البحر:

- أمال ذنب مين يعني؟

أجاب بنهاوي:

- ذنب الزمن الأسود اللي احنا عايشينه ده.

علــق أبو إبراهيم بعد أن قام بطرد القطط المتسللة إلى المدرسة وعاد لجلسته القرفصاء المميزة:

- ذنب الثورة الغبرة.. إللي بلونا بيها.

قال بنهاوي وكأنه يعاتبه:

- يا شيخ.. حرام عليك.. ما تقولش الكلام ده .

تحمس أبو إبراهيم واستشهد بأحمد البحر:

- طيــب خلــيك معايا انت يا أستاذ أحمد.. لما الثورة تخلي الناس كلهـــا.. طمعانــــة.. باصــــة لفوق.. ماحدش راضي بحاله.. الكل بـــيزق.. ويعافـــر.. ويدوس.. كل واحد عايز يبقى أغنى واحد..

وأحســن واحــد.. الــثورة قالــت لهم كده.. الناس كلها قال إيه متســاوية.. مــاحدش أحســن مــنه.. كل واحد عايز يطلع ابنه دكــتور.. ولا مهندس.. أمال مين يزرع بقى.. مين يكنس.. مين يشــيل الــزبالة. يــا راجل دي النسوان البطالة طالعة في موضة اليومين دول.. كل واحدة عايزة تطلع ابنها ..

ثم تلفت حوله في وجل.. وأكمل:

- ضــابط بوليس.. أمال.. علشان يحيمها.. ويحمي اللي زيها بقت موضــة.. وكلــه بقــى كوم.. وتجار الهباب دول كوم كمان لازم يكــون له ضابط في البوليس.. أمال يشتغل ويتاجر في الحشيش إزاي؟ مــن غــير حمايــة!! مــا ينفعشي.. يعني بالبلدي كده.. حاميها.. حراميها.. يا شيخ بلا نيله .

صمت الجميع.. ثم تحدث بنهاوي في حرص :

- لا يا أبو إبراهيم.. مش معقول.. أنا مش معاك في الكلام ده.

ضحك أبو إبراهيم قائلاً :

- اسألني أنا.. قضيت أيام سودة في البوليس .

صمت بنهاوي قليلاً.. متأملاً.. ثم قال :

- تعرف إيه عيب الحي بتاعنا ده يا أبو إبراهيم؟

قال أبو إبراهيم كالعالم بكل شيء:

- حته فقر.. بعيد عنك.

استرسل بنهاوي.. وكأنه لم يسمعه ..

- عيبه إنه مزنوق بين دنيتين.

نظر أبو إبراهيم إليه.. ثم إلى الأستاذ أحمد.. فهو لم يفهم .

فسر بنهاوي قوله:

- باب البحر.. فيه.. بساطة.. فيه فقر.. فيه صبر.. جنبنا بالضبط قريب جداً.. وسط البلد.. شارع سليمان وشارع فؤاد.. الشواربي الأماكن دي كلها محلات راقية.. مش كده؟

زام أبو إبراهيم.. وكأنه على وشك الفهم.. فاسترسل بنهاوي:

- معظـــم بنات باب البحر.. وشبابها.. بيشتغل هناك.. في المحلات الهاي دي يعني.. هناك بقى.. بيقابلوا ناس تانية صنف تاني من البشـــر نســـوان حاجـــة تاينة.. نسوان كلها فلوس.. نسوان ما تعرفش يعني إيه فقر.. ما تعرفش يعني إيه جوع.. نسوان معاها فلـــوس تشتري باب البحر كله.. نسوان فلوسها تخلي البنت من دول البـــنات الغلابـــة.. بنات الحتت اللي زي حتتكم دي.. تقارن تحـــس بالقهـــر.. تحس بإن الزمن ظلمهم.. تحس بالفرق الكبير الكبـــير قوي.. وهم طبعاً شايلين في قلوبهم.. مبدأ المساواة طيب فين بقى المساواة هنا؟.. فين المساواة اللى قالوا لنا عليها.

صاح أبو إبراهيم.. وكأنه وجد ضالته:

- هـــا.. أديـــك قلتها يا بنهاوي أفندي.. فين المساواة؟ وإحنا بنام

نـص بطن.. الست من الناس الهاي تدفع عشرين جنيه ببساطة كـده في فستان.. والبنت اللي قدامها بتحوش خمستاشر قرش.. ولا عشرين.. علشان تشتري جلابية تسترها.

قوللي بزمتك.. مش زمن أغبر.

أضاف بنهاوي قائلاً:

- علـى فكرة يا أستاذ أحمد.. المشكلة مش في الفقر والغنى قد ما هـي.. إن الـثورة علمـت الـناس كلها.. إن مافيش حد أحسن مـنهم.. فـالكل.. وخاصـة الفقرا.. بدأوا ما يرضوش بوضعهم الفقـير.. زي مـا قـال أبو إبراهيم.. الكل عايز يبقى غني زي الـناس الهاي.. ولما ما يقدرش.. يبدأ هنا الإحساس بالقهر اللي ما كانش موجود قبل الثورة.. كل واحد كان راضي بنصيبه.

كرر أبو إبراهيم مؤكداً:

- عليا النعمة.. زمن أغبر.

استكمل بنهاوي.. وكأنه لم يسمع تعليق أبو إبراهيم..

- فـي الحالـة دي.. كل واحدة.. من بنات الغلابة.. لازم تدور لها علـى منفذ.. تنفد منه للناحية التانية.. ناحية الناس المستريحة.. وتـبعد عن الفقر.. وهناك بقى.. مافيش أكثر من المنافذ.. وربنا يستر.. فهمت يا عم؟

أجاب أبو إبراهيم وهو يطفئ السيجارة تحت صندله:

- ربنا يستر.

ثم نهض مضيفاً..

- أنا أمير وانت أمير.. ومين يسوق الحمير.

سأل أحمد البحر بنهاوي قائلاً؟

- أنا ملاحظ إنك.. مركز على البنات قوي.. إيه السبب يعني؟

أجاب بنهاوي:

- يـــا سلام.. النسوان يا أستاذ.. هما الأصل.. هي مفتاح المجتمع انت عارف طبعاً بيت الشعر اللي بيقول:

"الأم مدرسة.. إن أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق"

نســـوانا يـــا أستاذ أحمد.. هي اللي ممكن ترفعنا فوق.. أو تنزل بيـــنا سابع أرض.. وعلى العموم يا سيدي.. رجالتنا برضه أنيل مـــن نسوانا.. بس ما عليهمش نفس الخوف اللي على الحريم.. لإنهم ما عندهمش الجراءة والتطلع بتاع حريم اليومين دول.. هم برضـــه القهـــر طـــايلهم.. بس الخوف راكبهم، بالزمة.. حد من رجالتنا.. يقدر يقول تلت التلاتة كام؟

قال أبو إبراهيم معقباً:

- كان راح ورا الشمس.. والله.

صمت بنهاوي قليلاً.. ثم فجأة تساءل بحماس وغضب:

- تعرف تقوللي كده.. فين راحت أهداف الثورة.

ضحك أبو إبراهيم عن أسنانه الهتماء قائلاً:

- أكلتها الفيران اللي في المخزن الجواني.. ها ها..

تساءل أحمد البحر واجماً:

- تقصد إيه بقى؟ مالها أهداف الثورة هي كمان؟

قال بنهاوي بحماس:

- مالهـــا إزاي؟ مـــش هي خطة الثورة؟ مش هي الأمل اللي إدوه للشـــعب؟.. تعـــرف تقوللـــي راح فين القضاء على الإقطاع.. لو عرفـــت اللـــي بيحصل دلوقت في اللي اسمه الإصلاح الزراعي.. دول الفلاحين بيسموه دلوقت.. الإفساد الزراعي.. بعد ما انحرف عـــن الغرض منه.. طيب بلاش كده.. فين راح بقى القضاء على الاحـــتكار وسيطرة رأس المال.. والنبي.. امشي مرة كده في باب الـــبحر.. ولا الوايلي الكبير أو الشرابية.. وبعدين امشي بقى في الـــزمالك.. أو جـــاردن سيتي.. واسأل نفسك.. فين موجود راس المـــال.. دور كـــده وقوللـــي فيـــن العدالة الاجتماعية وغيره.. وغيره.. وغيره.

لم يعد أحمد البحر.. يستطيع الاحتمال أكثر من ذلك.. شعر وكأن رأســـه يدور.. كما شعر وكأن ناراً ما.. تلهب جسده.. أصبح ذهنه.. وكأنـــه يغلـــي، ما كل هذا الكلام؟ من أين أتى بنهاوي.. بهذه الدراسة

الغريبة.. كيف سمح لنفسه أن يستمع لكل هذه الافتراءات.. كلا.. كل هذا كذب.. كذب وافتراء.. قال محتداً:

- إيه الكلام السلبي ده كله؟.. يظهر إن إنتم مش شايفين بس غير الوحش.. مش شايفين أي إيجابيات.. أي حاجة حلوة.

قال أبو إبراهيم متهكماً:

- يا بيه.. فين بس الحلو ده.. نفسنا ندوقه مرة واحدة.

قال أحمد البحر معاتباً:

- طــبعاً انــت مــا تعرفش حاجة.. ما تعرفش مجانية التعليم.. ما شــفتش البعــثات التعليمــية.. ما تعرفش الخير اللي عمله السد العالــي لمصــر.. كــان زمانــا غرقانين اليومين دول لركبنا في الوحــل.. ما تعرفش الكهربا اللي دخلت معظم القرى والنجوع.. مــا شــفتش كــم المــدارس والمستشفيات، أكيد شفت المساكن الشــعبية.. اللي بنتها الثورة في كل مكان.. ما شفتش اسم مصر الحرة.. وكل العالم بيحترمه.. طبعاً.. ما شفتش حاجة من دي.

قاطعه البنهاوي قائلاً:

- حــيلك.. حــيلك.. مجانــية إيه.. وبعثات إيه.. وسد عالي إيه.. وإنجــازات إيه.. أمال مصطفى كامل.. ولا طه حسين.. ولا قاسم أميــن.. ولا سعد زغلول.. وغيرهم وغيرهم.. مين بعتهم بعثات علشــان يــتعلموا بره.. الثورة برضه؟.. كل العظماء بتوع مصر

اللــي احــنا اتعلمــنا على إيديهم.. اتعلموا وأخدوا دكتوراه إمتى بقــى.. فــي عهــد الــثورة.. يــا أخي.. رجال الثورة نفسهم.. اتعلموا.. ودخلوا الكلية الحربية.. وبقوا ضباط كبار.. إمتى.. في عهــد الثورة قبل ما تقوم يعني معني كده إنه ما كانش فيه حاجة فــي مصــر.. قــبل الــثورة خالص.. لا مدارس ولا مستشفيات أمــيري.. ولا مبرات علاجية مافيش حاجة خالص.. لا طب.. ولا تعلــيم.. ولا فــن ولا أدب يعني كانت مصر لا حول الله خراب.. صحرا..

صمت قليلاً.. ثم أردف وقد زاد انفعاله:

- تعــرف يــا أبــو إبراهيم.. إن قبل الثورة المباركة.. كان الجنيه المصــري.. يســوى جنــيه إسترليني.. وتاخد عليه كمان شوية قــروش.. يعنــي كان الجنيه بتاعنا ده.. أكبر من أكبر عملة في العالم.. الدولار الأمريكي ده كان يسوى حوالي سبعين قرش.. يا أســتاذ أحمد.. دلوقت الدولار بقى يسوى كام جنيه؟ والله مسيره بعد كده يسوى عشرة جنيه.. دا كان الجنيه المصري يا أستاذ له غطــا دهب في العهد (البائد).. يعني له قيمته دهب خالص تعرف دلوقــت إيه قيمته.. بالزمة تقدر دلوقت تشتري من مصر قميص مســتورد.. أو فاتلــة (منتيجو) أو حتى نضارة (بيرسول) إلا إذا كــان تهريــب.. أو في السر.. أو من واحد واصل من إياهم.. ثم تعالى هنا.. إيه حكاية السد العالي.. اللي سد على الأرض طريق

الغريـــن اللـــي بـــيغزيها.. فضــعفت.. وفين راحت بقى القناطر الخـــيرية.. ولا سد أسوان.. ولا الترع اللي انشقت قبل الثورة.. بييجـــي ستين سبعين سنة.. كل ده إتعمل ليه علشان سواد عيون الخديوي.. ولا علشان تحسين الزراعة..

قال أحمد مقاطعاً:

– برده نسيت إنجازات الثورة.

قال بنهاوي:

– يا عم بس.. إنجازات إيه؟ يعني من غيرها ما كانش حايبقى فيه إنجـــازات في مصر.. حاتفضل إلى الأبد محلك سر.. ما إطورتش قبل كده أبداً دلوقت ما شاء الله.. كلها خير.. مافيش ظلم مافيش خـــوف.. مافيش قهر.. كل واحد يقدر يقول اللي في نفسه.. يعبر عـــن رأيه.. مش حرية بقى؟.. تفتكر يا أستاذ أحمد.. ممكن أطلع أقـــول الكلام ده مثلاً على القهوة.. أنا ولا غيري.. براحتنا بقى.. مـــا هي حرية هو ده رأيي.. صح ولا غلط.. أهو رأيي.. أنا حر فيه تفتكر أقدر أعمل كده؟

قال أبو إبراهيم وهو يشعل سيجارته الثالثة:

– والله كنـــت طـــرت في لمحة عين.. ولا حد يعرف لك مكان بعد كده.

قال أحمد البحر:

- أنـا مـش فـاهم إنتم بتقولوا كده ليه.. مع إن ثورة ٢٣ يوليو كانـت فاتحة خير.. لثورات كثيرة.. اتحررت من الاستعمار للأبد ووقفت ثورة مصر.. جنب جميع الأحرار في كل العالم.

صاح بنهاوي مؤمناً على كلام أحمد البحر:

- أيـوه.. علـيك نـور.. إيشي الكونغو.. إيشي الجزائر.. إيشي بوليفـيا.. كوبـا.. بلاد واء الواء.. في آخر الدنيا، يا عم دا احنا كـنا بنصرف في اليمن بس مليون جنيه في اليوم مليون جنيه يا راجـل.. شوف يأكلوا كام واحد كل يوم.. حاربنا في اليمن ضد عـرب زينا.. مسلمين زينا.. مات من شبابنا كام.. ومن شبابهم كـام.. علشـان إيه يعني.. علشان مش عاجبنا الملك فيصل.. يا سلام!!

قال أحمد البحر مبتسماً في غيظ:

- أنا مش عارف.. إنت متحامل على الثورة ليه.. أكيد فيه سبب.. مخلّي.. قلبك مليان كده.

أجاب بنهاوي:

- أبـداً والله.. أنا خايف على بكره.. على الشباب اللي زيك كده.. إذا كـان كل يوم بييجي.. أوحش من اللي قبله، تعرف تقوللي يا أسـتاذ يـا فـنان.. إيه اللي جابك هنا؟ تعرف تقوللي.. مكانك.. المفـروض يكون فين؟.. تفتكر مكانك هنا.. في مدرسة ابتدائي.. فـي حـي شعبي.. ما حدش سمع عنها ولا مكانك.. هناك.. على

وش الدنيا؟.. تعرف تقوللي إيه اللي رماك هنا؟

وجم أحمد البحر.. ولم يجب.. استطرد بنهاوي:

- أقول لك أنا يا سيدي.. اللي رماك هنا.. البيروقراطية.. الجهل.. موظفيــن حكومة.. جهلا.. قاعدين على مكاتب ما يعرفوش غير الــورق.. ورق وبــس.. ورق فيه أسماء قوائم مكتوبة قدامهم.. كــل البشــر عــندهم.. أســماء في قوائم.. مكتوبة على ورق.. مافيش حد فيهم عنده القدرة أو الرغبة.. أو الاستعداد إنه يفكر.. ويفكــر ليه ولمصلحة مين؟.. وعلشان إيه؟ وحايكسب إيه؟ أهو موظف.. يقبض راتبه آخر الشهر.. وله برضه مشاكله المتلتلة.. اللــي ما حدش.. حايفكر له في حلها طيب يفكر في غيره ليه؟.. ما يتحرق يا أخي.

آدي احنا.. وآدي اللي وصلنا له.. لا يا أستاذ أحمد.. عمرنا ما كــنا كــده.. ولا فكرنا في يوم من الأيام إننا ها نكون كده.. الكل خــايف مــن الكل.. الكل عايز نفسه وبس.. الكل عايز يلحق أي حاجــة.. وإلا داســوه الــناس الجايين من ورا.. برجليهم.. ولا حدش هايسأل عنه.. راح فين.. ولا مين هو.. ده.

تساءل أحمد البحر في نفسه:

- إيه حكاية بنهاوي؟ دا كان يقعد في القهوة؟ رأيه دايماً هامشي.. قــاعد يغنــي.. ويتــنأور.. وبــس.. قاعد يضحك لا عنده حاجة حلــوة.. ولا حاجــة وحشه.. حتى من شوية كان معارض.. أبو

إبراهــيم.. لما تطاول على الثورة إيه اللي خلاه فجأة يبعبع.. بكل الكلام ده؟ فيه إيه؟ ماله؟ إيه اللي في باله؟

قال أبو إبراهيم مفتياً.. وكأنه العالم ببواطن الأمور مرة أخرى:

- تعــرف يــا بــنهاوي أفــندي.. مصر دي مش حاتتعدل إلا لما تجيلها.. خبطة من عند ربنا.. تفوقها.

قال بنهاوي مؤمناً على كلامه:

- والله عندك حق يا أبو إبراهيم.. الناس الكبار اللي ماسكين البلد نســيو روحهــم، خدتهــم الدنــيا.. عبد الناصر حايعمل فيهم إيه يعنـــي؟.. لازم تيجي من عند ربنا من فوق علشان يفوقوا.. إنت عــارف يا أبو إبراهيم إن ربنا قال في كتابه الكريم "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً".

قال أبو إبراهيم معارضاً:

- ماتخــافش يــا بنهاوي أفندي.. مصر طول عمرها محروسة من كل شر.. إنشاء الله محروسة.

شرد بنهاوي بعيداً.. وهو يعلق:

- طــبعاً.. إنشــاء الله.. محروسة من أعدائها.. ربنا بقى يحرس عيالها من عيالها.

سـعد أميـن طنطاوي.. هو اسم (الشيخ سعدية) الحقيقي.. الأخ الأصـغر للحـاج أمين أمين طنطاوي.. الذي باع محل والدهما.. ذلك المحـل الصـغير لبـيع الحمـص والحلوى بميدان الأحمدي بطنطا.. واشترى بدلا منه مصنعاً للحلوى بالشرم الكبير.. تلك الحارة الواسعة جـداً.. الحقـيرة جـداً الموصـلة بيـن شارع الفجالة. وشارع بين الحارات.. الموازي لباب البحر.

الشخص الوحيد الذي أبقى عليه الحاج أمين طنطاوي من عمال المصـنع القدامـى هـو (الواد الفراش الغلبان) سليمان الثور.. ذلك الشاب القوي كالثور.. ذو العينين الشاخصتين.. والأفق المحدود.

كانـت لـدى سـليمان الثور.. قدرة هائلة على الأعمال اليدوية الدونـية.. كالتنظيف.. والغسيل.. والمسح.. والرش والكنس ثم امتد نشـاطه بعد ذلك إلى بيت الحاج أمين.. فكان نعم الخادم المجتهد الذي لـم يكلـف الحاجـة زوجة الحاج أي مجهود.. كانت لديه قدرة هائلة أخـرى وهـي التقرب إلى الناس.. والتودد لهم.. وإشعارهم بإخلاصه المـنقطع النظـير.. كسـب ود الجميع.. فيما عدا الأخ الأصغر للحاج أميـن (سعد أمين).. لم سيتطع التقرب إليه.. كان التوتر الشديد.. هو الطابع المميز لعلاقتهما.. منذ لقائهما الأول.

حينما دخل سعد أمين المصنع أحد الأيام.. شاهد سليمان الفراش

يجالس إلى مكتب الحاج الكبير.. في غير وجوده.. صفعه وأنبه قائلا:

- إيـــاك أشوفك مرة ثانية قاعد على كرسي الحاج.. ياللا يا حمار شوف شغلك.

وظلت الكراهية والحقد يأكل قلب سليمان الثور.. متحيناً الفرصة ليأخذ بثأره.. يوماً ما.

كـــان الحاج أمين قد جاوز السبعين عاماً.. حينما توفيت زوجته، قـــال له ســـليمان البكري (الثور).. وهو يخلع عنه عباءته وطربوشه متسائلا:

- حاتفضل كده.. وحداني يا حاج؟

تساءل الحاج مبتسماً:

- تقصد إيه يا واد يا حمار انت؟

أجاب سليمان وهو يخلع عنه حذاءه.. ويدلك قدميه:

- إنـــت محـــتاج واحـــدة.. تونسك يا حاج.. بصراحة يا حاج لازم تتجوز.

قال الحاج وهو يجلس إلى مكتبه:

- روح يا واد هات لى القهوة.. روح جتك جنازة.

ثم ابتسم بعد خروج الخادم.. وناجى نفسه:

- قال أتجوز قال!! بعد المرحومة؟

صمت قليلاً.. ثم عاد وقال:

- وليه لأ؟ الواد ده عنده حق.

ثم مالبث أن نفض هذه الأفكار قائلا:

- اللهم اخزيك يا شيطان.

وهكـــذا.. لـــم يـــترك (الشـــيطان) الحـــاج أمين.. إلا وقد زوجه (نعمـــات) إحـــدى العـــاملات بالمصنع.. التي لم تكن جميلة بالمرة.. ولكنها.. شابة (فايرة) كما يقول عنها سليمان:

"بنت زي الفرس صحيح".

اعترفـــت بفضل سليمان وحملت جميله الكبير بسذاجتها وبتوجيه مـــن ســـليمان.. تعلمت الفتاة البسيطة.. استطاعت في أيام قليلة.. أن تـــتعلم كـــيف تداعـــب الحاج.. كيف تشعره بحبها له.. ورضاها عن فحولـــته.. حتى عشقها الشيخ الطاعن.. وتعلق بها.. متمنياً رضاها.. فقـــد أرته أياماً.. لم يرها طوال زواجه السابق.. كانت تثيره.. بطرق كثـــيرة.. تعلمـــتها من سليمان طاعة له.. وعرفاناً بفضله.. لشدة دلع الفـــتاة.. وإثارتهـــا كانت غيرة الحاج طاغية.. حبسها في البيت.. لا يـــراها أحد غيره.. لا يستمتع بهذا الجسد المثير غيره.. لا أحد يدخل بيـــته إلا (الواد سليمان الغلبان) لقضاء حاجياتها.. وهكذا كان سليمان يقضي (حاجيات) نعمات الشابة (الفايرة).

اضـــطر ســـعد أمين للسكنى وحده في شارع باب البحر القريب..

مـــنعاً مـــن القـــيل والقال.. منعا من الفتنة.. فهو يرى الفتنة بعينها مجسمة في زوجة أخيه.. نعمات.

عشـــقت نعمـــات.. سليمان الثور الشاب الفتي.. بشكل مرضي.. فمـــع عجـــز زوجها الشيخ.. التهب حبها لسليمان.. كانت شقة الحاج أمين بشارع الفجالة.. هي عش غرامها.. المنيع.

علمهـــا ســـليمان كـــيف تساوم الحاج على كل شيء.. القبلة.. الرقصـــة.. الآهـــه.. كل شيء بثمنه.. وكان الثمن يدفع لها بسخاء.. فقط لترضى عنه.. وتريه من الغرام ما لم يعرفه.

كتـــب لهـــا الشـــقة.. (بـــيع وشـــراء).. ثم حساب بالبنك وبعد مســـاومات عديـــدة.. وصراعات قاسية على الرجل العجوز.. أخيراً.. كتـــب لهـــا المصـــنع.. أيضاً (بيع وشراء).. أخيراً أصبحت تملك كل شيء.. حتى روحه ذاتها.. ظهرت الحقيقة المرة إنها تنفر منه.. تنفر مـــن جســـده العاجـــز المترهل.. تكرهه تشمئز من قبلاته.. لمساته.. رائحته.

حـــبها الوحيد –تلك الفتاة البسيطة.. التي وجدت نفسها فجأة في هـــذا العالم– هو سليمان الثور لم يحتمل قلب الرجل المريض كل هذه الحقائق بعد أن عاش في وهم كبير.

لـــم يكن سعد أمين.. الأخ الوحيد.. الشاب للحاج أمين يعلم شيئاً عـــن كـــل ذلـــك.. فهو تربى في كنف أخيه ولم يكن له أن يسأل عن شيء.

مـــا لبثت أيام العدة.. بعد وفاة الحاج أن تمضي حتى تزوجت من فــتاها.. أيام أخرى وكان سليمان الثور الذي عرف بعد ذلك أن اسمه الحقيقــي ســـليمان الـــبكري يتحكم في كل شيء.. المال.. المصنع.. المنزل (بتوكيل عام).

يوم أن أعاد سليمان البكري الصفعة لسعد أمين قائلاً:

– إيـــه اللـــي دخلك مكتبي يا كلب.. أوعى مرة ثانية أشوفك تقعد على كرسي سيدك.

ذلـــك اليوم.. حقق سليمان البكري انتقامه.. تخلص سليمان من (نعمات).. طلقها.. تزوج إحدى الجميلات.. إبنة وكيل وزارة.

كـــان سليمان البكري.. قد حول.. مصنع الأمين للحلوى.. أشهر مصـــنع حلوى بالمنطقة.. إلى معرض للسيراميك والأدوات الصحية.. حـــاول سعد أمين.. استعادة حقه عدة مرات.. ولكن كيف؟ بالقانون؟.. لا يملـــك ما يثبت به حقه.. بالقوة؟ من أين له بالقوة؟.. كانت معارف ســـليمان الـــبكري (رجـــل الأعمال) وخاصة في سلك الشرطة.. سنداً كبـــيراً له.. فلـــم يكـــن مـــن الصعب عليه أن يصبح عضواً بالاتحاد الاشـــتراكي.. بعـــد أن توطـــدت معرفته بالكثير من.. رجال الدولة.. ومراكز القوى.

كـــان لابـــد له مـــن ردع.. وتأديب.. وترهيب سعد أمين.. الذي عرف في أقسام الشرطة.. المعنى الحقيقي للذل والجبروت.. والظلم.. ذاق أكف المخبرين القوية.. عرف معنى كعب داير.. للتحري عنه في

أنحاء البلاد.. عرف معنى ضعف الفقير.. وفقر الضعيف.

ولكنه رغم ذلك.. لم ييأس.. بل أصر على المحاولة لاسترجاع حقه المسلوب.. فكان لابد من زيادة الجرعة.. لإسكاته تماماً حيث كان لوقع هدايا.. سليمان البكري.. عضو الاتحاد الاشتراكي عن الحي كله.. وصاحب محلات البكري الكبرى.. أثر كبير في كيفية إسكات سعد أمين.

كانت الأيام والليالي التي قضاها في الحجز الملحق بقسم الشرطة كافية لتحويله إلى (سعدية).. تحت وطأة الخيرزانة المشهورة والمنفاخ القاسي.. كان لابد أن يجيب على السؤال المستمر.

- إسمك إيه يا مَرَة؟

بأن يقول غصباً.. وقهراً:

- اسمي (سعدية).

وإلا عادوا.. يثبتوا له.. بنفس الجبروت.. أنه فعلاً.. (سعدية).

استسلم أخيراً سعد أمين.. استسلم للأمر الواقع لم يجد له ملجأ.. يختبئ فيه.. إلا عباءة الدرويش (العبيط) المشهورة.. وقد وضع حول عنقه.. ميداليات كثيرة.. لبطولات الضعف.. والقهر.. والخضوع.. وقلة الحيلة على هيئة.. مسابح كثيرة ملونة.. ومنوعة.

ليكن اسمه (الشيخ سعدية) لم يعد لديه شيء مهم بعد أن فقد

مالــه.. وكرامــته.. وشــرفه.. ورجولته.. مرات ومرات.. في ظلام غــرفة الحجــز المهيــن القاســي.. لا يستجاب لصرخاته تحت وطأة العذاب والألم القاتل.. إلا لضحكات وشهقات.. مقززة. وهكذا تم محوا اســمه تماماً.. بميلاد رجل آخر (أهبل.. عبيط.. مسالم) يدعى الشيخ سعدية الذي يستلم يومياً من المقدس جرجس.. صاحب المقلة الكبيرة بمــيدان المحطــة.. ملء قرطاس كبير من (الفول السوداني بقشره).. يضــعه فــي القرطاس الضخم.. من ورق اللحم المقوي.. يعلقه على صــدره.. بشريط عريض من القماش (يسرح) به في الشوارع.. ماراً علــى المقاهــي والمحلات والبارات واضعاً (كبشة من الفول.. بركة الشيخ سعدية) على الطاولات.. يعطيه الزبون (إللي فيه القسمة).. قد يقف مرة مع هؤلاء مغنياً.. راقصاً.. بكيس السوداني.. أو يقف مرة مــع الآخرين مطلقاً نكتة.. وربما يجلس القرفصاء في إحدى المقاهي قاصاً قصة خرافية من قصص الجن والشياطين.. أولاد الحرام.

لا أحد يهتم به.. أو ما يقوله أو يفعله.. فهو رجل (مجذوب).

الوحــيد.. الــذي عرف قصته الحقيقية (خلاف سليمان البكري.. وربــنا..) هــو.. الأســتاذ بنهاوي.. الذي لا يدري حتى الآن.. لماذا جلــس الشــيخ ســعدية إلى الأرض بجواره يوماً ما.. وقص حكايته كلها.. من الألف إلى الياء.

ثم بعد ذلك.. لم يفتح فمه لأحد بمعاناته أبداً.. وكأنه قد نسى كل شــيء.. وكأنــه قــد محا كل شيء من ذاكرته.. وعاش مع الفول..

والنكت.. والغناء والرقص المثير للضحك.. والشيخ سعدية.

ولكن الحقيقة أنه لم ينس.. حيث يحمل في أعماقه المظلمة آلاماً قد دفنها.. وأمالاً فوقها.. جبل سميك من النسيان.

حـــتى أمله الوحيد.. قد نسيه.. ما عاد يحلم به.. ذلك الأمل الذي طالمـــا راوده ســـابقاً.. الأمل في أن يعود يوماً ما.. إلى بلده طنطا.. ليشـــتري محل والده القديم.. محل الأمين لبيع الحمص والحلوى.. في مـــيدان الأحمـــدي الكبـــير بجـــوار السيد البدوي.. حيث يلقى بجسده الممـــزق في أحضان ذلك المحل الصغير جداً.. الدافئ جداً.. بحنان لم يعد له مثيل.

نســـى كـــل ذلـــك الآن وعـــاش مختبـــئاً من الحكومة وسليمان البكري.. داخل (الشيخ سعدية).

خـــرج أحمـــد البحر من المدرسة.. ثائراً.. فهو لم يكن يحب أن يسمع كل هذه الافتراءات على الثورة.. كل هذا كذب..

مـــازال أحمـــد البحر مؤمناً أن رجال الثورة.. شرفاء.. وأن هذا العصـــر.. عصـــر الشرف.. وأن هذا الجيل.. يكافح رجاله ومسئولوه بشرف.. من أجل الأمة.. من أجل مصر.. وأن عهود الظلم قد ولت.

إنه لا يصدق بنهاوي.. ولن يصدقه.. هذا الرجل الذي كان غالباً مـــا يجلـــس بعيداً عن نقاشات السياسة بالمقهى.. فكيف يقول كل هذا الكـــذب والافتراء.. بالمدرسة.. منتهزاً خلوها من الناس.. لو كان ما قاله صدقاً.. لقاله بالمقهى.. على الملأ.. أمام الجميع.

أكـــيد أن بنهاوي يعرف جيداً.. ما قدمته الثورة.. ورجالها لمصر ولشعب مصر البسطاء..

روَّح يا بيه.. الدنيا شايطة برَّه.. المظاهرات ماليه البلد قالها له (ياســـر الأعور) بائع البخت.. وهو يدخل جنينة مفتاح مهرولاً حاملاً بيـــن يديـــه.. لوحـــة البخت الشهيرة.. التي يصنعها بيديه.. من بقايا الجـــرائد والمجـــلات.. ومعجون النشا اللاصق.. يصنعها عيوناً كثيرة صـــغيرة.. واضعاً في كل عين.. قطعة صغيرة من الحلوى.. أو مليماً أو مليمين.. أو عروسة (ننوس الصغيرة) التي يحبها الأطفال كثيراً.. وأحـــياناً يضـــع فـــي إحدى العيون (قرش تعريفه) كاملاً.. أو لا يضع

شـيئاً بالمـرة (كـل واحد وبخته) حيث يفقع الطفل.. العين الورقية بإصبعه ويستخرج منها بخته.. فرحاً (العين الواحدة.. بقرش تعريفه) تمامـاً مـثلما فقعت عينه اليمني من سنوات لا يذكرها بسبب (قرش تعريفه).

لـم يسمع أحمد البحر ما قاله (ياسر الأعور).. حيث ذهنه مازال فـي عـذاب محادثـة الصباح.. المفجعة.. فتخطاه.. إلى شارع باب الـبحر.. ثـم توقف فجأة.. لابد وأن يحدد أين يذهب الآن؟ إنه يشعر باختناق شديد.. لابد له من الخروج من هنا.. حالاً.

قرر أن يذهب إلى وسط البلد.. يتمشى قليلاً.. ثم يذهب إلى سور الأزبكـية.. فهـناك فقط سيجد مهرباً مريحاً لذهنه.. فمتنفسه هناك.. بين الكتب.

فطالمـا اعـتاد.. منذ أن كان طالباً.. أن يهرول إلى هناك حيث يغـرق همـه.. بين صفحات كتاب أو اثنين.. ربما ثلاثة.. روايات.. قصـص قصـيرة.. كتـب تاريخية.. كتب سياسية.. كتب دينية.. كل شـيء هناك.. إذن فليذهب رأساً إلى هناك.. فالوقت مازال مبكراً على موعد صديقه طارق مرسي.

كـان الوقـت دائمـاً.. يمـر في سعادة.. وهو يقلب بين الكتب المصـفوفة علـى السور.. يغوص فيها.. سائحاً.. هنا وهناك.. تمر السـاعات دون أن يشـعر بها.. في زحام أمثاله.. من طلاب المعرفة المنتشـرة هـناك.. علـى الرصـيف.. تلـك الكنوز المدفونة.. بين

الصـــفحات.. وكم صارت صداقات.. ومناقشات بين رواد هذا المكان.. كـــل له رأي.. كـــل له فكــرة.. فـــي كـــتاب أو آخر.. كم دارت تلك المناقشـــات.. وبرزت منها أفكار.. واحتجاجات.. يغوص فيها كل هذا الكـــم مـــن الشـــباب.. فـــي تلـــك الأحلام الحلوة المتنوعة بعيداً عن حاضـــرهم.. باحثين عن بارقة أمل أُخبروا بها يوماً.. مستطلعين شكل ولون مستقبل.. غامض.. مشوش.. متخم بوعود وآمال.

مازالـــت المظاهرات تتواتر.. الواحدة تلو الأخرى.. وكأنها تبحث لهـــا عن مستقر.. أو تبحث عن شيء ما.. ومازالت الوعود مستمرة "بالـــروح بالدم نفديك يا جمال" ومازالت الفتاوى تعلن "اليوم حرام فيه العلم".. ومازالت القرارات تتخذ "حنحارب.. حنحارب".

دلـــف أحمـــد الـــبحر من باب كافتيريا فندق ناشيونال.. بشارع ســـليمان باشا.. ذلك الباب الخشبي.. الدوار الفخم.. وهناك.. في هذه المســـاحة الشاســـعة.. تلك القاعة.. ذات النوافذ الكبيرة العالية.. ككل نوافـــذ بـــنايات وسط البلد القديمة.. تلك النوافذ المطلة على الشارع مباشرة.. كانت لوحة راقصة البالية الضخمة جداً.. معلقة على الجدار المواجـــه لـــتلك الـــنوافذ.. وكم تساءل أحمد البحر.. هل هذه اللوحة القديمة من أعمال (إدجارديجا) حقاً أم أنها مجرد تقليد؟

كانـــت اللوحـــة.. مـــن الضخامة.. والفخامة.. بحيث زادت هذه القاعة.. رصانة.. وهدوءاً.. وجمالاً.

علـــى آخـــر منضـــدة.. في نهاية الصالة.. تحت النافذة الأخيرة

جلس أحمد البحر.. وفتح أول كتاب قد اشتراه اليوم.. في لهفة شديدة لقــراءته.. إنها ترجمة لكتاب (هكذا قال زارادشت) للكاتب الفيلسوف الألمانــي (فــريدريك نيتشــه) ذلك الرجل المريض الضئيل الجسم ذي الشــارب الكــث.. الذي طالما.. تحدث عن الرجل المثالي أو (السوبر مــان).. مــا هــذا التــناقض؟.. كم أن الحياة حقاً مليئة بالمتناقضات الغريبة.

لم يستطع أحمد البحر التركيز في القراءة.. لعدة أسباب:

أولاً: غــرابة أســلوب المترجم.. ثانياً: شدة عمق فلسفة الكتاب ومعانــيه المتشــابكة.. المجنونة التي في حاجة للقراءة بتركيز غير مــتوافر له الآن في هذا المكان.. وسط البلد.. وشارع سليمان باشا.. وتعــدد أشكال وأنواع الناس فيه.. حيث كم هائل من المتناقضات التي تعبر أمام نافذته الآن.. أكثر تحييراً.. من كل فلسفات نيتشه.

رفــع عينيه عن لغط أهل الشارع.. إلى البنايات المطلة عليه من الجانــب الآخــر.. ناظــرة إلــيه بشيء من فخامة.. وأرستقراطية.. وأصالة.. وبهاء.. وكأنها تعرض بفخر.. تلك الزخارف والتماثيل التي تزيــن أركانها.. ونوافذها.. وشرفاتها.. وبواباتها.. بشيء من فخر.. بــتلك الدقــة.. والإخلاص.. والاهتمام بأدق كل هذه التفاصيل إلى أن صــرخت فــي وجهــه (بــبجاحة) عمــارة حديثة.. ارتفعت بنشاز.. وصــخب.. بــنوافذها الضيقة.. الخانقة.. وسطحية شكلها ومعانيها.. وفجاجة ألوانها.

تســـاءل.. كـــيف تركت الدولة.. لصاحب تلك العمارة الحرية في بناء هذه الجريمة الحديثة.. الشاذة.. وسط كل تلك العراقة.

لمـــاذا.. لا تهـــتم الدولة بكل هذا التراث من القاهرة الخديوية أو القاهـــرة الفاطمية.. في مواجهة.. هذا الغزو الخرساني القاسي؟ لماذا لا تقـــوم الدولـــة مـــثلاً.. بـــرعاية وصـــيانة.. وغسيل تلك البنايات وترمـــيمها.. لأنها حقاً.. ثروة فنية.. ولن يعود التاريخ القهقري لتلك الأيـــام.. لبـــناء مـــثلها.. لمـــاذا.. لا نتعلم من الدول الأخرى.. كيفية الحفـــاظ علـــى تراثـــنا.. وتاريخـــنا.. لماذا لا يمنع مرور السيارات.. بعوادمهـــا السوداء الملوثة.. من شوارع تلك المنطقة.. وغيرها.. من الأماكـــن التراثـــية الطابع سواء بالقاهرة.. أو غيرها من مدن مصر العريقة.

لـــم يكـــد أحمد البحر.. يعود بعينيه من جولته تلك.. حتى فوجئ بعكســـرى المراســـلة الخـــاص بصـــديقه طارق.. يقف أمامه.. متلفتاً منكمشاً.. مذهولاً.. ولابد أنه لم يدخل مكاناً مثل هذه القلعة من قبل.. كـــان أفضـــل مكـــان قـــد رآه في حياته من قبل هو (دوار العمدة).. بزخارفه.. الركيكة.. الصارخة.

بادره العسكرى قائلاً.. بلهجة مترددة.. خائفة.. دونية المقام.

– حضرة الضابط طارق.. عايز حضرتك.. تيجي معايا دلوقت يا فندم.

سأله أحمد مبتسماً:

- خير إنشاء الله.. هو مش جاي ولا إيه؟

أجاب الجندي المجند:

- أصـــله عـــازم ســـيادتك.. يـــا فندم.. في العوامة يا فندم اتفضل ســـعادتك العربية الجيب بتاعة سعادته واقفه تحت مع السواق.. يا فندم.

نهـــض أحمد البحر واقفاً.. وربت بمودة على كتف الجندي تهدئة من رهبته الواضحة قائلاً:

- ماشي يا عم.. ياللا بينا.

وجـــل الشاب حينما لمسه أحمد البحر.. وانتفض خائفاً.. مبتعداً وكأن أحمد البحر.. سيصفعه بتلك اليد العلوية.

دخـــل أحمـــد البحر.. العوامة الأنيقة.. الرابضة على مياه النيل الســـاحر.. فـــي مـــيدان الكيـــت كات.. استقبله النقيب طارق بترحاب شـــديد.. مرتدياً.. شورتاً.. فقط شورتاً ملوناً لا غير.. لا شيء آخر.. اللهم إلا شبشب الحمام.. صافحه بشدة مرحباً.. وبادره قائلاً:

- تعـــالى يا أحمد.. تعالى أعرفك على الشلة.. طبعاً إنت أول مرة تيجي لي العوامة مش كده؟ إيه رأيك فيها؟

أجاب أحمد البحر بتواضع:

- جميلة جداً.

عقب طارق.. مبادلاً تواضعه بشكل تواضع:

- آهي حاجة.. الواحد يسلي فيها وقته.

عقب أحمد بصوت حزين:

- إدعى للقوات المسلحة.

كـان الجالسون بصالون العوامة.. أربعة أشخاص.. رجل وثلاث فتـيات.. كانـت أطولهـن.. تـرقص على أنغام موسيقى أغنية فريد الأطرش.. جميل جمال.. مالوش مثال.. هدأ الجميع عند روية الضيف الغريب.. قام طارق بمهمة التعارف.

- أعـرفك علـى الـرائد سليم العزازي.. زميلي في سلاح الدفاع الجـوي.. والطويلة الهبلة دي (زيزي) البت بتاعتي.. ودي بقى نـوال (رفـق) الرائد سليم.. أما بقى الأمورة الصغنطوطة دي.. فهي هديتي ليك (توته)..

ثم وضع يده على كتف أحمد البحر.. موجهاً كلامه للآخرين:

- وده بقـى يا جماعه.. أحمد البحر.. أعز صديق ليا.. من أيام ما كنا عيال.. واحنا صحاب.. ما افترقناش أبداً.

أحمـد البحر.. أبوه القبطان جابر.. صاحب العمارة إللي ساكنين فيها.. في الإسكندرية.. ما انت عارفها يا سليم.

لـم يكـد أحمد البحر يجلس.. حتى دخل الجندي المجند.. ومعه السـائق - المجند أيضاً- بصينيتين كبيرتين.. عليهما كمان هائلان.. مـن الفاكهـة.. وكأنهـا وليمة فاكهة كبرى كانت الصنيتان عامرتين

بشـــتى.. بـــل كل أنواع الفاكهة.. حتى الفاكهة النادرة.. وفاكهة.. في غير موسمها.. كيف؟ كيف أتى بها.. أجاب طارق بشيء من فخر:

- دا شـــغل الدفعـــة بقـــى.. أنـــا بس بعثته لواحد صاحبي ضابط بوليس.. هو اتصرف بمعرفته.

قام بتقشير.. برتقاله.. قائلا:

- كـــل يـــا عـــم كل.. هو أكل وبحلقه عنين.. اتسلى لغاية ما يجي الغدا.. كل برتقال.. دا مش أوانه على فكرة.

إلـــى أن جـــاء الغداء.. الذي شمل هو أيضاً جميع أنواع اللحوم والطـــيور والأسماك.. كانت زجاجات البيرة الكبيرة.. تفرغ الواحدة.. تلو الأخرى.. حيث يعيدها المجندان إلى صندوقها.. الكبير.

رغـــم تـــنوع الطعـــام.. ورغـــم رائحته الزكية.. النفاذة.. ورغم الجـــوع إلا أن أحمـــد البحر لم يتلذذ بلقمة واحدة منه.. لم يكن يدري سبب انقباضه بهذه الطريقة.. في هذا الجو الاحتفالي الصاخب.

انســـحب كـــل من طارق وسليم.. كل بصحبة فتاته.. إلى إحدى الغـــرف (ليستريحا.. راحة القيلولة) حتى يستطيعا.. استكمال السهرة مساءاً.. أغلقت الأبواب.

مـــا كـــادا يـــتركانه.. مع تلك الفتاة الصغيرة (توته) حتى تسلل الحرج.. والتوتر إلى بدنه.. بادرته الفتاة سائلة:

- إنت اسمك إيه؟

أجاب بتلعثمه الملحوظ:

- أحمد.

ثـم.. سـاد صمت مرة أخرى.. رأى أنه وجب عليه.. مبادلتها الحديث:

- إنت.. اسمك الحقيقي.. توته؟

ضحكت بخجل ثم أجابت:

- طبعاً لأ..

سألها.. مواصلاً الحديث.. مرغماً:

- أمال إسمك إيه؟

أجابت:

- ما فيش داعى.

استمر في الحوار.. كالظريف:

- اسمك.. ما فيش داعى؟

ضحكت بقوة.. وأجابت.. كالضاحكة:

- على فكرة.. إنت دمك خفيف.

صمت أحمد أخيراً.. وقد احمرت أذناه.. عرفت بخبرتها أنه (غير راغب).. صمتت قليلاً.. ثم قالت:

- تحب نقعد في الفراندة؟ هوا النيل حلو قوي.

نهض.. دون أن يجيب وتبعها.. وكأن المشكلة مرت بسلام.

كانـــت الفـــراندة.. على النيل مباشرة.. قريبة جدا منه وكأنها.. تقبل مياهه.. مواجهة للشاطئ الآخر.. الزمالك.. حيث.. العالم الآخر.

شـــعر أنـــه يمكـــنه.. أن يمد يده.. ليغترف من مياه النيل.. التي كانـــت.. تداعـــب جوانب العوامة.. بلطمات رقيقة.. هامسة تحكي لها قصتها.. وتشاركها حزنها وغضبها.

عقصـــت (توتـــه) شعرها.. خلف رأسها.. فقد تلاعب به النسيم مداعـــباً.. وهـــي ســـعيدة.. لعدم إلحاحه بأن يعرف اسمها الحقيقي.. (فتحية).. وأنها من الزاوية الحمراء.. تلك المنطقة الشعبية.. الفقيرة أيضاً.. المتشبثه أيضاً.. على أمل.

هـــناك.. فـــي زحام الزاوية الحمراء.. يكدح الرجال.. حيث يُشتم عـــرقهم.. أيضـــاً.. فـــي كـــل شبر.. وكل ركن.. يكدحون.. محاولين إزاحـــة.. ذلـــك الفقر الجاثم على صدورهم.. متسائلين.. لماذا يخص الفقـــر محبـــته.. وعشرته لناس.. دون الآخرون.. هناك.. العجوزة.. الـــزمالك.. جاردن سيتي.. المهندسين.. لماذا ليس هؤلاء؟.. يزيدهم الألـــم يأساً حينما يظهر أمام أعينهم ذلك التباين جلياً.. يظهر كالوحش الكاسر.. الساخر.. يأكل عقولهم.. وقلوبهم.

ذلـــك التباين بين حياتهم.. والحياة هنا.. بين شققهم التي بالكاد تســـمى ســـكن.. وفيلات وقصور وشقق هناك.. نسائهم المكفهرات.. الغاضبات.. القانطات.. الصائحات في مشاجرات يسقطن فيها رفضهن

لواقعهــن.. وبيــن ســيدات هناك.. بين حاراتهم الضيقة.. المختنقة بأكوام وأكوام من القمامة.. وبين شوارع هناك.. النظيفة.. أنظف من أجســادهم.. بين بناتهم وأولادهم.. حيث يخرج كل منهم.. محاولاً أن يجــد لنفســه مكاناً.. تحت شمس الحرية.. والرخاء.. شمس الثورة المــباركة.. مصــدقين أنهــم.. في عصر الرخاء والعدالة الاجتماعية حقاً.. وشباب هناك.. لا يحمل أي هموم.

فشــباب هنا يخرج للبحث هنا وهناك.. عله يعثر على شيء من ذلك العدل..

ولأن معظــم أهل هذا الحي من العمال.. فقد كان من الطبيعي أن تكــون (فتحــية) ابنة أحد عمال المحارة.. الذي كبر سنه.. وارتعشت يــداه.. وكــل بصــره.. فمن الطبيعي ألا يجد من يستخدمه.. ككل من يكــبر هــنا.. فــيرقد جانباً.. عاجزاً.. لا يعمل إلا عملاً بسيطاً.. بأجر بســيط.. عطفاً من هذا.. أو ذاك.. ليطعم أولاده وقد كان من الطبيعي أيضــاً أن تــترك ابنته الكبرى (فتحية) الدراسة الثانوية.. لتبحث عن عمــل مع كل هذا الكم من الباحثين.. والباحثات.. من شباب هذا الحي المكــتظ اكتشفت (فتحية).. أن الكثير والكثير.. قد سبقها.. للبحث عن سبيل.. لمساعدة أسرته.. مثلها تماماً.

بحثت (فتحية).. وبحثت.. لا شيء في الحي الفقير.. خرجت إلى الطريق.. إلى القاهرة الكبيرة.. تبحث هنا وهناك وسط أقرانها.

همست إحداهن في أذنها:

- أم ســعاد.. جارتنا.. عندها شغلة.. بسيطة.. وسهلة تعالي معايا نروحلها.

استشعرت (فتحية) الخطر.. أجابت بحزم:

- إســمعى يــا بت انتي.. أنا ماليش في الكلام الفاضي ده أنا بنت شريفه.. عايزة آكل من عرق جبيني.

قهقهت الفتاة قائلة:

- ومــالك زعلــتى كــدة ليه.. يابت ماتخافيش.. ماحدش حايمس شرفك.. بس تعالي بس.. وبلاش خيابة.

(أم ســـعاد).. لم تكن يوماً ما.. أم سعاد.. فإنها امرأة عانس.. لم تتزوج.. لم تجرب الرجال.. لم تذق طعم الرجال رغم عشقها المرضي لهـــم.. كانـــت تعـــرف كل شيء عن الرجال وعن مغامراتهم.. وعن رغـــباتهم الدفيـــنة.. وكل ما يختلج في أعماقهم من ثورات مكبوته.. كانـــت تعـــرف تمامـــاً ما يريده الرجل من المرأة كانت كل هوايتها.. وســـعادتها.. أن تـــرى الرغبة في عين الرجل.. كل ما يسعدها.. أن توفـــق دائمـــا بيـــن الـــرجال.. ومبتغاهم.. ممن يحببن من النساء أو الفتـــيات.. بعد أن فاتها القطار.. أحبت أن يطلق عليها هذا الاسم (أم سعاد).

كانـــت تحـــب أن تدغـــدغ براكين الرجال الخامدة.. حتى تفجرها بسعادة.. وتلذذ.. ما فوقه لذة.. لم يمسها رجل!!!

امتهنـــت أم سعاد.. قراءة الفنجان.. اقتصر نشاطها على الرجال فقـــط.. كـــان يسعدها تواجدهم حولها.. كان يثيرها صوتهم الخشن.. ونظـــراتهم المـــتحرقة.. للنساء.. كانت تقرأ أفكارهم الخفية في لمح البصـــر.. وكـــم يســـعدها أن يحكي لها الرجل أدق أسراره وخاصة.. علاقته الخاصة بزوجته.

علمـــتها خـــبرتها تلـــك مـــبدأ غريباً.. أن الهم والفقر.. والعمل الشـــاق.. وثـــورات النســـاء.. ومطالبهـــن.. وعـــدم رضاهن.. يبعد

الــرجال.. تقــل لديهــن الرغــبة.. ممــا يزيد ثورة النساء وانفجار المشاكل.. في طبقة العمال تلك.

كــان يجــب مساعدة.. هؤلاء الرجال المساكين.. بأن تثير فيهن الرغبة.. الخامدة.. ولكن كيف..

كــان الحــل الــناجع عند أم سعاد.. في إحدى الفتيات (الدلوعة) المثيرة.. تجالس هؤلاء الرجال البائسين.. تضحك.. تداعب بالهمس.. بالغمــز.. وأحــياناً بــاللمس.. بالــنكات الإباحية المثيرة.. التي كان قاموس أم سعاد مليئاً بها.. تعلمها للفتاة.. وتعلمها كيف تتأوه.. تمثل النكــتة المثــيرة جــيداً تعلمهــا أحياناً.. الرقص المثير.. والحركات المثــيرة.. قــد تدخــل الفــتاة يدها تحت قميص الرجال مداعبة شعر صــدره.. أو قد تداعب ظهره.. شعر.. ساقيه.. يستثار الزبون.. فقط يســتثار.. لا شــيء آخر.. لا شيء حرام.. لا دعارة حتى أنها كانت تمــنع.. وتحرم.. وبشدة.. تعاطي الخمر.. أو الحشيش في جلساتها.. كانــت تــريد الــرجال فــي كامل وعيهم.. تقف دائماً وسط الجمع.. ضــاحكة.. مشــجعة.. ولكــن.. عيــناها.. كانتا منتبهتين كالصقر.. حارســتين.. لا تدعان أي شخص من الزبائن يتخطى حدوده.. أو أن يجــرؤ.. فــيمد يده لمداعبة فتاتها.. كانت صارمة لمثل تلك الحالات الــنادرة.. علــى الــرجل المشــاهدة فقــط والاســتمتاع.. والكلام.. والضحك.. ولكن (بدون لمس).

هكذا.. يخرج الرجال البسطاء (راغبين).. وتسعد نساؤهم ولأنهم

عمـــال.. فقراء.. كان أجر هذه المتعة الغريبة.. فقط عشرة قروش.. تعطى أم سعاد نصفها للفتاة.. بكل أمانة.

وهكـــذا قد تصبح حصيلة الفتاة من هذا العمل (البسيط) عشرين قرشـــاً.. وقـــد تصـــل إلـــى ثلاثين قرشاً.. في ليالي الجمعة والأحد.. (الموسم).

مـــثلما كانـــت هذه السهرات مشبعة للرجال.. فقد كانت تشبع أم سعاد أيضاً.. حيث يسعدها رؤية الرجل وقد كاد جسده ينفجر من شدة الإثـــارة.. كانت بسمتها فوق وجهها الذي يزداد إحمراره.. تنبئ عن اســـتثارتها هي أيضاً. وكأن كل رجل فيهم رجلها هي أيضاً.. وأن هذه هـــي ليلتها معه.. كانوا جميعاً.. أزواجاً لخيالها الثائر.. كانت راضية بـــأزواج خـــيالها.. فهي ليست ككل النساء تقنع بزوج واحد ولكن لها عشـــرات الأزواج بهـــذه الطريقة.. في ذهنها تحبه تعاشره.. تستمتع به.. رغم أن أحداً منهم.. لم يجرؤ أن يلمسها.. ولو من باب المزاح.

بـــدأت فتحـــية تشارك في هذه السهرات.. وبسرعة اكتشفت (أم ســـعاد) موهبة فتحية الخارقة في استثارة الرجل.. فاقت كل زميلاتها بجســـدها المثـــير.. وعينـــيها ذواتا النظرات الناعسة المغرية.. كانت طريقـــتها فـــي الكـــلام.. وحـــركة (تسبيل عينيها) وتمثيل دور الفتاة الثائرة.. التي لم تعد تستطيع الانتظار.. قدرة خارقة.. أصابت الرجال بالجنون بعضها المثير على شفتها السفلى القرمزية.. وهي تتأوه.

لـــم تكن فتحية تجيد الرقص.. ولكن يكفي أن ترمق الرجل بنظرة

شـــهوانية رهيـــبة تجعل جسده يتقد ناراً وكم تعجبت أم سعاد.. كيف كانت تجعل وجهها يزداد حمرة.. وتجعل جسدها يزداد اتقاداً.. فلمسة من أصابعها الملتهبة كانت كافية لعمل اللازم.

زاد الطلــب علـــى جلسات فتحية.. رفعت أم سعاد الأجر (الغالي ثمـــنه فـــيه).. زاد دخـــل فتحـــية.. تغيرت وتغيرت هيئتها.. اشترت الملابـــس المثـــيرة.. أصـــبحت كما يقولون (صاروخ الحتة).. كانت فخـــورة بنفســـها وبجســـدها.. وتحركاتها التي علمتها لها أم سعاد.. فخـــورة بكونهـــا شـــريفة.. لـــم يمسسها رجل.. وتقسم بذلك.. وهي صادقة.

تلاشـــت احتجاجات أم فتحية.. بين أوراق النقود فقد يزيد أجرها فـــي اللـــيلة الواحدة عن جنيه كامل.. تغير حال الأسرة.. تجاهل الأب العجـــوز ما يحدث.. إنه لا يعرف شيئاً.. أو هكذا تظاهر.. فأهم شيء أنـــه لم يمسها أي من هؤلاء العمال.. الذين تنضح من رائحة عرقهم رائحـــة الجير والأسمنت.. وزيت البوية.. وعذاب أيام سوداء قاسية.. كادحـــة.. هـــنا فقط عند أم سعاد.. يجد كل منهم جنة.. يدفن فيها ما يخـــتلج فـــي أعماقه.. من كبت ناتج عن قهر وفقر.. رضي الرجال.. رضيت أم سعاد.. رضيت فتحية.. رضيت الأم.. تجاهل الأب.. مازالت مصر بخير.

إلـــى أن أطـــل الحرام بوجهه الناعم الجميل.. في صورة مقاول بـــياض.. غـــنى.. دفع لأم سعاد عشرة جنيهات كاملة على أن ينفرد

بفتحـــية.. الفتاة المثيرة (إللي حاتجننه) نصف ساعة.. بعد السهرة.. رفضـــت أم ســـعاد.. صرخت صاحت.. كلا.. لا يمكن.. رفضت فتحية بإصــــرار.. زيـــدت العشرة جنيهات إلى (عشرة حق فتحية).. أخيراً.. بقى لأم سعاد شرط واحد (ألا يتم ذلك في بيتها.. فهي لن تسمح).

أفاقت فتحية على صوت أحمد البحر الهادئ.

- هـــيه.. رحـــتى فيـــن.. إنتى يظهر سرحتى بعيد خالص نفضت الذكريات عن رأسها الجميل.

وعـــادت لابتســـامتها المشـــرقة.. حيث كانت قدرتها فائقة على اصطناعها:

- أبـــداً.. ولا حاجـــة.. بصراحة.. أنا سرحت فيك.. إنت أول واحد يقابلنـــي.. أحـــس إنه (مش عايز).. قاعد ساكت أموَر.. هادي.. قولـــي بقـــى إيه السبب؟ أكيد فيه بنت معششة في قلبك.. ومش عاوز تخونها صح؟.. طيب هي بقى.. أحلى مني؟

أجابهـــا وهو يتابع أمواج البحر المتكسرة على البراميل الحديدية التي تحمل العوامة.

- حاجة زي كدة بالظبط.

وبشـــكل ســـريع.. غـــير مـــتوقع.. داعـــب النسيم وجه (توته) الرقـــيق.. وعلـــى غير انتظار.. أغمضت عينيها.. وراحت في سبات عمـــيق.. فلاحـــت بعينـــيه.. أعماقهـــا.. طفل صغير.. بسيط هادئ..

يغفو.. بعد لعب عنيف.

الوحـــيدان اللــذان ظلا متيقظين.. واقفين.. متنبهين لأي أوامر تصدر لهما من الضابطين النائمين.. هما الجنديان.. اللذان لم يكونا.. حتى يتهامسان.. حتى لا يزعجا السادة الضباط.. فيقع الجزاء.

نهــض الجميع قبل المغيب.. وعادت الحركة تدب مرة أخرى في العوامــة.. مــن ضحكات.. ورقصات.. وموسيقى وصخب حاول أحمد الـــبحر الاستئذان.. ألح عليه الرائد سليم بشدة أن يبقى.. فهو معزوم على السهرة.. ثم أردف قائلاً:

- يا سيدي.. ما تخافش.. على حساب القوات المسلحة.

ما لبث أن أسرع إلى الفراندة منادياً.

- عم موسى.. إنت يا راجل يا عجوز.. يا عم موسى.

اقـــترب أحـــد صـــيادي الســـمك.. بقاربـــه الصغير المتهالك من العوامـــة.. كان الرجل كهلاً.. نحيفاً.. لاصق العوامة بقاربه الصغير.. ثم قال فرحاً:

- الحمد لله على السلامة يا أفندية.

ثـــم أخـــرج من قلب القارب (وابور جاز).. وحلة نحاسية مليئة بالـــردة.. أشـــعل الموقـــد.. ووضعه مع الردة على أرضية الفراندة.. وأحضر قطعة من الصاج.. وضعها على النار لتحمى.. ثم قال:

- بسم الله.. يا رزاق يا رب.. الرمية ببريزة يا بيه.

صاح طارق:

- بريزة إيه.. يا راجل يا مخرف إنت.. هو شلن ما فيش غيره.

تمتم الرجل.. وهو يرمي بشبكته إلى الماء قائلاً:

- الأمر لله.. على الله.

هـدأ قلـيلاً ثـم سحب الشبكة ونفضها.. وجمع السمك في حلة الـردة.. كـان السـمك صـغيراً.. متنوع الأشكال والأنواع يقفز هنا وهـناك.. فـي ذعـر.. بخبرة كبيرة أخرج سالم السمك من الحلة.. ووضـعه فـوق الصـاج الملتهب.. ظل السمك.. الحي يقفز محاولاً.. اتقـاء تلـك النار الملتهبة.. ثم ما يلبث أن تسكن حركته.. مستسلماً لقـدرة الحارق.. آخر ما كان يسمعه السمك.. هو ضحكات تدوي هنا وهـنا.. حيـث كان الجميع يتخاطف السمك المشوي (الطازة).. كانت هـناك صـرخات ما.. لم يسمعها السمك المعذب.. تصدر مدوية عن أعماق أحمد البحر.. وكأنه يسمع هو أيضاً أصوات السمك يصرخ من شدة الألم.. وقسوة البشر.

قال طارق.. وهو يحتضن فتاته:

- أجمـل حاجة يا جماعة.. هو أكل السمك الصغير ده.. وهو طازة لسه طالع من الميه.. يا سلام.

تخـيل أحمـد الـبحر نفسه سمكة وسط هذا السمك.. سمكة لها زعانف وذيل.. وخياشيم.. خرجت لتوها من الماء.. شعر بالاختناق..

ثـــم مـــا لبث أن ألقى فوق ذلك السطح الملتهب.. ثم فجأة.. تشوشت الصورة في ذهنه فرأى الجميع.. وقد صار أمامه.. سمكاً في سمك.

أصر أحمد على الذهاب إلى اللوكاندة.. ليستريح ويبدل ملابسه.. صـــعد على السقالة الخشبية الخاصة بالعوامة إلى الشاطئ.. متأملاً.. عالمـــاً آخـــر.. غـــير عالم العوامة تساءل.. هل يعلم كل مجتمع من مجتمعات القاهرة ما يجري في المجتمع الآخر.. إنه لا يعتقد ذلك.

جلـــس علـــى محطة الأوتوبيس منتظراً.. متأملا الميدان وما فيه من ناس.. وحركة.. كل له عالمه.

أقبلـــت ســـيارة نقل من جهة كوبري الجلاء.. في اتجاه إمبابة.. تحمل عدداً كبيراً من العمال.. العائدين من استقبال ما بالمطار.. حيث كانوا يهتفون بهتاف غريب.. غير هتاف المظاهرات قائلين:

"أحْيه.. أحيّه يا جمال.. أكلو علينا النص ريال"

"فهمينا يا عزيزة.. سرقوا ليه منا البريزة"

غرق الناس الواقفون بالميدان في الضحك.. صاح أحد الواقفين:

– تستاهلوا يا بهايم.

مـــا كـــادت السيارة تتخطاه قليلاً.. حتى لحقت بها سيارة شرطة مليـــئة بالمخبريـــن بعصيهم الخيرزان المشهورة.. استوقفت الشرطة ســـيارة الـــنقل.. مـــا إن توقفـــت جانباً.. حتى أسرع العمال متفرقين بالمـــيدان هـــرباً.. يتـــبعهم المخبرون بعصيهم ضحك أيضاً الكثير من

المارة.. وغضب البعض.. ودق الآخرون كفاً بكف قائلين:

- لا حول.. ولا قوة.. إلا بالله.

دقائق.. وانفض كل شيء.. وعاد كل لحاله.. وكأن شيئاً لم يكن.

لـم يعلـم أحمـد سبب هتافاتهم تلك.. وسبب تفرقهم إلا بعد أن أوضـح له الأسـتاذ بـنهاوي الأمر.. حيث يجمع بعض المسئولون.. العمـال.. والشـباب.. وطـلاب المدارس.. عند زيارة أحد الضيوف المهمين.. لاستقباله بالمطار مصطفين على جانبي الطريق.. لتحيته.. محبة فيه.. وفي بلاده.

وقـد اتفـق على أن يتم إعطاء كل عامل عشرة قروش مكافأة.. وكل طالب.. وجبة.. في نهاية اليوم.

ولكـن.. قـد يقوم بعض منظمي تلك الاستقبالات من المسئولين بالاسـتحواذ علـى المكافـآت لنفسـه. خاصة وإن كان من الكبار.. الواصلين.. أصحاب الظهور المحمية.

فـلا يجد العمال مخرجاً.. للتنفيث عن غضبهم إلا بهذه الهتافات للتعبـير عن استيائهم من المسوئلين الذين (أكلوا عليهم النص ريال) والاستفسـار من (عزيزة) لماذا سرق الكبار منهم (البريزة) في نهاية الـيوم بعـد الوقوف طوال النهار.. في انتظار الضيف.. يتم تفريقهم بالخيرزانات المشهورة.

(٢٣)

مرت أيام.. شابها الكثير من التوتر المشوب بالحذر والأمل.. هل حقـا سـنحارب إسـرائيل؟ هـل حقا سيتحقق الأمل.. بأن يقوم عبد الناصـر.. بطـرد الصهاينة.. وإلقائهم في البحر؟.. هل حقا سيتحقق الحلم أخيراً.. وتعود فلسطين.. دولة عربية؟

كـان عبد الناصر.. قد قام باستعادة شرم الشيخ.. وإغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية.. إذن.. فالأمر على الأبواب حقاً.. هـدأت المناقشات في المقهى.. وحل محلها هذا التوتر.. والانتظار.. والترقب.. قال حسن الأعرج:

- إنشـاء الله.. لمـا ننتهـي مـن إسرائيل المزعومة.. حا ينتهي الفقـر.. حانعيش كلنا في خير.. في عز.. ماشفناهوش قبل كده.. أمـال.. مـش حـنوفر كـل الفلوس إللي عمالين نصرفها على التسـليح.. أكـيد حاتفـيد الشـعب إللـي تعب بقى من إسرائيل وسيرتها.. وهمها.

قال بنهاوي متنهداً:

- من بقك لباب السما.

رمقه أحمد البحر بنظرة صارمة.. لاحظها بنهاوي الذي بادره:

- على فكرة يا أستاذ أحمد.. مبروك يا سيدي.. موضوعك خلص.

انتبه أحمد.. واقترب بكرسيه مسرعا في لهفة:

- مش معقول؟ إحكي لي.. قلي إيه إللي حصل؟

قهقه بنهاوي وأجاب:

- مـــا قلـــتلك خلاص.. شوف يا سيدي.. أنا لما ألحيت على الست الناظرة.. نادتني النهاردة.. وقالتلي أبلغك إن.. العروسة موافقة.

وضع أحمد البحر كفيه على وجهه.. من فرط الانفعال قائلاً:

- والله الست أزهار دي طيبة خالص.. عاملة كده زي أم الواحد.

ابتسم بنهاوي وقال:

- دي هـــي كـــده.. طيبة جداً.. وقلبها طيب.. وبتحب الخير للناس كلها.. إحنا بنعتبرها أختنا كلنا.

ألح أحمد البحر مستفسراً.. وكأنه لم يصدق:

- بالزمة والنبي.. هي صحيح وافقت؟

أجاب بنهاوي.. وهو يشعر بكثير من الشفقة عليه:

- أيـــوه يـــا سيدي.. دي حتى فرحت لما عرفت إنك بتحبها فعلاً.. وإنـــك متمســـك بيها.. ومش ممكن تتجوز حد غيرها.. وكمان يا ســـيدي.. إنـــك ابـــن ناس.. وأبوك راجل قبطان قد الدنيا.. ولكم عمـــارة كبيرة في الإسكندرية.. وإنك وحيد.. وكفاية يا أخي إنك بتحبها.

نهض أحمد البحر.. فرحاً.. وقد وضع كلتا يديه فوق رأسه ودار حول نفسه وكأنه يرقص ثم جلس قائلاً:

- يـــاه.. أخـــيراً.. دا أنا كنت بدأت أيأس يا شيخ بالزمة والنبي ده حصـــل.. يعنـــي هي.. موافقة أرجوك.. إوعى تكون بتلعب بيا.. أحسن أروح فيها.

قال بنهاوي بصرامة:

- ومن إمتى وأنا بألعب بيك يا أستاذ؟

صمت قليلاً.. ثم قال:

- علـــى العموم.. ربنا يتمم بخير.. بس أنا برضة لسة عند رأي.. خد إللي تحبك.. ما تدخش إللي تحبها.

تدخل حسن الأعرج للمرة الأولى مخاطباً أحمد البحر:

- أنـــا لـــو مـــنك يـــا أســـتاذ أحمد.. أفكر كويس في كلام الأستاذ بـــنهاوي.. صـــدقني.. أنا مولود هنا.. ومتربي هنا.. وشايف إنه بيتكلم صح.

اعترض وليم قائلاً:

- يا جماعة.. سيبوا الراجل على راحته.. مين عارف.. يمكن ربنا يملا قلوبهم محبة.. ويصلح حالهم.

تبادل الثلاثة النظرات.

خفـــق قلـــبه بشـــدة.. حيـــنما رآها في الصباح الباكر واقفه مع

زمـــيلاتها.. بمدخل المدرسة.. إنها هي.. هاهي ذي إلهام.. حبه الأول والأخــير.. حبه الكبير.. حياته.. نور عينيه.. إلهامه.. ابتسمت بدلال حينما رأته داخلاً إلى المدرسة.. ثم تابعت حديثها.. متجاهلة له.. كان يرى جمالها.. فوق كلمات الوصف.

اقترب منها تسبقه دقات قلبه المدوية.. بادرها مبتسماً.. بصوت خفيض.. يملؤه الكثير من الحب والحنان واللهفة والعرفان:

- صباح الخير.. أشكرك يا آنسة إلهام.. عمرك ما حتندمي أبداً.

تساءلت بدون أي تعبير:

- أندم على إيه؟

أجابها شاكراً:

- على كونك.. وافقتي.

تساءلت مرة أخرى.. بدون تعبير أيضاً:

- وافقت على إيه؟

أجاب بنفس الفرحة:

- إن إحنا.. يعني.. نرتبط ببعض.

نظرت إلى بعيد.. وكأنها تبحث عن شيء ما خارج المدرسة:

- ومين قالك بقى إني وافقت؟

كاد قلبه يعلن توقفه.. لم يجب إلا أن يتساءل مستغرباً:

- نعم؟!!

رسمت هنا نفس ابتسامتها الناعمة على شفتيها وقالت:

- أنا لسه بأفكر.

ثــم تحركــت بــدلال شديد.. إلى داخل غرفة الناظرة.. تاركة له واقفــا.. وقــد أســقط في يده.. لا يدري ماذا يقول.. ولا يدري ماذا يفعــل.. وقــد دارت به الدنيا.. وزاغ بصره.. وتاه فكره.. لم يستطع التحرك..وكأنه سمر في مكانه تماماً.

لحظــات وكأنهــا دهر.. حتى تحرك خارجاً من المدرسة.. حينما مــر أمــام النافذة.. ذات الأسياخ الحديدية.. رمقها تشير إليه بأطراف أصابعها اليسرى.. وهي تحرك شفتيها وكأنها تقول (باي).

تــأكل النار جسده.. صارخة لتخرج إلى الخارج بصرخة مدوية.. متسائلة:

"ليه؟.. ليه؟"

سار في شارع باب البحر.. مترنحاً.. لا يكاد يرى.. لماذا قال له بنهاوي هذا الكلام إذن؟

الــتوت قدمــه بين حجرين من الأحجار الجيرية المرصوف بها الشــارع مــنذ زمــن بعــيد.. لم يتمالك اتزانه.. سقط إلى الأرض.. عشــرات الأزرع امــتدت إلــيه لتســاعده علــى النهوض.. عشرات الأصوات.

"ســلامتك.. ألف سلامة يا أفندي.. يا ساتر.. إنشاء الله سليمة.. تعالى يا أستاذ.. استريح هنا.. الحمد لله جت سليمة".

لــم يكــن يلاحــظ.. هــذا الكــم من البشر.. الذي تجمع حوله لمســاعدته.. أحضر له البقال كرسياً.. أجلسوه عليه.. أحضرت بائعة الخضــار كوب ماء.. رشت قليلاً على وجه أحمد البحر.. أحضر بائع العصــير.. كــوب عصــير قصــب بارد.. جلست إحدى السيدات عند قدمــيه.. تحــاول تنظيف.. ملابسه من الأتربة.. أيد كثيرة.. تتحسس جســده.. باحثة عن إصابة ما قد تكون خفية.. حضر العجوز.. حامل المبخرة والذي يقوم كل يوم بتبخير المحلات حتى يتسع رزقها.. وقام بتبخيره.. ربما كان محسوداً.

حيــنما نهــض رافقــه اثــنان من شباب الحي ممسكين ذراعيه ساندين له.

– حضرتك.. رايح فين.. نوصلك؟

قال أحد الواقفين بحماس:

– اســتنى يــا بيه.. أنا سواق تاكسي.. لحظة.. أجيب لك العربية هنا.. وأوصلك مطرح ما إنت عايز.

لم يتركه أهل الحي.. إلا بعد أن تأكدوا تماماً أنه سليم.. معافى.. فــإذا بخوفهــم ولهفتهم.. تتحول إلى ابتسامات وضحكات.. وتعليقات خفيفة.

"معلهــش يــا أفــندي.. مــا يقعشي إلا الشاطر.. تعيش وتاخذ غيرها.. الفكر وحش يا بيه.. ربنا يبعده عنا وعنك".

لم يكن أمام أحمد البحر إلا العودة إلى المدرسة بحثاً عن الأستاذ بنهاوي.. وما إن رأه حتى رافقه إلى الحارة ثم بادره معاتباً.. شاكياً.. أجاب بنهاوي في تبرم شديد:

– وبعدين بقى.. أنا مش حأخلص من سيرة الست إلهام دي بقى.. يــا استاذ أنا بلغتك إللي وصلني بالحرف كون البنت بتلاعبك ولا بتغــيظك.. أنــا مالي؟ إيه ذنبي يا أخي.. روح إسأل الست أزهار الناظرة.

شــعر بــنهاوي.. بمــدى قســوة كلماته.. فأراد أن يغير مجرى الحديث فقال:

– على فكرة.. إنت عرفت نبطشيتك في الأجازة إمتى؟

أجاب أحمد بوجوم:

– لا.. لسه.. ما أعرفش.

قال بنهاوي مبتسماً:

– إنــت يــا سيدي معايا.. في مجموعتي.. أنا.. وأنت.. والأستاذ لطفــي.. وأبلــة نجوى.. وأبلة ماري مدرسة الرسم.. إحنا أول مجموعــة في الأجازة.. يعني أول أسبوعين.. علشان بعد كدة.. ناخد أجازة سليمة مش متعفرته.. ياللا.. كل سنة وانت طيب.

صمت بنهاوي قليلاً.. ثم أردف:

- روق بقى يا أخي.. وادخل إمضي على النبطشية.

مـــرت أيـــام على أحمد البحر.. كئيبة.. مؤلمة.. مترقبة تائهة.. حـــتى أنـــه.. لـــم يـــنطق بشيء على المقهى.. فقط يجلس ناظراً إلى الطـــريق.. الغاص بالناس.. كل في حاله.. كل يحمل في داخله.. كما مـــن المشـــاكل.. والحـــيرة.. والترقب.. ربما يحمل بعضهم.. بعض الأمل.. أما هو.. فلا.. شيء.

حـــتى لحـــنه المنشـــود.. لـــم يعـــد حتى يفكر في وضع الهيكل الأساســـي له.. لم يعد لديه أية اهتمامات.. تدور المناقشات من حوله وهـــو بعـــيد.. فـــي عـــالم آخر.. ليس له أبعاد.. ليس له بدايات أو نهايات.. ليس له مكان.. أو شكل.. أو لون أو طعم.

لم تعد تلك الأغاني والأناشيد الوطنية.. تشده يربط بينها.. وبين مشاعره.. وأحاسيسه.. وحياته.. كما كان يفعل من قبل.. لم يعد يفكر فـــي الإسكندرية.. أو والده الذي هو أكثر منه عناداً.. وقسوة.. لم يعد يعـــرف شيئاً.. سوى أنه أحمد البحر.. مدرس الابتدائي.. في مدرسة لا أحد يعرف عنها شيئاً.. وأن إلهام في أجازة.

كـــان رفاقـــه.. مـــن الرحمة.. بحيث كانوا يتركونه لحاله إذا ما حاولوا جذبه لحديثهم.. وقاومهم.. لم يضغط عليه أحد.

أفاق على صوت يناديه:

- يابيه.. أحمد بيه.

رفـــع رأسه.. عن الأرض التي كان قد سرح في زخارف بلاطها القديـــم كـــان الجندي المراسلة.. وجم أحمد البحر.. فقد تحاشى طول الأيـــام الســـابقة.. مقابلة هذه (الشلة) بعد ذلك اليوم في العوامة وتلك السهرة الصاخبة.. أجاب أحمد ببرود.

- نعم يا سيدي.. خير إنشاله؟

قال الفتى الضئيل:

- يـــا بـــيه.. حضـــرتك دوختني.. دورت عليك في كل حتة.. حتى اللوكاندات.. سألت عنك فيها.

تساءل أحمد:

- وليه بقى كل ده؟

أجاب الجندي:

- حضرة الضابط.. طارق بيه.. عايز حضرتك ضروري.

أجاب أحمد البحر.. مديراً وجهه عن الجندي:

- روح قول له.. ما لقيتوش.

تحرك الجندي بإصرار لمواجهة أحمد البحر.. ومتوسلا:

- لا يا بيه.. ما أقدرش.. أرجوك.. ده المرة دي حلف إنه لو.. ما جبتكشـــي من تحت الأرض.. حايديني جزاء.. أرجوك يا أفندم.. إنـــت ماترضـــاليش الأزية.. أرجوك والنبي يا فندم خليني أقضي الأيام السودة إللي بقيالي على خير.

لــم يجــد أحمــد البحر بداً من الموافقة.. رأفة بالمجند الصغير اتفقــا..علــى أن يمر عليه بعد ساعتين في اللوكاندة.. لعلمه وثقته.. أنــه ليس هناك ذنب لهذا الشاب سوى.. التجنيد كما أنه يعلم تماماً.. ماذا يمكن أن يفعل به النقيب طارق.

أراد أن يذهب إلى الأسطى وليم بصالونه.. حتى يحلق ذقنه التي طالــت.. كان المحل مغلقاً.. نعم فاليوم هو الأحد والأسطى وليم.. هو الحــلاق الوحــيد.. الذي يعتبر يوم الأحد عطلة أيضاً له.. علاوة على يوم الإثنين عطلة الحلاقين.

أمــام ملهــى الأريزونا بشارع الهرم.. توقفت السيارة العسكرية نزل أحمد البحر بصحبة المجند.. وعند المدخل سأل المجند:

- فيه دعوة عندكم باسم أحمد بيه البحر؟

بحث أحدهم في الدعوات.. ثم قال:

- أيوه تمام.. اتفضل يا أحمد بيه.. طارق بيه في انتظارك.

ثم نادى.. إلى أحد الجرسونات قائلاً:

- وصل البيه.. لترابيزة ثلاثة على (البست).. شرفت يا بيه.

كانــت تلــك هــي.. المرة الأخيرة.. التي رأى فيها أحمد البحر الجــندي المجــند.. هــزيل الجســم.. الغــائص فــي بدلته العسكرية الفضفاضة.

الصــخب عالــي.. والموسيقى تصم الآذان.. بمطربة ذات صوت

سـيئ.. والضـحكات مجلجلـة.. والدخـان كثيف.. وراقصة تتلوى والإضـاءة خافتة.. مع هذا الدخان.. لا يمكن للمرء أن يرى أحداً إلا إذا اقـترب جـداً مـنه.. الكل كالأشباح تتحرك.. حول بقعة الإضاءة الملونة.. الصاخبة (البست).

بالطاولـة رقـم ثلاثـة.. المواجهـة تماما للمطربة السيئة على (البسـت) وجـد أحمد البحر.. كلا من طارق وسليم.. وسط مجموعة فتـيات.. عـندما اقـترب لاحـظ أنهن غير تلكم اللاتي شاهدهن في العوامـة وقـد رقدت على الطاولة السكري.. كمية كبيرة من الأكواب وأطـباق بقايـا المـزات والطعام.. وعدد آخر من زجاجات البيرة.. الخضـراء.. كبـيرة الحجم.. داخل إناء مليء بالثلج.. رقدت زجاجة ويسـكي.. لـم تفتح بعد.. أما الأخرى.. المعتدى عليها مسبقاً.. فقد كانـت تـرقد بيـن يدي سليم.. يصب منها في الكئوس.. بينما كانت المطـربة ركـيكة الصوت تداعبه.. من أعلى المسرح الصغير المدعو (البست).

مـا إن ظهـر أحمد البحر للعيان إلا وصاح كل من طارق وسليم بـترحاب مشوب بسكر شديد.. بكلمات مبالغ فيها.. حيث قال طارق.. وهو لا يكاد يرى محتضناً ليه بشدة وانفعال بلا انفعال.

– أحمـد بـيه.. حبيبي.. إنت حبيبي يا أحمد.. والله إنت حبيبي.. لعلمكـم.. أحمـد البحر أعز صاحب لي.. مولود على إيدي.. دي آه.. يـا يغـركوش طوله.. اتفضل أقعد يا أحمد.. إنت مخاصمني

ولا إيـــه؟.. وأنـــا صاحبك وحبيبك.. أنا زعلان منك قوي كام يوم ما اشوفكش؟

ثم اقترب بوجهه من أحد.. الذي جلس إلى جواره.. وقال:

– ماتزعلشـــي يا صاحبي.. إن كان على النسوان بتوع المرة إللي فاتت.. أنا غيرت لك الطقم كله.

كانت الطاولة الكبيرة الجالسون إليها.. بحالة الفوضى السكرى.. تـــتوافق تمامـــاً مع صوت المطربة الصارخ وحالة السكر البينة التي غرق فيها الجميع.

جلس أحمد البحر في صمت رافض إلى جوار طارق الذي اقترب بوجهه مرة اخرى وقد انبعثت مع كلماته رائحة الخمر الفجة الكريهة.

– تعرف لو ما كنتش جيت النهاردة.. والله أنا كنت إديت العسكري الوسخ ده.. شهر حبس.. أمال.. أصل إنت حبيبي.

تـــم اتجـــه بكلامه للجالسين معيداً لهم كما لو كان يخبرهم لأول مرة:

– أحمـــد ده.. صـــاحبي.. حبيبـــي.. طـــول عمرنا مع بعضنا.. آه يعني.. أمال انتم.. فاكرين إيه.

قال أحمد البحر متمتماً بصوت لم يسمعه أحد.

– أيـــوه.. طـــول عمرنا مع بعضنا.. أيام ما كنت إنسان محترم.. عمـــرك مـــا كنت كدة.. سكران متبهدل.. مع شلة سكارى أيوه..

كـــنا صـــحاب قـــبل ما تبقى ضابط جيش.. بالشكل ده.. إيه إللي جرالك؟!!

مـــد طـــارق يـــده إلى طبق الجبن في آخر الطاولة.. أسقط كوب البـــيرة.. فـــوق أطباق المزة.. ضج الحاضرون بالضحك أرادت إحدى (المـــرافقات) تـــدارك الأمـــر بســـكرها.. فأطاحت بزجاجتي بيرة على ملابس طارق وسليم.. غرقت المرافقات في الضحك.. نادت إحداهن.. إحـــدى الجرســـونات.. التـــي كانت ترتدي زياً.. فائق الفتنة.. شديد القصر.. صارخ الألوان.

حينما انحنت الفتاة إلى الطاولة.. ظهر صدرها بالكامل أمام وجه أحمـــد الـــبحر الـــذي أشاح بوجهه بسرعة.. لاحظت الفتاة.. فداعبت شعره بدلال وغضب لإعراضه الواضح عنها قائلة بهمس:

– مالك؟.. هي النار كلتك؟ أمال لو شفت..

كانـــت الألفـــاظ الســـوقية النابية.. والنكات البزيئة الخارجة هي الســـائدة بيـــن الجمـــيع.. تصـــاحبها الأيدي الخشنة.. تداعب أجساد الجرســـونات.. المتهربات بدلال.. الضاحكات بليونة المتراقصات على أنغام الموسيقى المجنونة.

تعجـــب أحمـــد البحر.. من كثرتهن بالملهى.. عدد هائل من تلك الفتـــيات.. الجرســـونات.. الصغيرات.. في عمر الورد.. ترى من أين أتين؟ هل كل الملاهي الليلية هكذا؟ مكتظة بهن؟ ربما.

اكتشـــف أحمد البحر.. أن هذا الجو المعتم.. هو الملاذ المناسب

للجالسين السكارى.. هروباً من واقعهم.. من أنفسهم.. من إحساسهم بهـذا العـار..لمـا يحـدث بهم.. منهم.. وكلما ازداد إحساسهم بهذا العـار.. إزداد سـكرهم.. وكلمـا زاد سكرهم زاد إحساسهم بعارهم.. فـيحاول كل منهم.. إقناع نفسه بإقناع غيره.. أنه على حق.. إنه لم يخطـئ.. الآخرون هم سبب ما هو فيه.. أنتم سبب ما أنا فيه.. فتثور دائماً مشاجرات.. ما تلبث أن تهدأ.. ودائماً بنفس الكلمات.

- إنت حبيبي.. والله العظيم إنت حبيبي.. في صحتك بقى.

التفـت أحمد البحر لسبب يعلمه الله.. فشاهد الجالس إلى الطاولة المجـاورة تمامـاً.. وقد امتدت يده إلى مكان حساس في جسد إحدى الجرسونات وهي ترفع طفايات السجائر عن طاولته.. فهمت:

- عيب.. مش كده.

جذبها الرجل إليه عنوة قائلاً بسكر:

- لا كده ونص.. إيه رأيك بقى.. إنتي عايزة تجننيني.

ابـتعدت الفتاة بضحكة مثيرة.. لها تأثيرها في هذا الجو المعتم.. فقدت اتزانها فسقطت مع بقايا السجائر على أحمد البحر.. التفتت إليه معتذرة:

- أنا آسفة...

حيـنما اقـترب وجهها منه.. رآها رغم الضوء الخافت الحزين إنهـا هـي.. زميلـته.. إلهـام.. المدرسـة فـي مدرسة باب البحر

الابتدائية.. والتي هرولت.. فزعة.. إلى حيث لا يدري.

تـــاه قلـــيلاً.. زاغت عيناه.. وزادت الدنيا إظلاماً.. ضاع صوت الموســـيقى الصاخب في طيات طنين أذنيه.. إنه على وشك الإغماء.. هناك شيء ما في أمعائه.. يؤلمه.. شعر برغبة شديد في أن يفرغ ما في معدته.. على الطاولة.. ليلقي بحضيض أمعائه.

ضحك طارق:

- إيه الحكاية؟.. إنت سكرت.. من غير ما تشرب حاجة؟

سكرت على الريحة ولا إيه؟

لم يجب أحمد.. أسرع مترنحاً.. صوب دورة المياه.. أغلق الباب علـــى مأســـاته.. سقط إلى ركبتيه.. أمام القاعدة.. لم يشعر برائحتها النتـــنة.. أفـــرغ ما في جوفه.. أفرغ كل شيء.. مرة.. ثم أخرى.. ثم أخـــرى.. أفـــرغ.. وأفـــرغ.. شـــعر أن كـــل أمعائه.. كل جوفه.. كل أعماقـــه.. كل أحلامه.. كل كيانه.. نفسه.. روحه.. قد انجرف هناك.. مـــع فضـــلات الآخريـــن.. في مجاري قذرة.. خانقة.. متجهة دائماً.. صوب اتجاه واحد.. لا غيره.

لابـــد له مـــن الخـــروج مـــن هـــذا المكان.. أسرع مهرولاً إلى الخـــارج.. استنشق هواءاً.. ظنه نقياً.. كان شارع الهرم شبه خال.. لـــيس إلا بعـــض الســـيارات المســـرعة هنا وهناك.. أسرع الخطى.. هـــرول.. ثـــم جرى.. ثم عاد ومشى ثم أسرع.. ثم جلس إلى السور الحديدي بالشارع.. ثم صار مرة أخرى.. ومرة أخرى جرى.. هارباً..

هارباً.. هارباً.. هناك شيء ما بغيض يجثم على صدره.. شيء ما ينذر بشر مستطير.

ألقى أحمد البحر.. بجسده إلى الفراش في اللوكاندة لم يبك.. لم يولول.. بل استسلم لنوم عميق.. وكأنه لم ينم منذ شهور.. نام أحمد البحر نوماً عميقاً.. مغلقاً كل أبوابه.. على ذاته.. هروباً من ذلك الإحساس الثقيل الذي يجسم على صدره.. ولا يدري سببه.. شيء آخر غير الكباريه.. والجو الخانق.. وإلهام.. شيء آخر.. أكبر من ذلك شيء ما ينذر بزلزال كبير.

استيقظ على صوت دق شديد على باب الغرفة.. أين أنا ما هذا الدق الشديد.. كيف أتيت إلى هنا.. لماذا أرقد بملابسي هكذا؟ ماذا حدث؟ أهو حلم؟.. تواصل الدق مرة أخرى.. أفاق قليلاً.. نهض متثاقلاً.. فتح الباب.. إنه فراش اللوكاندة صاح في وجهه فرحاً:

- يابيه قوم.. فوق.. الحرب قامت يا بيه.. أي والله ضربنا إسرائيل.

ثم ما لبث أن أسرع مختفياً.

(٢٥)

فـــي ذهول ولهفة.. وهو شبه منوم.. دخل أحمد البحر المقهى.. كـــان غاصا.. بالناس.. بحث عن جماعته.. كانوا بجوار الراديو الذي كان يذيع نشيد:

"يا مجاهد في سبيل الله.. دا اليوم إللي بنتمناه"

اتجـــه إلـــيه بـــنهاوي.. الذي كان واقفا وسط الجميع.. في حالة توتـــر شديد كان يتمتم بغير صوت.. وكأنه يقول بعض الأدعية.. سأل أحمد:

- إيه؟ فيه إيه؟ إيه إللي حصل؟ الحرب قامت صحيح؟

نظر إليه بنهاوي بنظرات تعجب.. أين كان هذا؟ ثم قال:

- صح النوم يا أستاذ.. كنت فين من إمبارح؟

وجـــم أحمـــد.. وكأنـــه قـــد أفاق من نومه في التو.. تذكر ليلة الأمس فصحب بنهاوي خارج المقهى قائلاً في ألم.

- شـــفتها.. شـــفتها يا أستاذ بنهاوي.. شفتها.. شفتها في المكان القذر إللي بتشتغل فيه بالليل.. بنت الـــ...

تساءل بنهاوي:

- هي مين دي.. إللي شفتها؟

أجاب في حنق:

- إلهام الكلب.

قال بنهاوي في هدوء:

- مـــا تظلمهـــاش يـــا أســـتاذ أحمد.. قلت لك بلاش بس إنت إللي صممت.. أعمل لك إيه؟

أجاب أحمد بغضب:

- أيوه.. حصل.. بس أنا كنت أعمى.. ما كنتش عارف إنها..

احتد بنهاوي بغضب قائلا:

- قلت لك ما تظلمهاش.. إنت.. إنت ما تعرفش ظروفها.

صاح أحمد معترضاً:

- ظروف إيه إللي تخلي البنت تشتغل...

أجاب بنهاوي بغضب متألم:

- طبعاً.. ما هو إنت ابن ناس.. ما تعرفشي ظروف الغلابة.

علق أحمد حانقاً ومصراً:

- برده.. مهما كانت الظروف.. مهما كانت.

صمت قليلا.. وكأنه في حيرة.. ثم قال متألماً:

- أصـــلك يـــا أستاذ بنهاوي.. ما شفتش العالم السكرانة بتعمل إيه فيها.. وفي جسمها.. بإديهم.

صمت بنهاوي وأجما ثم قال:

- على العموم.. دا مش وقته.

ثــم أسرع بالهروب داخل المقهى.. حيث كان جلال معوض يعلن بثقة شديدة:

"إيها السادة.. جاءنا البيان التالي.. تمكنت دفاعاتنا الأرضية من إســقاط.. طائرتيــن إسرائيليتين.. من طراز ميراج.. وبذلك بلغ عدد الطائرات التي أسقطت.. تسعين طائرة".

ما إن صمت المذيع حتى تبعه نشيد:

"الله أكبر.. الله أكبر"

"الله أكبر فوق كيد المعتدي"

لــم يعــد بــنهاوي يتابع تلك الأناشيد بطريقته الساخرة.. بل ظل واقفاً واجماً.. وهو يراقب كل من في المقهى.. يصيح:

- الله أكبر.. الله أكبر.. هو دا الكلام.. النصر لمصر.

صاح الحاج على صاحب المقهى:

- الله أكــبر.. يا جماعة.. المشاريب كلها.. النهاردة.. ببلاش على حســابي.. ربــنا ينصــرنا.. منصــور والله العظيم يا جمال والله العظيم.. منصور.

أقبل حسن الأعرج مسرعاً.. يهلل في فزح شديد:

- شــفتوا.. أنا قلت.. آن الأوان بقى نشيل كابوس إسرائيل.. من على قلوبنا.

لـــم يجلس حسن.. بل ظل يتحرك بعكازيه ذهاباً وإياباً في انفعال شديد.. كالآخرين.. ثم قال:

- إسمعوا يا جماعة.. لازم نعمل حاجة.. مش معقول نقعد ساكتين كده.

سأل بنهاوي:

- حانعمل إيه يعني؟

أجاب حسن:

- والله الود ودي.. أروح أحارب معاهم.. لكن بقى.. إرادة ربنا.

قال وليم:

- طبعاً يا جماعة.. أمال إيه؟ لازم نعمل أي حاجة.. نشارك بيها.. إنشـــاله نكتـــب يفـــط قماش نعلقها في الحتة أي حاجة تعبر عن مشاعرنا.

قال بنهاوي مؤمناً على كلام الأسطى وليم:

- صـــح.. كلكـــم صـــح.. يـــاللا.. علـــى العموم.. هاتوا القماش والألوان.. وأنا عليا الكتابة.

أخلى الحاج على النصف الأيمن من المقهى بالكامل من الكراسي والطاولات.. وشد بنهاوي القماش على الحائط العريض.. ثم بدأ يكتب بالطباشـــير الملـــون على القماش الأبيض.. وكأنه فارس في ميدان.. اكتشف الجميع جمال خط بنهاوي.. كتب الرجل:

"النصر لمصر"

"الله أكبر.. وعاشت مصر حرة"

"نحن معاك يا جمال"

"وما النصر إلا من عند الله"

"نحن جنودك يا مصر"

جلـــس كــل مــن أحمـــد البحر.. وكشري.. وشاب آخر يملؤون الحـــروف ألوانــاً بالفرشاه العريضة.. لم يكن الحاج علي ليهتم.. بما أصاب حائطه.. من ألوان مختلفة.

أحضـــر الحـــاج علـــي ســـلماً حملـــه بعض الشباب بقيادة وليم الحـــلاق.. لتعلـــيق تلـــك اللافـــتات.. علـــى رؤوس الحارات بعرض الشـــارع.. الـــذي أصـــبح وكأنه يوم عيد.. أو أنه من أيام انتخابات الاتحاد الاشتراكي.. هو مزين هكذا بشتى أنواع اللافتات.

اكتشـــفت الجماعـــة أنهـــم ليسوا وحدهم من قام بعمل لافتات.. للمشاركة والتعبير.. بل كان هناك الكثير والكثير منها.

الغريـــب أن أحمـــد البحر.. كان يعمل.. بانهماك شديد ونشاط.. وحمـــاس.. وكأنـــه قد وضع.. غطاءاً سميكاً من النسيان على جرحه المؤلم.

ليخفـــي مؤقـــتاً شـــعوره بـــالألم.. ما عاد يشعر بشيء لم يشعر بالســـعادة.. المنتشرة حوله.. لم يسمح لعدواها أن تنتقل إليه من أهل

الحـــي.. حيـــث البســـمة مرتســـمة على كل الوجوه تبادل الجميع مع الجمـــيع بفخر شديد.. كلمة واحدة (مبروك).. يقولها كل منهم.. لمن يعـــرفه.. ومن لا يعرفه.. كان الشارع حقاً في عرس واحد كبير.. كل رجالـــه هـــم العريس.. وكل نسائه هن العرائس فرحة جارفة.. حملت الجميع بفخر.. كنسمة رقيقة فوق.. بساط سحري.. إلى هناك.. حيث الأمل في تحقيق ولو حلم واحد.. جميل (كالنصر).

وكـــم صـــرخ الجميع.. وبكى الكثير منهم.. من شدة التأثر حينما دوى صوت المذيع أحمد سعيد الجهوري قائلاً:

"أيها السادة.. إن طائراتنا.. تدك الآن.. تل أبيب.."

صـــرخة كبرى.. موحدة.. صدرت من الشارع الطيب.. من أوله لآخـــره "الله أكبر" بكى لها.. الكبير قبل الصغير.. فأخيراً.. بعد سنوات عجـــاف.. سنوات من الانتظار.. سيتم القضاء على العدو الجاثم على قلـــب الأمـــة العربـــية "الله أكـــبر" رددها الجميع.. حتى الأسطى وليم بســـعادة كانت تلك أيام السعادة التي انتظرها الجميع. ولم يعشها باب البحر منذ زمن بعيد.

ســـاعات أو أيام من السعادة غمرت الشارع كله.. بيوتاً ومحلات رجـــالاً ونساءاً وأطفالاً.. سماءً وأرضاً.. أشجاراً وأحجاراً.. شيء لم يكن ليصدق.. يحدث فعلاً حقيقية وكأنه حلم.

كانت زجاجات البيبسي.. وأكواب العصير.. والحلوى والفاكهة.. تـــوزع على المارة.. تعبيراً عن الفرحة.. كل محل.. وكل بائع.. وكل

ست بيت.. وكل رجل يوزع مما عنده.. سعادة.. وإسعاداً.. ثم ماذا.

ثــم لاحــظ الجمــيع.. اتساع مساحات القرآن بالراديو وبيانات غامضـــة.. لــم يفهــم أحد معناها.. قل عدد البيانات العسكرية.. ظل الجمــيع في شوق.. لسماع المزيد من الانتصارات آملين دخول قواتنا تل أبيب في أية لحظة.

ســمع الــناس.. صراخاً شديداً.. خارج المقهى.. أسرع الجميع علــى مصــدر الصراخ.. لم ير أحمد البحر سوى أجساد وبشر تتقلب علــى أرض الشــارع مثــيرة للغــبار.. وكأنهم في عراك وقد تجمع المــارة.. اقــترب أحمد البحر.. أطل من فوق الأكتاف إنها.. سناء.. واخوتهــا.. وتلــك أمها.. إنهم يحتضنون شخصاً ما.. يتقلبون به في الــتراب.. صــارخين.. بكلمات لم يفهمها أحمد البحر.. وقف بنهاوي بذهول.. بجوار أحمد البحر.. وقال:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

بيــنما انهمــرت دمعــتان على خد الأسطى وليم الحلاق.. أسرع ومسحهما بأصابعه.. سأل أحمد متعجباً:

– إيه الحكاية؟ هو فيه إيه؟ أجاب بنهاوي:

– دا الواد عربي.. ابن أم العربي.. رجع من الجبهة ثم ما لبث أن انسحب مسرعاً إلى المقهى.

حمــل الــناس العربي.. الذي كان.. يرتدي بقايا زي عسكري..

حافـــي القدميـــن المشـــوبتين بالدمـــاء والأوســـاخ وقد لف عليهما.. خرقتيـــن.. كبيرتيـــن.. قذرتيـــن.. كانت يداه.. ووجهه.. ورقبته تكاد تكون سوداء بلون الطين الأسود من شدة القذارة.

كان الفتى مفتوح العينين عن آخرهما.. في صمت.. وذهول.

ســـاد شـــيء مـــن الحـــزن والترقـــب.. وقـــد غلف جو المقهى والشارع.. ووجوه الجميع.. صمت ما.

للمـــرة الأولـــى.. يطلب بنهاوي.. (قهوة سادة) نظر بنهاوي في الفـــنجال.. وكأنـــه يسأله.. يستطلعه يبحث في أعماقه القاتمة.. عما حدث.. وما يمكن أن يحدث بعد ذلك.. ثم ارتشف رشفة.

وقد بدى عليه أنه أكبر سناً.. أكبر بعشرات السنين سنين قضاها في صبر وأمل.. واحتمال مؤلم.

لاحـــظ أحمد البحر أن يديه.. ترتعشان.. وأنه يسكب القهوة على ملابسه.. دون أن يشعر.

خيمـــت الحقـــيقة أيامـــاً على رؤوس الناس.. شعر الجميع بما حدث.. فقط مجرد إحساس.

صـــار صـــمت أحمـــد الـــبحر.. الغريـــب.. بعينـــيه الساهمتين الحمراوتيـــن.. المنذرتين مخيفاً.. إنه فقط.. غارق في هذا الصمت.. مـــتحجر العينين.. بتلك النظرة المرعبة المحدقة في اللا شيء.. تجعل كل من يراه يشعر بالقلق والرهبة.

قال وليم.. هامسا لبنهاوي وهو يراقب أحمد في وجل:

- أنـــا خـــايف على الأستاذ أحمد.. شكله كده مش عاجبني.. لازم نوديه لدكتور.. ولا نشوف له صرفه.

أجـــاب بـــنهاوي.. وهـــو يتابع أحمد الصامت المتحجر.. بنظرة يملؤها الحنان الممتزج بالقلق.

- ربنا يستر يا وليم.. ربنا يستر.

كـــان واضـــحاً.. هذا الانغلاق الذي صار فيه أحمد البحر.. ولكنه للأســـف قد أغلق على بركان رهيب.. لم يأكل شيئاً.. لم يشرب شيئاً.. لم يفعل شيئاً منذ يوم الفاجعة.. إلا هذا الصمت المكتوم المترقب حتى هـــو نفســـه.. لا يعلـــم ماذا ألم به؟.. أين هو؟ أين ذهب؟.. يبدو أنه حـــبس شـــيئاً مـــا.. لم يعد ذهنه يعمل.. توقف.. أضرب عن العمل.. معترضاً رافضاً.. يشعر بخوف ما.. يشعر أنه يجب أن يخرج من هذا السجن.. ولكنه.. لا يعرف كيف.. إنه يغوص وكأنه يغرق.. وقد شلت حركته.. شل فكره.. ضاع صراخه.. لا أحد.. يمكن أن يسمعه يصرخ "انقذوني".

إنه فعلاً يحاول أن يقاوم.. يصارع.. ولكن بلا حركة.. بل صراع صامت.

لـــم يدر أحد.. لماذا قام الحاج علي في تثاقل ليفتح التليفزيون.. الـــذي ظل مغلقاً.. أياماً وأياماً.. كانت الموسيقى العسكرية.. تحمل في طياتها شيئاً من أنات صامته غير مسموعة.

ظهر المذيع.. هادئا.. حزينا.. هذه المرة:

"أيها السيدات والسادة.. السيد رئيس الجمهورية".

لــم يكن أحد ليصدق أن هناك مازالت فصولاً من المأساة باقية.. لم تكتمل بعد.. ظهر الحزن مجسماً على الشاشة متحدثا..

حينما وصل عبد الناصر إلى قوله:

"فقد قررت أن أتنحى.. تماماً.. ونهائياً.. عن أي منصب رسمي أو أي دور سياسي"

فــي تلك اللحظة.. التفت الجالسون جميعاً في رعب حين خرجت عــن أحمــد البحر.. صرخة.. رهيبة.. عالية فقد قفز الشيء المرعب المحبوس في أعماقه.. فجأة بهذه الصرخة الرهيبة...

انتفض أحمد البحر.. واقفا.. ظل يزأر كالوحش الكاسر.. كالمارد الجــبار ليكســر قــيوده.. لا يمكن لأحد يعرفه.. يرى في هذا الشيء الواقــف يزأر أحمد جابر البحر.. ثم ما لبث أن تحرك.. بشكل عجيب كمــا لــو لم يكن بشراً.. متجهاً إلى جهاز التليفزيون.. رفعه عن رفه العلــوي.. وزأر.. مــرة أخــرى.. ثم ألقى به إلى الأرض.. ثم وقف يحادثه بعد أن تحطم الجهاز.

- لا.. لا.. سايبنا ورايح فين؟ لا.. ماتهربش ما تسيبناشي..

ثــم هجــم بســرعة البرق يركل أجزاء التليفزيون.. يقفز فوقها محطماً لها.. إلى قطع صغيرة صارخاً.. فيها:

- رايـــح فين؟ قو لي؟.. جاوبني.. يعني إيه؟ خربتها.. وطربقتها.. وعـــاوز تهـــرب.. تسيبنا لمين.. تسيبنا لإيه؟ للذل.. لا.. دا إحنا من غيرك نضيع.. إلهام ضاعت خلاص.. بقت زي (توته) تعرف (توته).. إسأل النقيب طارق.. هو عارفها.. لا.. مش حأسمح لك فاهم.. إحنا محتاجين لك ما تسبيناشي ليهم.. فاهم؟

ثـــم عـــاد يحطـــم الأجزاء الصغيرة التي بقيت من التليفزيون.. الغريب أن أحداً لم يجرؤ على منعه من ذلك.. قال باكياً:

- يعنـــي إيـــه؟ هه؟ قول لي.. ضعنا خلاص.. خلاص أرجوك.. ما تسيبناش كده.

لـــم يدر أحد من أين جاءوا.. مجموعة من المخبرين السريين.. النشـــطاء.. في أداء واجبهم القومي.. الذين قاموا بتقييد أحمد البحر فـــي حمـــاس ونشاط.. شالين حركته.. دافعين به داخل أعماق سيارة المباحث.. هنا أيضاً.. حبست الدموع في أعين الرجال.

(الخاتمة)

كـــان الصيف قد انتهى.. كما مرت شهور من الدراسة وبدا كأن الجمـــيع قـــد نســـى أحمد البحر.. فمازالت المدرسة تفتح أبوابها كل يـــوم.. والمقهـــى يستقبل رواده كل يوم والباعة يروحون.. ويجيئون بالشارع كل يوم..

لـــم يتغـــير بالحياة إلا شيء واحد.. نظرات الناس التي صارت.. أكثر انكسارا.

عـــند عـــودة بـــنهاوي في إحدى الليالي.. شديدة البرودة باردة الظلمـــة.. شـــاهد بعض الأطفال الشحاذين.. وجامعي أعقاب السجائر يضربون شخصاً ما.. اقترب بنهاوي طارداً لهم.. رأى بنهاوي بعد أن انفـــض الأولاد.. أحد المجاذيب.. الذين يفدون إلى مسجد سيدي محمد الـــبحر من حين لآخر.. طمعاً في حسنة من الناس الطيبين المتبركين بالمقام.. كان المجذوب يصرخ حتى بعد أن انفض عنه الشحاذون.

- يـــا أولاد العفاريـــت.. إنـــتم داخليـــن جهنم إنشاء الله انتم مش عارفيـــن أنـــا مين.. أنا حفيد الشيخ.. الشيخ جدي يا شياطين.. والله دعوة مني.. تروحوا جهنم.

اقـــترب بـــنهاوي منه.. مهدئاً له.. حاول أن يربت على كتفه.. وجل المجذوب.. وهرب إلى مدخل المسجد قائلا:

- إنت مين؟ عاوز إيه مني؟ حاتضربني إنت كمان.

كـــان الخـــوف واضـــحا على الرجل.. بعينيه المفتوحتين ولحيته الطويلة.. وشعره المشعث.. وملابسه الكثيرة المهلهلة.. قال بنهاوي:

- ولا حاجة يابني ولا حاجة؟ انت مين؟ أنا شفتك فين؟

قال الرجل:

- إوعى تضربني.. أنا خدام الجامع ده.. ما تضربنيش.

فتح باب الجامع.. وأطل الشيخ مسعود.. قائلا:

- ادخل يا شيخ بحر من البرد.. ياللا يا ولد.

حيـــنما دخـــل المجـــذوب إلى المسجد وأغلق الباب لم يعد يشعر بـــنهاوي بالـــبرد.. ولكنه أحس أن الظلام قد ازداد سواداً.. وقد أطبق علـــى صـــدره.. فمســـح دمعتين.. كانتا متعلقتين بطرفي عينيه.. ثم ذهب.

تمت